

RA. U. B. LIBRARY

تاريخ الشعر السياسي

إلى منتصف القرن الثاني

تأليف

أحمد السائب

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

شارع عدلى باشا تليفون ٥١٣٩٤

59662



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

- ١ -

هذه فصول في تاريخ الشعر السياسي ، حاولت فيها وصف هذا الفن الأدبي في أطواره المتعاقبة منذ نشأته في الجاهلية إلى نحو منتصف القرن الهجري الثاني . وقد رأيت أن هذا الفن نشأ مع الجماعة العربية في شكلها القبلي ، وانتقل معها حين أخذت صورة الإمارة ، وكان في الحالين رؤسومها الداخلية ، وصحيفتها الخارجية .

فما جاء الإسلام ، وأخذ يصوغ من هذه القبائل المتنافرة أمة واحدة تخضع لسلطان واحد ، وتضطنح روحه الإنساني مكان حميتها الجاهلية ، أخذ الشعر يسند هذا النظام الجديد ويسايره ، فكان سجل الأمة العربية في دور تكوينها ، والدولة الإسلامية في بسط نفوذها ، والثورات الأهلية طول احتدامها ، والأحزاب السياسية في فترة اضطراعها ، حتى إذا قامت الدولة العباسية رأيناها يصور لنا ما انطوت عليه من عوامل الفناء : ما بين طالبيين ينقمون عليها ، وشعوبية يناهضونها ، وكسروية تتقمصها لعلها تدل لنفسها منها ومن العرب جميعا .

وقد ذهبت في تفسير هذا الشعر مذهبين متقابلين وإن لم

يتنافرا : —

أحدهما: قريب يقف عند فنونه المعروفة ، نسيبها ، ووصفها ، ومدحها ، وهجاء ، وحماسة ، وفخرا ، فهي بذلك أبواب من الشعر تتجه إلى شخص ، أو قبيلة ، أو حزب ، أو أمة ، تصور ما لها وما عليها في رأى التاريخ الحقيقى أو رسم التصوير الخيالى .

والثانى : بعيد ينتهى عند غاية هذا الشعر والهدف الذى أنشئ فى سبيله أيا كان هذا الهدف : حزبا سياسيا ، أو قبيلة عربيا ، أو شعبا أجنبيا ، أو مذهبيا حكوميا ، وهذا معناه أن الشعر مهما يكن فنه الغنائى ، يجب أن يُقاس بغايته التى يمجّد لتحقيقها ، فيدعم حزبا أو يهدمه ، ويؤيد حكما أو يناهضه ، ويرضى عن نظام أو يثور عليه . وهذه الفنون الغنائية القريبة لا تكون ، على هذا الوضع ، إلا وسائل جزئية ، وظواهر فنية ، ربما لا تعنى شيئا حقيقيا ، وإنما صنعت رموزا وقوارص ذات أثر بعيد ، وغاية مرجوة .

— ٢ —

أما المنهج العام لهذه الفصول فقد قام على أصلين : أحدهما سياسى ، والثانى فنى ، وعاش الثانى فى إطار الأول محتفظا باستقلاله الذاتى ، وطوابعه الخاصة .

وقد لاحظت فى هذا الأصل السياسى أن يساير التكوين الطبعى للجماعة ، وخضوعها لأطوار الزمن وعوامل الحضارة ، والطابع السياسى لكل طور حسبما تراءى لى ، فكانت الأبواب والفصول نتيجة حتمية لهذه الأطوار .

ذلك أن العصر الجاهلي شهد العرب قبائل تتكبد على عصبية داخلية ، وعلى منافسة خارجية ، ثم شهد فيهم إمارات تتصارع في سبيل نفسها وغيرها ، والشعر في كل أداة ماضية ، وصحيفة سائرة ، فانطوى هذا العصر على فصلين لتوضيح ذلك .

وكان العصر الإسلامي الأول ذا أشكال ثلاثة : الأول يمثل الأمة العربية تأتلف وتتكون شعبا واحدا ، وذلك كان عمل الرسول وأبي بكر الصديق ، والثاني يمثل الدولة الإسلامية تبسط سلطانها الخارجي وتتصل بالشعوب الأخرى اتصال غلبة وفتوح ، وهذا كان مشغلة عمر وعثمان ، والثالث يمثل الصراع في سبيل الحكومة أو العرش الإسلامي بين علي ومعاوية ، وينتهي باستقرار الملك في بيت الأمويين ، فكان من ذلك فصول إسلامية ثلاثة .

أما العصر الأموي فقد اشتمل على الصراع بين الأحزاب المختلفة وكان لكل حزب فصل بذاته ، وكان الفصل الخاص بالأمويين أوسع هذه الفصول إذ كانوا حزبا سياسيا ، وحكومة ذات نظام داخلي وخارجي معا . ثم وجدنا طبقتين من الشعراء استثقلتا عن الأحزاب وعاشت في ظلها أو متصلة بها أي اتصال ، فكان لا بد من العناية بهما ، وعلى ذلك تمت فصول الكتاب وأبوابه .

وقد لاحظت أيضا أن يكون عنوان كل فصل خلاصة لمضمونه ، وإشارة إلى وجهتنا في تفسير التاريخ الإسلامي وما لا بد من شعر سياسي مباشر أو غير مباشر .

أما الأصل الفني فقد أقنناه على الخواص الأدبية للشعر السياسي

نفسه ، فلحظناها في كل عهد من هذه العهود عامة ، وفي كل حزب من الأحزاب في العصر الواحد ، وعند كل شاعر في حزبه قدر المستطاع . وحاولنا أن نردها إلى عِلَمِها السياسية ، والدينية ، والمكانية ، والشخصية ، لعلنا نوفّر لهذه الدراسة عناصر التاريخ الأدبي التي تلائم هذا الموضوع .

— ٣ —

ولست أدري ، فلعل هذه الدراسة ، في محاولتها الشمول والتنسيق ، أول ما يعرف الأدب العربي ، فليس عجيبا ، إذا ، أن يعتورها النقص ويعوزها الكمال ، ولست غافلا عن ذلك ، بل قصدت معه نشر هذه الفصول لعلها تتضمن حقا انتويته فوفّقتُ إليه ، أو خطأ تورّطت فيه فدعوت بهذا النشر إلى إصلاحه . ومع ذلك فقد حاولتُ تفسير قسم كبير من الشعر القديم تفسيراً سياسياً ، وانتفعت بما قرأته متصلاً بهذا الموضوع للأقدمين والمعاصرين ، وتحرّيتُ الإيجاز الشديد في أكثر المواضع ، مكتفياً بالاشارة إلى المراجع ، مشيراً بمتابعة البحث واستقصاء الفروع ، آسفاً ألا أجد من وسائل النشر ما يتسع لأكثر من هذا القدر ، فكل ما أرجوه أن تكون هذه الفصول مرتادا للباحثين .

والله ، وحده ، أسأل العون والتوفيق

أحمد الشاذلي

تاريخ

الشعر السياسي

إلى منتصف القرن الثاني

تمهيد

— ١ —

لما كان القول في الشعر السياسي يتوقف حتما على التعريف بكلمة «سياسة»
أولاً ثم بهذا الاصطلاح وهو «الشعر السياسي» ثانياً ، كان لابد لنا من الالمام
بهذا التعريف في صدر هذا التمهيد .

ترجع المعاني اللغوية لكلمة «سياسة» كما وردت في المعاجم إلى تدبير
شئون الناس ، وتملك أمورهم ، والرياسة عليهم ونفاذ الأمر فيهم^(١) وذلك يقتضى
بالطبع ، وكما هو نص المعاجم ، أن يكون هناك قوم لهم أمور ناشئة عن اجتماعهم
يتولى تدبيرها رئيس نافذ الكلمة ، شأن الولاة والأمراء بالرعية ولذلك قيل :
« من طلب الرياسة فليصبر على مضض السياسة » وقيل : « إذا صحت السياسة
تمت الرياسة »^(٢) .

وهذه المعانى هى ما تدل عليه كلمة Policy فى الانجليزية فهى فن التدبير أو
الرياسة أو طريقة الحكم وأشكاله فى قطر من الأقطار^(٣) .

وإذا تقدمنا إلى المعنى الاصطلاحى لهذه الكلمة رأيناه يكثر ويتنوع بين
الباحثين الاسلاميين ونسكتفى هنا بالإشارة إلى ما ذكره (إخوان الصفا) عن علم
السياسة وأنه من العلوم الالهية : والسياسة — عندهم — خمسة أنواع ، منها
السياسة النبوية القائمة على تهذيب النفوس ونقلها من الغى إلى الرشاد رغبة فى النجاة
من العقاب والظفر بالثواب يوم القيامة ، ويختص بها الأنبياء والرسل .

ومنها السياسة الملوكية القائمة على إنقاذ الأحكام التى رسمها صاحب الشريعة
أمراً ونهيماً ، ويختص بها خلفاء الأنبياء والأئمة المهديون الذين قضوا بالحق وبه
كانوا يعدلون .

(١) راجع لسان العرب والقاموس المحيط : مادة سوس .

(٢) نهاية الأرب للنويرى ج ٦ ، ص ٤٣ .

(٣) راجع Twentieth Century Dictionary ودائرة المعارف البريطانية فى المادة نفسها .

ومنها السياسة العامة التي هي الرياسة على الجماعات كرياسة الأمراء على البلدان والمدن ورياسة الدهاقين على أهل القرى ورياسة قادة الجيوش على العساكر وما شاكلها ، فهي معرفة طبقات المرءوسين وحالاتهم وأنسابهم وصناعاتهم ومذاهبهم وأخلاقهم وترتيب مراتبهم ومراعاة أمورهم وتفقد أسبابهم وتأليف شملهم والتناصف بينهم وجمع شتاتهم واستخدامهم فيما يصلحون له من الأمور واستعمالهم فيما يشاكلهم من صناعاتهم وأعمالهم اللائقة بواحد واحد منهم .

ثم السياسة الخاصة المتصلة بتدبير أمور الأسرة الداخلية والخارجية والصحية والاخوان . والسياسة الذاتية ، ومردّها معرفة الانسان نفسه وأخلاقه وسلوكه والنظر في جميع أموره ^(١) .

وإذا نظرنا في هذه الأقسام رأينا أن ثلاثتها الأولى هي التي تتصل بموضوعنا من حيث اتصالها بتنظيم الجماعات بعد ما تتكون ، وتدبير شئونها الدينية والدنيوية حتى يكون منها شعب مستقر ، مستقيم الحياة ، موفّر الآمال .

ثم نرى أيضاً أن هذه الأقسام الثلاثة — فيما يتصل بوجهة النظر الاسلامية — تعود إلى أصل واحد ، هو تدبير شئون الأمة حسب التعاليم الاسلامية ، وهي تعاليم تتناول الأمور الدينية والدنيوية معاً ، يقوم بها الرسول وخلفاؤه والولاة المعينون في الأقاليم ، والاسلام لم يفصل بين النوعين أو لم يفصل بين السلطتين الروحية والزمنية على حد هذا التعبير السياسي الذي شاع منذ القرون الوسطى بين الأوربيين ^(٢) فقد كانت الخلافة ثم الملك مرادّ النظامين معاً ، الديني والسياسي بحيث لم توجد — على أصل شرعي — سلطتان رئيسيتان إحداهما دينية والأخرى دنيوية أو زمنية ، أو لم يوجد في إقليم واحد خليفتان شرعيان أو مملكان ، هذا للدين وذاك للسياسة ، وإن وجد في الطور العباسي الثاني ملك يدبر شئون الدولة السياسية ، وخليفة له السلطان الروحي وما يتصل به من تقاليد لا غير ، فإن هذا

(١) رسائل إخوان الصفا ، طبع مصر ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٢) راجع علم الدولة لأحمد وفيق ج ١ ، ٢٦٣ Leacock : Elements of Political

الوضع كان خضوعاً للواقع السياسى الناشئ عن ضعف الخلفاء العباسيين ولم يكن له سند شرعى من أصول الدين ونظمه السابقة الأصلية .

والسياسة عند المحدثين حكم الأمم أو فن هذا الحكم ، وعلم السياسة هو ما يبحث فى حكم الأمم من حيث أشكاله ونظمه ومقدار ملاءمته لأحوال الشعوب سواء أكان هذا البحث تاريخياً يتناول نظم الحكم فى أطوارها المتعاقبة أم واقعياً يتناولها كما هى الآن ^(١) .

وإذا كان علم السياسة يتناول الحياة الداخلية للدولة أولاً فإنه يتناول العلاقات بين الدول ثانياً ، ومعنى ذلك أن يكون موضوع هذا العلم ذا شقين : النظم والأشكال التى تخضع لها الحكومات كل فى داخلها . والنظم والالتزامات التى تربط الدول كلا بالأخرى وهذا الجانب الثانى هو ما يدعى بالقانون الدولى International Law ^(٢) فالسياسة داخلية وخارجية كما هو معروف مشهور ، والسياسة الخارجية تقوم بين الدول على قوانين السلم والحرب ، والتجارة العالمية والهجرة الدولية ومناطق النفوذ السياسى والاقتصادى ونحو ذلك مما يكون مجالاً لتلاقى المصالح الدولية وتعارضها .

هذه هى السياسة ، ويكون الشعر السياسى إذاً ، هو هذا الفن من الكلام الذى يتصل بنظام الدولة الداخلى أو بنفوذها الخارجى ومكانتها بين الدول .

ومن الطبيعى أن يتناول الشعر أمور الدولة ونظمها ، فللشعراء كما للخطباء والكتاب والقصاص هذا الحق المقرر ما دامت حرية الأدب مكفولة وما دام هناك من رجاله من يستطيع تناول هذه النظم بالدرس والنقد والتحليل .

وقد اتصل الشعر العربى بالسياسة منذ العصر الجاهلى أو منذ وجود القبيلة

(١) الفصل الأول فى علم السياسة ونظرية الدولة من Leacock Elemento of Political Science .

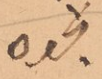
(٢) المرجع السابق ، الفصل السادس ، ص ٨٩ .

العربية التي تعد الصورة المصغرة للدولة إذ كانت صورة الجماعة البشرية المنظمة بعد أن جاوزت دور الأسرة وسيأتي القول في ذلك .

ولكن المسألة هي : كيف يتناول الشعر السياسة ؟

هناك فرق أصيل بين الشعر والنثر في تناول الأشياء ، فالنثر يتناولها مقررأ شارحاً ناقداً يعتمد على البراهين المنطقية الصريحة والجدل الدقيق ذاهباً في ذلك مذهباً علمياً كما يشاهد ذلك في المقالات والتقارير والمؤلفات والمحاضرات ، وأما الشعر فمن حيث أنه فن رفيع تراه يتناول هذه الأشياء نفسها بطريقته الفنية التصويرية الشعورية بحيث لا يلتزم البراهين المنسقة ولا الجدل التام العناصر ، ولا التفصيل العريض ، وحسبه أن يوجز القول مكتفياً بأهم عناصره معتمداً على نباهة القارئ الذي يدرك المحذوف ، ثم يعنى بالناحية الخيالية يتخذ منها صوراً تلائم غايته من الالـلال أو الاحتقار ، وربما اتخذ منها براهين خطابية لقصد التأثير .

هذا هو الأصل المثالي لكل من الفنين ، ومع ذلك فقد يجور أحدهما على مجال الآخر ويتخذ شكله في معالجة المسائل ، فاذا بالشعر يقص ويقرر ويحتج ، وإذا بالنثر يرمز ويكتفى ويصور اعتماداً على شهرة الموضوع ووضوح مسائله وبراهينه فيكون منه نثر أدبي ممتاز أو خطابة .

وحينما نعود إلى الشعر العربي لنعرف كيف تناول السياسة .  وفي ذلك طرقات شتى : —

X (١) منها أن يسوق البراهين بعبارة شعرية ، ويحتج للرأى بقياس منطقي وإن لم يلتزم في ذلك صورة الأشكال المقررة ، وعلى القارئ أو السامع أن يردّ المقدمات والنتائج إلى أما كتبها ثم يتم بنفسه ما لم يصرح به الشاعر ، فعل ذلك الكميـت الأسدي شاعر الشيعة في القرن الأول حين احتج للعلويين على بني أمية الذين أخذوا الخلافة لأنفسهم وقالوا إنها لاتورث عن النبي حتى يطمع فيها أقاربه الأدنون ، فقال لهم الكميـت : —

يقولون لم يُورث ولولا مُترأته لقد شَركت فيه بكيـل وأرحبُ
ولا نتشلت عضوين منها يحابر وكان لعبد القيسُ عضو مؤرَّبُ
فان هي لم تصلح لحى سواهم إذاً ، فذوو القُربى أحق وأقربُ (١)

وإذا حللنا هذه الأبيات لتأخذ وضعها البرهاني في هذا الاحتجاج انهمينا
منها إلى قوله : لو لم يورث النبي لكانت الخلافة حقاً شائعاً في القبائل العربية
جميعاً ، وهذا باطل لأن هناك هذا الأثر المعروف «الخلافة في قريش» وكان
حبسها في قريش لقرابتها من الرسول عليه السلام . وإذا كانت القرابة هي العلة
فيكون الأقرب أولى من غيره ومن المقرر أن الهاشميين أولى من الأمويين لهذه
القُربى . ثم يكون العلويون أولى الهاشميين لذلك .

وقد سلك هذا النهج مروان بن أبي حفصة فيما بعد محتجا للعباسيين على
الطالبين ، فاتخذ حجته من قانون المواريث الاسلامى فقال إن بنى
البنات — يقصد أولاد فاطمة الزهراء بنت الرسول وزوج على بن أبى طالب —
لا يرثون كورثة الأعمام — يريد العباس بن عبد المطلب عم الرسول عليه
السلام — فورثة الخلافة صارت في جانب أعمام الرسول وهم بنو العباس . وهذا
معناه أن العباسيين أحق بالخلافة من الطالبين ، فلما عقد المهدي البيعة لابنه
الهادى قال مروان من قصيدة يمدح المهدي : —

يا بنَ الذى ورثَ النبي محمداً دونَ الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم قطع الخصامَ فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام
أنسى يكون — وليس ذاك بكائن — لبنى البنات وراثَةُ الأعمام

فغضب الطالبيون من مروان لهذا البيت الأخير خاصة ، ورد عليه شاعرهم —
محمد بن يحيى بن أبى مرة التغلبى — بنفس أسلوبه البرهاني فقال إن بنى البنات

(١) من قصيدة بديوان الهاشميات ، ص ٤٢ — بكيـل وأرحب حيان من همدان من
كهلان القحطانية ويحابر قبيلة من مراد من كهلان وعبد القيس من جديلة من أسد ربيعة ،
المؤرَّب السكامل التام .

يرثون كما يرث الأعمام لأن البنت ذات نصيب من ميراث والدها قد يكون نصف تركته وقد لا يرث العم معها شيئاً ، وذلك ما أنشده : —

لِمَ لا يكون ، وإن ذاك لكائن ، لبنى البنات وراثته الأعمام
للبنات نصف كامل من من ماله والعم متروك بغير سهام^(١)

وقد سلك هذا المسلك عمران بن حِطَّان من شعراء الخوارج فضمَّ بيتاً له آية من القرآن الكريم هي روح مذهبهم السياسى فى نظام الحكم وشكل الدولة الإسلامية فقال : —

ونحن بنو الاسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر^(٢)

مضمناً معنى هذه الآية الكريمة «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ومذهبهم أن الناس سواسية أمام الدين لا فضل لأحد على غيره إلا بالتقوى وأن لا وراثه فى الحكم ولا جنسية فيه ، ومن توافرت له الكفاية ولى الحكومة مهما تكن جنسيته ، فأنكروا استئمثار قریش والعرب بالسلطان . وقد اكتفى الشاعر بالاشارة الموجزة إلى أصل البرهان الخارجى دون أن يعرضه عرضاً شكلياً منطقياً . وكذلك كان شعراء الأمويين يحتجون للخلفاء بكفايتهم دون سواهم وأنهم وحدهم أهل للملك لما توافر فيهم من حزم وحسن تدبير وكرم وبراعة ، ونحو هذا الاحتجاج تغلب عليه الصفة الخطابية . على أن الحق التاريخى يعرف لبعض الأمويين كفاية ممتازة فى سياسة الدولة الإسلامية وتدير شئونها تديراً يلائم الأحوال التى وجدوا فيها سواء ذلك فى الشئون الداخلية والخارجية ، لذلك نجد شاعراً كالأخطل يقول فى عبد الملك بن مروان : —

فى نبعة من قریش يعصبون بها ما إن يؤازى بأعلى نبتها الشجرُ
حشدٌ على الحق عيافوا نحن أنفُ إذا ألت بهم مكروهة صبروا
وإن تدجّت على الآفاق مظلمة كان لهم مخرج منها ومعتصر

(١) راجع القصة فى الأغاني ، ج ٩ ، ص ٩٤ طبعة دار الكتب .

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢٥ .

أعطاهم الله جَدًّا يُنْصَرُونَ بِهِ لَا جَدًّا إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدَ مُحْتَقَرٍ
لَمْ يَأْشُرُوا فِيهِ إِذْ كَانُوا مَوَالِيَهُ وَلَوْ يَكُونُ لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ أَشْرًا^(١)
شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا
ثُمَّ يَتَنَاوَلُ حِجَّةَ الْأُمَوِيِّينَ الْأُخْرَى الْقَائِمَةَ عَلَى الثَّارِ لِعُثْمَانَ الْخَلِيفَةِ الْمَقْتُولِ ظَلَمًا
وَأَنَّ الْأُمَوِيِّينَ ، يُمَثِّلُهُمْ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ ، هُمْ أَصْحَابُ هَذَا الثَّارِ مِنْ عَلَى
وَشِيعَتِهِ ، الَّذِينَ أَهْمَلُوا النُّهُوضَ بِهَذَا الْوَاجِبِ سَرَاعًا ، وَقَدْ انْتَصَرَ الْأُمَوِيُّونَ فِي
(صَفِين) وَآلَتْ إِلَيْهِمُ الْخِلَافَةُ فِي أَعْقَابِ هَذَا الْيَوْمِ ، فَقَالَ الْأَخْطَلُ فِيهِمْ
مِنْ قَصِيدَةٍ : —

وَيَوْمَ (صَفِين) وَالْأَبْصَارُ خَاشِعَةٌ أَمَدَّهُمْ إِذَا دَعَا مِنْ رَبِّهِمْ مَدَدٌ
عَلَى الْأُلَى قَتَلُوا عُثْمَانَ مَظْلَمَةً لَمْ يَنْهَهُمْ نَشْدٌ عَنْهُ وَقَدْ نَشِدُوا
فَتَمَّ قَرَّتْ عَيُونُ الثَّارِينَ بِهِ وَأَدْرَكُوا كُلَّ تَبَلٍ عِنْدَهُ قَوْدٌ
فَلَمْ تَزَلْ فَيَلِقُ خُضْرَاءَ تَحْطِمُهُمْ تَنْعَى ابْنَ عَفَانَ حَتَّى أَفْرَخَ الصَّيْدُ^(٢)
وَكَانَ عَمِيدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسِ الرِّقِيَّاتِ يَحْتَجُّ لِقَرِيشٍ وَيُنَادِي بِالْإِعْتِزَالِ بِهَا وَهُوَ
فِي جَانِبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ مَنْسُكِرًا بِاعْتِمَادِ بَنِي أُمَيَّةٍ عَلَى الْيَمِينَةِ ، سَاخِطًا عَلَى هَذِهِ
الْفَرْقَةِ بَيْنَ الْأَسْرِ الْقُرَشِيَّةِ وَكَانَتْ حُجَّتُهُ تَمْلُخُصُ فِي أَنَّ قَرِيشًا قَبِيلَةُ الْخِلَافَةِ وَأَنَّ
الْعَرَبَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهَا لِمَكَانَتِهَا الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ وَالْإِجْتِمَاعِ الْعَرَبِ عَلَى احْتِرَامِهَا : —

حَبْدًا الْعَيْشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعٌ لَمْ تُفَرِّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مُلْكِكَ قَرِيشَ وَتَشْمَتِ الْأَعْدَاءُ
أَيُّهَا الْمَشْتَهَى فَنَاءُ قَرِيشَ بِيَدِ اللَّهِ عُمرُهَا وَالْفَنَاءُ^(٣)

(١) ديوان الأخطل ص ١٠٤ — النبع أجود الشجر المفرد نبتة ، يعصبون يطيفون بها ويلزمونها ، يوازي يحاذي ، عيافو الحنا ، يكرهون الفحش ، تدجت أظلمات ، معتصر ملجأ لم يَأْشُرُوا ، لم يبطروا ويكفروا .

(٢) ديوان الأخطل ص ١٧٤ — نشد : طلب . التبل الثَّار . القول = القصاص ، يقول أدركوا ثأرهم وكان ذلك عقاباً لما اقترفته من الأثم قتلة عُثْمَانَ . الفيلق الكتبية الضخمة والخضراء السوداء أى يعلوها سواد الحديد الذي تلبسه . أفرخ : سكن ، الصيد الكبير يريد أنهم ذلوا

(٣) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٧٢ .

حتى الموالي لم ينسوا ماضيهم في ظل الاسلام فذكروه مفتخرين به على العرب أصحاب هذا المجد الطريف آمليين أو عاملين لاعادة سلطانهم الذي ذهبت به الفتوح الاسلامية واحتجوا لدولتهم بهذا المجد التليد ولقوا في هذه السبيل أذى كثيراً ، وهذا يزيد بن ضبة مولى ثقيف يقول في هشام بن عبد الملك : —

ألا مَنْ مبلغ عني هشاماً فما منا البلاء وما بعدنا
وليننا الناس أزماناً طوالاً وسُسناهم وسدناهم وقُدنا
وأتلدُ مجدنا أنا كرام بحد المشرفة عنه دُدنا^(١)

وهكذا كان الشعر السياسي في صورته الأولى يميل إلى الاحتجاج ويأخذ في ذلك مأخذاً يشبه به النثر مع الاحتفاظ بأسلوبه الفني إلى حد كبير .

(٢) ومنها أن يقف الشعر بجانب مذهب سياسي دون أن يلتزم هذا الاحتجاج المنطقي ، وإنما يؤيده بأساليب أخرى ؛ فهو يمدح هذا المذهب وأصحابه ، ويفتصر لهم في مواقفهم ويهجو غيره من المذاهب ورجالها ويخذلهم ويكون المدح والهجاء على أساس هذه العقيدة السياسية ، فاليها ترجع فنون الشعر حماسية ووصفا ورثاء ومدحاً وهجاء ، ويكون الشعر في هذه الحالة شعراً سياسياً أيضاً وإن لم يتناول نظريات السياسة ومعانيها الجزئية أو يعالجها شرحاً ونقداً لأن الشعر يقاس هنا بغايته التي يرمى إليها ويحميها في سبيلها إذ كانت هي التي توجهه وتؤثر فيه وفي قائله ، ولا شك أن قيمة الشعر الفنية هنا وفيما مضى تختلف باختلاف عقيدة الشعراء ومقدار صدقهم فيما يذهبون .

هذه الصورة الثانية كثيرة الورد على السنة الشعراء الذين ذكرناهم فيما سبق وغيرهم ممن اتصلوا بالسياسة ، فهذا قطري بن الفجاءة يعتمد في تأييد مذهبه الخارجي على النسيب والحماسة ويبلغ من ذلك درجة سامية ، وشعره هذا سياسي لأنه قيل في سبيل هذه العقيدة الراسخة والفناء في هذا المذهب الذي اعتنقه خالصاً مخلصاً حتى كان لذلك أثره في جمال الشعر وقوته ، قال في يوم (دولاب)^(٢) .

(١) الأغاني ج ٧ ص ٩٥ طبعة دار الكتب .

(٢) موضع خارج البصرة كانت فيه موقعة بين أهل البصرة ونافع ابن الأزرق ومن معه من الخوارج .

لعمرك إني في الحياة لزاهد
من الخضرات البيض لم يُر مثلاً
ولو شهدتني يوم دُولاب أبصرت
فلم أرى يوماً كان أكثر مقعصاً
فلو شهدنا يوم ذاك وخيلنا
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم
وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
شفاءً لذى بث ولا لسقيم
ظعان فتى في الحرب غير ذميم
يمجّ دما من فائظ وكليم
تبيح من الكفار كل حريم
بجناح عدن عنده ونعيم^(١)

وعذا دعبل الخزاعي الشيعي كان يمدح العلويين ويهجو العباسيين هجاء
مرا على أساس مذهبه الشيعي لا يفتر في ذلك وكان يعد مدحه للعلويين عبادة
وقربى إلى الله ، مدح على بن موسى الرضا في خراسان بقصيدة مشهورة : —

مدارسُ آيات خلت من تلاوة
وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مَقْفَرُ الْعَرَصَاتِ
لآلِ رَسُولِ اللَّهِ بِالْخِيفِ مِنْ مَنَى
وَبِالرُّكْنِ وَالتَّعْرِيفِ وَالْجُمَرَاتِ
أَرَى فِيهِمْ فِي غَيْرِهِمْ مَقْسِماً
وَأَيْدِيهِمْ مِنْ فِيهِمْ صَفَرَاتِ
بناتُ زِيَادٍ فِي الْقُصُورِ مَقِيمَةً
وَأَلِ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْفَلَكَوَاتِ^(٢)

وأما عبيد الله بن قيس الرقيات فقد أبدع في مدح الزبيريين ورثائهم في
سبيل مذهبهم ثم اتخذ الغزل وسيلة سياسية غاظ بها الأمويين واحتال في ذلك
بأن تغزل بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وبنات عبد العزيز بن مروان
ليغيط عبد الملك وابنه الوليد وأخاه عبد العزيز ورجال بني أمية جميعاً في سبيل
سخطه على سلوكهم السياسي ، ولكنه بعد ما ذكر قصته الغزلية ذكر أنها
وقعت في المتام لئلا يؤذي أم البنين ، وكان من ذلك أن أهدر الأمويون دمه
وكاد يهلك لولا شفاعاة أم البنين وبعض الطالبيين ، ومن المؤلم أن كان موضوع
القصيدة مدح مصعب بن الزبير ، ومنها : —

ألا هزأتُ بناقرشَ يّة يهتز موكبها
رأتُ بي شبيبةً في الرأ س منى ما أغيبها

(١) السكامل للمبرد ج ٢ ص ١٨٢ والأغاني ج ٦ ص ٥ بلاق .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ١٩٤ طبعة مرجليوث .

فدع هذا ولكن حجة قد كنت أطلبها
إلى أم البنين متى يقربها مقربها^(١)

وقد ذهب الكميت هذا المذهب الثاني وكذلك السيد الحميري . ومن انضموا إلى الأمويين كانوا يفعلون ذلك حتى لا يتورطوا في احتجاج لا يروج ولا يصدق .

(٣) وهناك صورة ثالثة لتناول الشعر الحياة السياسية ، وربما كانت أضعف الدرجات جميعاً ، أو أقلها مباشرة لخدمة الرأي السياسى وإن كانت ذات قيمة ملحوظة في هذا الباب ، تلك أن يمدح الشعر قوماً أو يهجوهم أو يرثى موتاهم أو يعجب بآثارهم دون أن يكون الشاعر معتقداً مذهبهم ولا مثنياً عليهم في سبيل هذا المذهب ولا ذاكره له ، إنما كان ذلك ، مثلاً ، في سبيل عطاء يناله ، أو حرمان أصابه ، أو صلة خاصة بينه وبين زعيم ، هذه الصورة تعد تأييداً سياسياً غير مباشر يعنى بها أرباب المذاهب السياسية ويؤثرون شعراءها بالعطايا والتكريم أو يغفرون لهم خطاياهم حتى يكتر قاصدوهم ، والمشيّدون بذكرهم ، ما دام في ذلك بعد لصيتهم وقوة لمكانتهم ونفوذهم في حين أن الشعر كان رغبة أو رهبة متصلة بشخص الشاعر وصالحه الخاص ، وكانت هذه الصورة كثيرة المظاهر في تاريخ الشعر العربى على عدم مباشرتها الفكر السياسية اعتمد عليها الأمويون واتخذوا لهم داعية سياسياً هو بشر بن مروان وإلى العراق أيام عهد الملك . يجمع حولهم الشعراء ويؤلف بينهم في وجه جرير القيسى شعراً^(٢) وكذلك فعل الشيعة بالشعراء الموالى وغيرهم ، وقد رخص عبد الله بن الزبير لأبى قطيفة الأموى الشاعر أن يعود إلى يثرب ليعيش فيها لما سمع شعره الذى يحن فيه إلى هذه المدينة الأثرية عنده^(٣) . ومن شواهد ذلك ما كان من مدح جرير والفرزدق للأمويين وولاتهم وابتهاج هؤلاء بمدح الشعراء علماً منهم بأنه تأييد

(١) الديوان ص ٢١٨ .

(٢) الأغاني ج ١١ ص ٦١ ، ج ٨ ص ٨١٥ .

(٣) الأغاني ج ١ ص ٢٩ طبعة دار الكتب .

أدبى عام وقوة معنوية وإن لم تكن مباشرة . ولقد غضب النعمان بن المنذر على النابغة الذبياني لما مدح الحارث بن جبلة الغساني ، لأن النعمان رأى في هذا المديح سندا لمنافضه من آل غسان حتى اضطر الشاعر أن يفسر للنعمان هذا المديح بأنه لا يتجاوز الشكر على يد أسداها إليه الحارث الغساني كما يفعل الشعراء مع النعمان نفسه فيشكرونه على فواضله دون أن يكون ذلك ذنبا يقتضيه هؤلاء الشعراء : —

حلقت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولكننى كنتُ امرأ إلى جانب من الأرض فيه مُستتراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا^(١)

هنا تجد النعمان ابن المنذر قدر شعر النابغة من ناحية غايته ، وعرف آثاره في هذا الموقف بينه وبين خصمه السياسى دون عناية بهذه المعانى الجزئية التى اعتدربها النابغة ، كما تجد النابغة يدعى — حقا أو عبثا — أنه قال مديحه في حدود هذا الأفق الضيق الذى يحيا فيه الشعراء حين يمدحون رجلا أحسن معهم الصنيع ، وعندى أن النابغة كان قد التجأ إلى الحارث ليغيط النعمان بن المنذر أولي حمله على العفو عنه واسترجاعه ، والخلاصة أن النابغة فسر شعره بمعاينة الجزئية ولكن النعمان فسر به بغرضه وغايته .

وشاهد ثان هو ما فعله ابن المولى من مخضرمى الدولتين — وهو محمد بن عبد الله بن مسلم مولى الأنصار — حين مدح المهدي بقصيدة يقول فيها : —
وإن أمير المؤمنين ورهطه لأهل المعالى من لؤى بين غالب
أولئك أوتاد البلاد ووارثو النسبى بأمر الحق غير التكاذب
ثم ذكر فيها الطالبين فقال : —

وما نقوموا إلا المودة منهمو وإن غادروا فيهم جزيل المواهب

ثم دخل بعد ذلك على الحسن بن زيد وكانت له عليه وظيفة كل سنة فقال
يمدحه بقصيدة يقول فيها : —

ولو أن امرأ ينال خلوداً بمحل ومنصب ومكان
أو بفضل لنا له حسن الخير بفضل الرسول ذي البرهان

فقال : حسن ، أما إذا جئت الحجاز فتقول لي هذا وأما إذا مضيت إلى العراق
فتقول : « وإن أمير المؤمنين ورهطه » . الأبيات ، فقال له : أنتصفني يا بن الرسول
أم لا ؟ فقال نعم فقال : ألم أقل : « وإن أمير المؤمنين ورهطه » ؟ أستم
رهطه ؟ فقال : دع هذا ، ألم تقدر أن ينفق شعرك ومديحك إلا بتهجين أهلي
والطعن عليهم والأغراء بهم حيث تقول : « وما نقوموا إلا المودة منهم » ؟ البيتين
فوجم ابن المولى وأطرق ، ثم قال : يا بن الرسول إن الشاعر يقول ويتقرب
بجده ، ثم خرج من عنده مفكراً ، فأمر الحسن أن تحمل إليه وظيفته ويزاد
فيها ، فقال ابن المولى : والله لا أقبلها وهو على ساخط ، فأما إن قرنها بالرضا
فقبلتها ، وأما إن أقام وهو على ساخط ألبته فلا ، فقال : قل له قد رضيت فأقبلها
فقبلها . هذه القصص^(١) تنحل إلى حرص المهدي على مدح الشاعر والظفر بثنائه
ولا سيما أنه كان يرى حماية المهدي للطالبين وما أثره عليهم ، وإلى حرص على
بن الحسن على مدح الشاعر ورضاه وإن أسخطه موقفه مع خصمه ، هذا وذاك
اعتزازاً بهذا الشعر في سبيل المذهب السياسي وكيانه ، وإلى أن الشاعر يعرف
قيمة شعره فيبذله لكل منهما طمعاً في المال ، وأما السياسة فأغلب الظن أن ابن
المولى كان يضمّر في نفسه بغض الاثنين وحب قومه والحنين إلى مجدهم أن يعود
وحسبه من الرجلين أن يظفر بالمال وقد فعل .

كذلك حرص الأمويون على مدائح السكيت فيهم وهو شاعر الشيعة
المقدم ، وذلك لأنهم رأوا في ذلك قوة لهم وكسباً لشاعر خصومهم إلى حد ، مع
أنه هو الذي فتح للشيعة باب الاحتجاج لحقهم وجود فيه إلى غاية بعيدة^(٢) .

(١) الأغاني ج ٣ ص ٢٩٣ طبع دار الكتب .

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ١١٣ بلاق .

ومن شواهد ذلك — وإن كان مزيجاً من العصبية والسياسة — ما فعل زفر بن الحارث الكلابي القيسي مع القطامي الشاعر التغلبي حين أسر فأطلقه ورد عليه متاعه فانقلب الشاعر يمدح زفر مدحاً رائعاً ، واستحال شعوره من عصبية تغلبية وسخط على قيس عيلان إلى إعجاب بزفر ، وأسف لهذه الحروب القائمة بين حمي نزار : قيس وتغلب ، وكان ذلك قوة لزفر الكلابي ولقيس عيلان (١) .

— ٣ —

على أن أكثر ما مر من الشواهد كان متصلاً بالسياسة الداخلية للدولة ، وهناك شعر كان متصلاً بالسياسة الخارجية ، وعلاقات الدولة الإسلامية بغيرها من دول الفرس والروم والترك وغيرها أثناء الفتوح الإسلامية وأيام الحروب المختلفة ، وقد رأيت فيما مر مثلاً لشعر متصل بالسياسة الخارجية مدح به النابغة الحارث الغساني لما فر من النعمان بن المنذر بالخيبة مع أن الشعر كان مدحاً لم يلم برأى سياسى ظاهر ولا بموقف كل من الامارتين نحو الأخرى ولا بموقفهما من الفرس والروم ، ومع ذلك كانت له آثاره كما مر .

وإذا نحن نظرنا في الشعر الذي قيل في ظل السياسة الخارجية للدولة الإسلامية وجدنا أكثرته من باب الصورة الثانية مما قدمنا ، كانت صلة الدولة بغيرها قائمة على الفتوح لتكوين الامبراطورية الإسلامية أول الأمر ، ثم على الحذر والترص بعد ذلك . وعلى الكسر والفر بين سيف الدولة والروم وكان الشعر المتصل بذلك حماسة وفخراً ومديحاً وهجاءً ووصفاً ولكن هذه الفنون تفتشى إلى غاية واحدة ، هي مكانة الدولة وسلطانها الخارجى وما يلابس ذلك من فتوح وانتصار أو هزيمة ، يسجلها الشعر ويعتز بالدولة ويشيد بنفوذها كما يعتذر عن هزيمتها ويؤملها بالظفر العاجل .

(١) ديوان القطامي ص ٧ والأغاني ج ٢٠ ص ١٢٠ بلاق .

من ذلك ما قال كعب الأشقرى لقتيبة بن مسلم الباهلى لما دخل مدينة (فيل)
وقبل من خوارزم شاه ما صالحه عليه ثم رجع إلى هزار سب (١).

قد رمتك (فيل) بما فيها وما ظلمت ورامها قبلك الفجفاجة الصليف
لا بجزىء الثغر خوَّار القفاة ولا تعشُّ المكاسر والقلب الذى يحف
هل تذكرون لىالى الترك تقتلهم ما دون كازة والفجفاج ملتحف
لم يركبو الخيل الا بعد ما كبروا فهم ثقال على اكتافها عنف
إنى رأيت أبا حفص تفضله أيامه ، ومساعى الناس تختلف
قيس صريح و بعض الناس يجمعهم قرى وريف فمنسوب ومقترف
لو كنت طاوعت أهل العجز ما اقتسموا سبعين ألفاً وعز الصغد مؤتلف (٢)

هذه قطعة ليست إلا مدحاً لقتيبة وهجاء للترك وتحقيرا لهم واعتزازا بالحماسة
كل ذلك فى ظل هذه الدولة إلا سلامية وما تضرطع به من فتوح دينية وسياسية
وتكوين إمبراطورية واسعة .

وهذا أبو تمام فى فتح عمودية على يد المعتصم بالله العباسى يبلغ بقصيده
البائية ذروة المجد فى الشعر السياسى المتصل بالفتوح وبمكانة الدولة الخارجية
أمام الروم فكان مدحاً وهجاء وفخراً وحماسة ووصفاً ، ولكنها جميعاً نغمات شتى
تأثف حول سلطان الدولة وسياستها الخارجية وما قامت عليه من دين عزيز برىء
من الخرافات والأساطير : —

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب (٣)

وجاء بعده أبو الطيب فأشاد بسلطان سيف الدولة ومواقفه مع الروم وبلائه
العظيم فى حماية الثغور الاسلامية من غزواتهم المتتالية ، وقد اجتمع فى كلام أبى

(١) تاريخ الطبرى ، طبع أوروبا ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٢٣٩ .

(٢) الفجفاجة المدعى ما ليس عنده . هش المكاسر ضعيف لا يحتمل والمكسر موضع الكسر .

(٣) ديوان أبى تمام طبع بيروت ص ١٥ .

الطيب جلال الغن ، وساطان الحمدانية ، فكان فيه دولتان : دولة الشعر ودولة السيف . —

إذا زار سيف الدولة الرومَ غازيا كفهاها لِمَامٌ لو كفاه لِمَامٌ
تنام لديك الرسل أمنًا وغبطة وأجفان رب الرسل ليس تنام
إذا خاف ملك من مليك أجرته وسيفك خافوا والجوار تُسام
فلو كان صلحاً لم يكن بشفاعة ولكنّه ذل لهم وغرام^(١)

— ٤ —

هذا هو أسلوب الشعر حين يتناول السياسة ، وأما النثر فالأصل فيه ما قدمنا من أنه فن تقرى يتناول المسائل موضعاً معتمداً على آراء صريحة تامة العناصر بعيداً عن التهويل إلى درجة ملحوظة ، عنصر الحقيقة فيه أظهر ، يلتزم المساواة غالباً إلا أن يكون خطابة فانه يأخذ بقدر من الشعر ويعمد إلى المبالغة قصد التأثير .

والملاحظ أن الفنون النثرية التي استخدمتها السياسة في تاريخ الأدب العربي هي العهود ، والرسائل ، والقصص ، والجدل ، والخطابة ثم التأليف . وهذه الأسماء نفسها كافية لفهم منها كيف كان النثر يتناول السياسة ، لأن كل فن منها له أصوله البيانية المقررة في علم البلاغة ، وإذا كان من الشعر شيء يوضع بازائها فقد كان المنتظر أن يكون القصص والغناء والتمثيل التي هي الأبواب الرئيسية العامة لفن الشعر ، ولكننا نعلم أن الشعر العربي غنائى غالباً ، وأن المحاولات التمثيلية والقصصية الحديثة ، على قصورها لم تستغل في سبيل السياسة للآن .

ومن أقدم ما لدينا من العهود والرسائل ما كان في صدر الإسلام على عهد الرسول وخلفائه الراشدين^(٢) وتماز بالايجاز ، والجزالة ، والتقرير ووضع الأصول والقواعد الأولى التي قامت عليها نظم الدولة الإسلامية في تكوينها الداخلي من

(١) العرف الطيب ص ٤٠٧ في هدنة يطلبها ملك الروم سنة ٣٤٤ هـ .

(٢) راجع مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوى والخلافة الراشدة للدكتور محمد حميد الله

الحيدر آبادى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤١ .

الجنس العربى وفى علاقاتها الخارجية مع الفرس والروم . والطابع العام لها أنها كانت تجمع بين التعاليم الدينية والسياسية أو كانت تتناول السلطين الروحية والزمينية مجارة لطبيعة الخلافة الإسلامية وأنها « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الآخروية والدينيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » ^(١) وقد لحظ ذلك السير توماس أرنولد فى كتابه (الخلافة) ووازن بين نظام الدولة الإسلامية فى الشرق ونظام الامبراطورية المقدسة فى الغرب ^(٢) وسيأتى القول فى ذلك .

ومن أمثلة هذه الوثائق السياسية الإسلامية ما كتبه عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص فى سبايا مصر إبان الفتح « أما بعد فانه جاءنى كتابك تذكر أن صاحب الاسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد ما أصبت من سبايا أرضه ، ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولنم بعدنا من المسلمين أحب إلى من فىء يُقسم ثم كأنه لم يكن ، فاعرض على صاحب الاسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تُخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الاسلام وبين دين قومه فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ومن اختار دين قومه وُضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه ، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبيله مكة والمدينة واليمن فانا لانقدر على ردهم ولا نحب أن نصلحهم على أمر لانفى به » ^(٣) ومن نصوص ذلك الباب هذا العهد بين على ومعاوية فى التحكيم ^(٤) وما دار بينهما من رسائل هى حوار حول الملك لمن يكون ^(٥) .

ونورد هنا جانباً من هذا الحوار السياسى الذى دار بين عبد الله بن عباس من قبل على بن أبى طالب وبين الخوارج . قال لهم ابن عباس : ما الذى

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩ مطبعة التقدم .

(٢) النظم الإسلامية لحسن ابراهيم ص ٢٠ الطبعة الأولى .

(٣) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٧٦ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٨١ .

(٥) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٠ المطبعة الشرقية .

نقمتم على أمير المؤمنين ؟ قالوا : قد كان للمؤمنين أميراً فلما حكم في دين الله خرج من الايمان فليمتب بعد إقراره بالكفر نعد له ، فقال ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك بأن يقر على نفسه بالكفر ، قالوا : إنه قد حكم ، قال إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد فقال عز وجل : « يحكم به ذوا عدل منكم » فكيف في أمانة قد أشكلت على المسلمين ، فقالوا إنه قد حكم عليه فلم يرض ، فقال : إن الحكومة كالأمانة ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما ، فقال بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قریش حجة عليكم فان هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم : « بل هم قوم خصمون » وقال عز وجل : « وتذره قوماً لداً ^(١) » وهناك مناظرة أخرى كانت بينهم وبين على نفسه انتهت بانضمام فئة من الخوارج إليه هم الخوارج ^(٢) وهو حوار كما ترى يعتمد على أصول دينية ، وبراهين عقلية ، ويدور حول الحكومة أو الخلافة وموقف على والخوارج منها ، ولقد كانت مشكلة غم أمرها على كثير من رجال الرأي حتى اليوم .

وقد اتخذ القصص الإسلامي أداة سياسية ودينية معاً ^(٣) وكانت عبارته تشبه الأسلوب الخطابي الوعظي ، يلقي في المساجد وفي ميادين القتال ينهض به رجال أعدوا له واختصوا به ، ومن أمثلته ما قال صالح بن مسرّح الخارجي التميمي في أصحابه : الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . اللهم إنا لا نعدل بك ولا نخفد إلا إليك ، ولا نعبد إلا إياك ، لك الخلق والأمر ، ومنك النفع والضر ، وإليك المصير . ونشهد أن محمداً عبدك الذي اصطفيته ورسولك الذي اخترته وارتضيته لتبليغ رسالاتك ونصيحة عبادك حتى قبضه الله ، ثم ولي الأمر من بعده التقى

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢٠ مطبعة التقدم سنة ١٣٢٤ هـ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٨ .

(٣) راجع فجر الاسلام لأحمد أمين ص ١٨٧ .

الصديق على الرضى من المسلمين فاقتدى بهديه واستن بسنته حتى لحق بالله رحمه الله ، واستخلف عمر فولاه الله أمر هذه الرعية فعمل بكتاب الله وأحيا سنة رسول الله ولم يحنق فى الحق على جرته ، ولم يخف فى الله لومة لأم حتى لحق بالله رحمه الله عليه ، وولى المسلمين من بعده عثمان فاستأثر بالفى وعطل الحدود وجار فى الحكم واستذل المؤمن وعزز المجرم فسار إليه المسلمون فقتلوه الخ^(١) .

أما الخطابة فالأمر فيها واضح ، وكانت أداة قوية فى تأييد الدين والسياسة وخدمة الدولة الإسلامية وبخاصة فى القرون الأولى ، ولعلنا لا نحتاج هنا إلى إيراد نماذج لها ؛ فخطب الرسول والخلفاء الراشدين ومن بعدهم إلى صدر الدولة العباسية مشهورة معروفة . ولا ينسى أحد ما كان لعلى ومعاوية وزيدوا الحجاج من مواقف خطابية كانت لها آثارها فى إقرار الأمور فى نصابها وتهدة التائرين وإخضاع المتمردين^(٢) ، وكما كانت الخطابة تتناول خدمة الدولة وإقرار شئونها كانت تناهضها أحيانا بالخروج على الخلفاء والولاة ، كخطبة قتيبة بن مسلم الباهلى فى خراسان خروجاً على سليمان لابن عبد الملك بن مروان^(٣) وخطب الخوارج . وكذلك الشأن فى جميع الفنون النثرية .

وخلاصة القول أن هذا الأدب العربى ساير السياسة وكان صورتها الفنية شعراً ونثراً وإن اختلف تناولها إياها تبعاً لطبيعة هذين الفنين وما يفترقان فيه من أساليب ولعمل أهم هذه الفروق ما ذكرنا قبلاً من أن الشعر يتناول السياسة بأسلوبه التصويرى والنثر يتناولها بأسلوبه التقريرى ، ويكون من نتيجة ذلك أن تكون المسائل فى النثر موضحة منسقة تامة المقدمات والنتائج تتجه إلى العقل للاقتناع ، ولكن الشعر يوجز ويكتفى ويعتمد على الجانب الشعورى لتبعث التأثير العاطفى .

(١) تاريخ الطبرى طبع أوروبا ج ٢ ق ٢ ص ٨٨٢ .

(٢) راجع نماذج ذلك فى العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ١٠٩ المطبعة الشرفية

سنة ١٠٢١٦ هـ ونهاية الأرب للنويرى ج ٧ ص ٢٠٠ وما يليها .

(٣) نقائص جرير والفرزدق طبع ليدن ج ١ ص ٣٥٤ .

ومهما يكن من الأمر فالأدب العربي غلبت عليه السياسة في القرن الأول الهجرى لأنه عهد تكوين الدولة في الداخل وبسط نفوذها في الخارج ، فكان لا بد من مسابقة الأدب لهذه التيارات وتسجيلها ، وقد فعل ، فان فيه صورة الدولة ناشئة تؤلف القبائل البدوية أمة عربية ، وجيوشها التي أخذت تفتح في فارس والروم حتى غلبت على أكثر المعمور إذ ذاك من الصين إلى الأندلس ، وكذلك هذه الأحزاب والفرق الداخلية التي أخذت تتماهى وتعتك حول الملك الاسلامى وتبعث العصبية القديمة التي ردت المسلمين في بعض البيئات إلى حياة جاهلية في ظل الاسلام . وفيه ما رأينا من أن هذه العصبية كانت من أهم العوامل في سقوط الأمويين وإسلام القيادة إلى العباسيين .

الباب الأول

في العصر الجاهلي

الفصل الأول

في سبيل القبيلة

الترام قبلي

- ١ -

إذا كان الشعر السياسي ما كان متصلاً بكيان الدولة ونظامها الداخلي أولاً ثم بمكانتها العالمية وعلاقتها بسائر الدول ثانياً ، فقد يكون من الغريب أن نبحث عن شعر سياسي للأمة العربية في هذه الفترة الجاهلية التي سبقت ظهور الاسلام لأن المعروف أن هذا الشعب العدناني كان يعيش قبائل متفرقة متنافرة لا تربطها وحدة عامة تؤلف بينها وتكون منها شعباً متحداً منظماً تقوم به دولة عربية كدولة الفرس والروم اللتين عاصرتا العرب في ذلك العهد القديم ، وذلك أن العربي لم يستخدم جنسيته ليكون على أساسها وحدة شاملة تتناول عشائره جميعاً فيصبح ذا شعب أو دولة رئيسية وإنما كان يعيش في أفق ضيق غالباً هو القبيلة التي انطوت عليه وفي فيها فخصرت أفقه ورسمت له عصبية وكانت له كالدولة للرجل المتمدين الحديث ، وصارت الوطنية العربية الشمالية وطنية قبلية لاجنسية ، لذلك قد يتوقف الباحث عن الشعر السياسي في هذه الفترة حين يطلب إليه الظفر بقصائد تناول بالنقد حكومة ونظامها الخاص أو مكانة لها بين دول أخرى عربية أو أجنبية .

ولسكن يظهر أن هذه الفكرة ، على وجاهتها القرية ، ليست حاسمة ولا عامة ، ومن الخير للباحث أن يستأنى بعض الشيء لعله واجد في مضارب هذه الصحارى

أوفى أطرافها صورة ولو جزئية أو بدائية لهذه الدولة العامة التي تتمتع بنظام سياسى يدور حوله شعر يسمى شعراً سياسياً ، ولعله واجد مع ذلك أشكالاً لجماعات بشرية ليس بينها وبين التكوين الدولى النهائى إلا خطوة واحدة قصيرة ، ولكنها مع ذلك ذات أوضاع وتقاليد مماثلة لما نعرفه نحن اليوم من الشرائع الخاصة بالدولة ، أو من العلاقات العامة بين الدول جميعاً .

فأى شىء كان من ذلك ؟

لسنا نريد الرجوع إلى الماضى البعيد لنبحث فى العناصر الأوليه لتكوين الجماعات البشرية من الفرد إلى الأسرة وما اتصل بذلك من فروض وآراء ^(١) وحسبنا أن نقف عند هذه الأمة العربية حين ظهر عليها التاريخ وعرقها الشعوب المجاورة لها معرفة منظمة ، وذلك كان فى القرن السادس الميلادى وقبل الدعوة الاسلامية فقد نجد فى هذه الفترة أشكالاً منتظمة لجماعات بشرية يصح أن تكون دويلات أو إمارات توافرت لها خواص الدولة العامة وإن ظهرت يسيرة بسيطة تلائم هذا الدور الذى تجتازه الأمة العربية من أدوار التاريخ أو الدرجة التي تقف عليها فى سلم الحضارة .

فى تلك الفترة كان عرب الشمال ^(٢) — وهم مناط البحث — يحيون حياة تغلب عليها البداوة والضرب فى الصحراء ، وقد تجاوزوا دور الأسرة إلى دور القبيلة ومثلوا هذا الدور أكمل تمثيل لما وثقوه بالعصبية القبلية التي لزمتهم عنيفة صارمة حتى بعد أن استقروا فى سواد العراق ومشارف الشام وكونوا هذه الإمارات العربية فى ظل الفرس والروم .

وإنما نتناول هذه الحال الصحراوية البسيطة أولاً لأنها عماد الحياة العربية ونظامها السائد ، ولأنها سبقت تكوين الإمارات العربية القديمة ، ثم كانت مع ذلك آخر درجات الانتقال إلى النظام الدولى العام الذى أقامه الاسلام فيما بعد .

(١) راجع فى ذلك مقدمة الحضارات الأولى لفوستاف لوبون ترجمة أسعد رستم ص ٣١

وما بعدها .

(٢) لم نعرض لليمنية لأن لهم دولتهم المنظمة وأدبهم الخاص .

هذه الدرجة البدوية العامة تتمثل في النظام القبلي ، وليست القبيلة أولى الخطوات لتكوين الجماعة البشرية بل سبقتها الأسرة في هذه السبيل إذ كانت أول وحدة بشرية نظامية واضحة ، أو هي حكومة صغيرة ترى فيها الأب رئيساً مطلق السلطان — أو بطر كقديماً — ذا منظر مهيب يحف به أولاده وأحفاده وعبيده وقطعانه ، وقد نشأ في كل أسرة عصبيتها القائمة على الأخوة والختوة والوالدية والعمومة لتحقيق لنفسها التعاون على شئون الحياة والعدالة الداخلية ثم الأمن الخارجى ، وإذا اجتمعت عدة أسر لأسباب جنسية أو اقتصادية أو تعاونية رأينا صورة أخرى للجماعة البشرية معقدة هي القبيلة .

القبيلة ، إذاً ، مجموعة من الأسر تسكن منطقة محدودة أو تعيش معاً عيشة ترحل وانتقال ، وتجد في اجتماعها سبب قوتها وتحقيق أغراضها الحيوية خاضعة في ذلك لقواعد وقوانين مصدرها العرف والعادات ومردّها إلى رئيس حازم ممتاز هو رئيس القبيلة أو شيخها^(١) .

هذا هو الأصل العام لتكوين القبيلة ، وقد تكونت القبيلة العربية كذلك وكان تأليفها قائماً على أصول شتى كونت عصبيتها ، منها النسب فالقبيلة درجة عليا دونها الفصيلة والعشيرة والفخذ والبطن والعمارة وبعدها الشعب^(٢) .

وهذه الطبقات قائمة هنا على صلة الدم ، وكل طبقة أوسع مما دونها ، ومنها الحليف ، فقد يكون الحليف أسيراً في قبيلة لا يستطيع فداء نفسه فيسمونه بسمة تلك القبيلة فيعد حليفاً لها^(٣) يرث من القبيلة كما يرث الصريح من أبنائها^(٤) .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٢ وعلم الدولة لأحمد وفيق ج ١ ص ٥٢ .

(٢) نهاية الأرب للنويرى ج ٢ ص ٢٨٤ وبلوغ الأرب للألوسى ج ٣ ص ١٨٨

وتاريخ التمدن الاسلامى لحورجى زيدان ج ٤ ص ١١ .

(٣) الأغاني ج ٧ ص ١١٠ بلاق .

(٤) تاريخ الوزراء ص ٢٥١ وراجع التمدن الاسلامى ج ٤ ص ١٧ وما بعدها .

وإذا قتل كانت ديته نصف دية الصريح ، وكذلك الاستلحاق بأن يدعى الرجل رجلاً يلحقه بنسبة وقد يكون عبداً أو أسيراً أو مولى فيسميه مولاه وينسبه إليه ، والمؤاخاة تشبه الحلف وتكون بين الأفراد كما تكون بين القبائل فإذا آخى العربي رجلاً نصره وحماه كأنه أخوه ، ثم الاسترقاق وكان العرب يتخذون الرقيق ويستعينونهم في الحرب ويستغلونهم في السلم ، ويقرب منه الولاء ، فكل عبد أعتق فهو مولى ينسب لسيده الذي أعتقه أو إلى قبيلته ورهطه ، والمولى كالقريب .

أما رئاسة القبيلة العربية فكانت في أهل العصبية والجاه وإذا تساوت العصبيات في جماعة قدموا أكبرهم سنًا ، وإذا أشكل عليهم الانتخاب لأى سبب عمدوا إلى الاقتراع ، وكان في كثير من القبائل الجاهلية بيوتات عرفت بالرئاسة والشرف وامتازت من سائر القبيلة كبيت هاشم بن عبد مناف في قريش وبيت آل حذيفة بن بدر الفزارى من قيس عيلان وبيت آل زرارة بن عدى من تميم وكان لأهل هذه البيوتات نفوذ في القبيلة ^(١) لاحظته ساسة المسلمين فيما بعد عند تولية الحكام فقد قال ابن عباس للحسن بن علي : « ولأهل البيوتات تستصلح بهم عشائرهم » .

أفيمكن أن تكون هذه القبيلة العربية في الجاهلية صورة مصغرة للدولة ؟ وهل يعد الشعر القبلي تبعاً لذلك شعراً سياسياً ؟

يجب أن نعترف أولاً أن القبيلة ليست دولة بهذا المعنى الاصطلاحي الحديث يقوم على نظام دقيق مدون ، وحكومات ذات شرائع ودواوين ، وجيوش منظمة وولادة يتقاسمون الحكم في مختلف الشؤون والأرجاء ، وإنما تعد القبيلة ركنًا من أركان الشعب الذي تقوم الدولة على اكتافه ، فهي لذلك آخر الخطا في النظام الاجتماعي العادي ليس بعدها إلا أن تتألف عدة قبائل منظمة يكون منها شعب

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ١٨٩ والعقد الفريد ج ٢ ص ٣٧ وتاريخ التمدن الاسلامي

يقيم دولة ويفشىء حكومة فى إقليم ما ، ومع ذلك فليس من صالح البحث العلمى أن يترك هذه الصورة الاجتماعية ويتبرأ منها النظام السياسى مطلقاً وبخاصة إذا طال عليها الأمد حتى استوى كيانها ونضجت وصارت لها تقاليدھا الداخلية وعلاقاتها الخارجية المقررة التى لا يفرقها من النظم السياسية المدنية إلا أنها لم تدون أو لم تهذب أو لم تجر على عدة قبائل بدلا من قبيلة واحدة مع أن القبيلة الجاهلية كانت أحيانا كثيرة العدد كما كانت عديدة الفروع والعشائر .

من المقرر فى علم السياسة أن مقومات الدولة أو عناصر تكوينها الأصلية أربعة : الإقليم والجمهور والوحدة والنظام ^(١) وقد يضاف إليها عنصر آخر هو السلطان أو الحكم إذ كان ثمرة طبيعية للعنصرين الأخيرين ، وأما وحدة الدين فلم تعد الآن لازمة لتكوين الدولة ، فالشعب المشتت فى أنحاء الدنيا لا يكون دولة مادام غير مستول على إقليم معين يستقر فيه ، كذلك الإقليم غير المأهول لا يعد وطناً دولياً ، ولا بد من توافر الوحدة لكل من الشعب والإقليم ، ولا بد من ائتلاف السكان وخضوعهم لنظام واحد أو حكومة تدبر أمورهم مهما يكن لون هذه الحكومة عادلا أو ظالماً ، فليس من اللازم أن يتوافر الرضاء المتبادل بين الشعب والحكومة حتى تتحقق فكرة الدولة ، وإنما اللازم هو توافر سلطان يخضع له الشعب وأن يكون هذا السلطان ظاهرة قانونية مقررة .

هذا من حيث تكوين الدولة ونظامها الداخلى ، وهناك السياسة الخارجية التى تستمد على تنظيم العلاقات بين الدول أيام الحرب والسلم تحقيقاً للتعاون العالمى فى العلم ، والفن ، والتجارة ، والصناعة ، والمواصلات ، والهجرة ، والاستيطان والصحة وما إليها ثم العمل على تخفيف ويلات الحرب ، وتنظيم تبادل الأسرى ومنع التمثيل بالقتلى أو تعذيب الأسرى ، وتحديد مركز الدول المحايدة ونحو هذا مما يتصل بالتزامات الدول كل نحو الأخرى ، ثم وسائل التحكيم الدولى فيما ينشأ من خلاف بين الأمم حتى لا تلجأ إلى الحرب ^(٢) ألسنا نجد هذه المقومات الدولية فى نظام القبيلة العربية داخلياً وبين القبائل معاً ؟

نظرة واحدة إلى المصور الجغرافى للقبائل العربية فى الجاهلية تدل على أن لكل منها مكاناً أقامت فيه مستقرة بوجه عام ، وإن حدث تنقل وارتحال فإما أن يكون فى حدود هذا الإقليم العام ، وإما أن يكون إلى إقليم آخر يعود مستقر القبيلة وموطنها الجديد ، حتى لو فرضنا قبيلة تنزل كل شهر فى مكان ، فإن فكرة الإقليم تكون مع ذلك متوافرة للقبيلة ، وإن كان إقليماً دائراً بين جوانب هذه الصحراء تحتله القبيلة مصطفاة أو مرتبعة ثم تتركه إلى سواء حيث الخصب والكلاء وتوافر المراعى للإبل والمياه للحياة^(١) . وعلى كل حال فقد لوحظ أن قيس عيلان كانت تسكن غربى نجد ، وكانت تميم تسكن بادية البصرة ، وهذيل تقيم فى جبال قريبة من مكة وكنانة أقامت جنوبى الحجاز ، وكل هؤلاء من مضر ، وكانت أسد من ربيعة تقيم شمالى وادى الرمة ، ومن قبائل اليمن التى نزحت إلى الشمال طيء وكانت تسكن جبل شمر ، وعاملة وجذام أقامتا فى بادية الشام ، والأزد التى حكمت عمان ، ومنها الغساسنة الذين أسسوا إمارتهم شرقى الشام وخزاعة التى تسلطت على مكة من قبل قريش وهكذا^(٢) .

ذلك ما يتصل بمكان القبيلة وقد كان مكان استيطان معروف ، أما عن الجمهور أو الشعب فقد رأيت أن جماعة القبيلة تكونت من أسر تجمعها لحة النسب والقربى غالباً ، ومهما يكن رأى فى قيمة الأنساب العربية فقد كانت الجنسية العربية سائدة تكوين القبيلة بحيث لا تجد فيها غير عربى إلا نادراً ، وعلى ذلك يكون عنصر الوحدة متوافراً أيضاً من ناحية الجنسية ، ولو كان هناك دولة عربية عامة تسيطر بشكل ما على هذه البلاد الشمالية مع تعدد قبائلها لكانت القبيلة جزءاً من هذه الوحدة السياسية العامة ولقدت بذلك وحدتها الجزئية المستقلة إلى حد كبير . هذه الوحدة كانت قوية جداً بعامل العصبة التى مثلتها القبيلة أصدق تمثيل بحيث لا تجد شعباً آخر يفوق الشعب العربى فى الاستمسك بعصبيته وتقديم

(١) مقدمة الحضارات الأولى لفوستاف لوبون ص ٧٨ .

(٢) معجم ما استعجم للبكرى وجر الاسلام لأحمد أمين ص ٨ .

صلة الرحم على ماسواها من الصلات^(١) وذلك لأن العربي يحترم دائماً ما اعتاده وجرى عليه عرفه ، ولأنه في حاجة مستمرة إلى الدفاع والهجوم فصارت العصبية ذات مظهرين : داخلي يبدو في التفاف أفراد القبيلة حول رئيسها الممتاز وطاعتهم له ، وخارجي يتراءى في الغزو والانتصار للشعير ظالماً كان أو مظلوماً ، وهي خاصة الحكومة القبلية التي تحملها على الفتوح وإقامة دولة عامة إذ كانت « نعمة على ذوى القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة^(٢) . وهناك الخلق القبلي أو القومي إذ كان عاملاً في تقويم هذه الوحدة وقد تركز في المروءة^(٣) وأهم مظاهرها النجدة والكرم ، فوحدة القبيلة تحققت في الجنس واللغة والخلق والعادات وطرق العيش ثم الدين . فقد كان لكل قبيلة وثنية صنمها فاتخذت هذيل سواعاً ، وكلب ودّاً ، ومذبح يغوث ، وخيوان يعوق ، وحير نسرا ، وكانت هناك أصنام عامة تعظمها كل العرب مثل مناة ، كان منصوباً على ساحل البحر ، بين المدينة ومكة ، واللات بالطائف ، والعزى بواد من نخلة الشامية يقال له حراض^(٤) وهذه الحال تشبه ما كان عند اليونان قديماً فلـ كل مدينة آلهتها التي ترعاها وتحارب بجانبها أعداءها كما قاتل آلهة طروادة آلهة اليونان وكانت هنالك آلهة عامة ترعى كثيراً من المدن ، ورأى الناس معابد عامة كمعبد دلف ، ومعبد ديلوس^(٥) .

بقيت مسألة النظام الداخلي للقبيلة ، ويمكن عرضه في مظاهر شتى ، فهناك رئيس القبيلة الممتاز برجاحة عقله ، وكرم خلقه ، وعظم ثروته ، وقوة عصبيته ، يعيش نافذ الكلمة ، محترم الرأي في السلم والحرب ، يفرد له من الغنائم سهام

(١) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطف حسين ص ٨٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ مطبعة التقدم .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية . الترجمة العربية ج ٦ عدد ٧ ص ٢٦٦ وج ٢٦٦ الاسلام

لأحمد أمين ص ١٢ وعلم الدولة لأحمد وفيق ج ١ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٤) كتاب الأصنام لابن الكلبي ، ص ٩ — ١٩ .

(٥) علم الدولة ج ١ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ وآلهة اليونان .

خاصة كالمرباع والصفى والنشيطه والفضول^(١) وقد يرث ابنه مكانه فكان شيخ القبيلة في عشيرته أشبه بالملك في أمته ، وأظهر ما يفرقه منه أن رئيس القبيلة لا يتوج ، ولا يحرص على ألقاب التفخيم ، ولا يحتجب عن عشيرته ولا يستأثر بالرأى في الأمور العظام فليست سلطته مطلقة^(٢) وهناك هؤلاء الأفراد المتضامنون الذين يحتفظون بتقاليد القبيلة والسير في سبيلها رشداً أو غياً تحمل عنه جرائمه فإذا أبت حمايته وإلى أخرى وكان كأحد أفرادها ، وإذا قصر هو أوفسدت سيرته خلعتة ، وقد يثور عليها ويهجوها ، وكان للقبيلة بعد ذلك نظمها الاجتماعية في الزواج والطلاق والإرث والعق والقبضاء والمفاخرة والتعامل كما كانت لها معارفها التجريبية^(٣) أما السياسة الخارجية للقبيلة أو علاقاتها بالقبائل الأخرى فقد قامت على المنافسة والتربص والعداوة ، ويظهر ذلك في الغزو الدائم والسطو على المال والمتاع والتعدى على الحمى والجار ، فبقدر ما كان التنافر بين أفراد القبيلة كان التخاصم بين القبائل في سبيل الشرف والرياسة أو المال والعيش ، لذلك كانت حياة القبائل الجاهلية حمراء مصبوعة بالدم لانكاد نرى سلباً دائماً وهدوءاً شاملاً ، ولا يكاد يمر دون غارة شنعاء أو قتال رهيب حتى عرفت عنهم (الأيام) وكانت كثيرة متصلة بالأدب شعراً وقصصاً وخطابة ، ودار حولها شعر كثير لعله الأصل الأول الواضح للشعر السياسى فى الأدب العربى .

ومع ذلك فقد كانت هناك تقاليد مرعية بين القبائل المتصلة حرباً وسلباً تتصل بالجوار ، والمراعى ، ومرور القوافل التجارية ، وبالكسر والفر واصطحاب الحريم فى القتال وجز ناصية الشريف إذا أسر وأريد إطلاقه ، وشد لسان الشاعر بنسعة والغلو فى دية الملوكة إلى ألف بغير . وقد تهزم قبيلة وتلزم دفع الأتاوة

(١) المرباع ربع الغنمة ، والصفى ما يستصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة ، والنشيط ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى العدو ، والفضول ما فضل من الغنمة مما لا تصح قسمته .

(٢) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ٨٧ .

(٣) راجع فى ذلك بلوغ الأرب للألوسى .

لأخرى غلبتها ، ذلك غير تفرد العزيز بالحمل والنسيء للحرب أو للحج^(١) وغير ذلك كثير .

وقد نظمت صلات القبائل مع الفرس والروم والإمارات العربية وسط الجزيرة وأطرافها ، وقامت هذه الصلات على أسس التجارة فكانت القبائل تحمى قوافل التجارة واللطائم الواردة من فارس إلى داخل الجزيرة ، وكان لقريش رحلتها إلى الشام صيفاً واليمن شتاء ، ثم الدين فكل من اليهودية والنصرانية مواطن نفوذها ، استقرت الأولى في يثرب وتيماء وفدك وخيبر ووادي القرى واليمن ، والثانية في نجران وأطراف الجزيرة شمالاً وكان لرجال الدين الحرية في إقامة الشعائر والبيع كما كان لهم أثر في نشر الثقافات الأجنبية في القرى العربية ، وأخيراً تلك الإمارات في الحيرة وغسان فوصلت بين القبائل والبلاد الأجنبية .

والخلاصة أن القبيلة العربية كانت صورة مصغرة للدولة العامة فيها خواصها الرئيسية فلو ذهبنا نطبق نظريات (أصول الدولة) وهي الطبيعة والأسرة والعقد الاجتماعي والقوة والارادة^(٢) لاستطعنا أن نجد مظاهرها في بناء القبيلة الجاهلية بشكل ما . فإذا كان هناك شعر قيل في سبيل هذه القبيلة متصلاً بنظامها الداخلي أو علاقاتها الخارجية أفلا يكون هذا الشعر صورة أولية للشعر السياسي إن لم يكن شعراً سياسياً كاملاً ؟

وأول ما يلاحظ في هذه المسألة منزلة الشاعر في القبيلة فقد كان صحتها السائرة ولسانها الذي ينشر مفاخرها ويهجو أعداءها ويرثي موتها ، ويشيد بمكانتها بين القبائل الأخرى كما كان يشور عليها إذا هي قصرت في حقه ولم تنهض لحمايته « وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس ويتباشرون الرجال

(١) تجد هذه التقاليد في بلوغ الأرب ج ٣ ص ١٢ ، ٣١ ونهاية الأرض ج ٣ ص ١١٢ .

(٢) علم الدولة ج ١ ص ١٨٨ .

والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لما آثرهم وإشادة بذكورهم، وكانوا لا يهينون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج»^(١) كل أولئك لتكون مكانة القبيلة سامية وجانبها مرهوباً يخشاها الطامعون ويحترمها المجاورون وتستطيع الحياة كريمة حيث تحل أو تسير.

وإذا كانت مهمة الشاعر مارأيت فمن الطبيعي أن يكون شعره صحيفة قبيلته وأن تظهر شخصيتها فيه بجانب شخصية الشاعر، وكثيراً ما تطفئ الأولى على الثانية فتفوز من القصيدة بأكثرها وقد تظهر بها كلها وبخاصة عند المفاخرة والاحتكام وعقب الحروب وفي الوفاة كما في معلقة عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة، وهذا أمر صار محتوماً فالشاعر لسان عشيرته وأداتها في هذه المواقف إذ لم تكن هناك صحف سائرة، ولم تكن الخطابة تدوى في القبائل كما يسير الشعر، والشاعر مع ذلك في حاجة إلى قبيلته تحميه وترعاه كغيره من الأفراد فهي حكومته التي تضمن له العدالة الداخلية والحماية الخارجية وهي دولته الصغيرة العزيزة، ويتبع ذلك أمر آخر هو أن يكون الشعر الجاهلي من أهم المصادر التاريخية للقبائل البدوية شأنه في هذا شأن الشعر القصص القديم بالنسبة لليونان والرومان والفرس والهنود.

والنتيجة الأدبية لذلك أنه يحسن بمؤرخي الأدب العربي أن يذهبوا في تفسير الشعر الجاهلي مذهباً أوسع أفقاً، فيفسروه على اعتبار أن كثرته شعر قبلي أو حكومي قيل في سبيل القبيلة أو الإمارة وكان خاضعاً في إنشائه لهذه الغاية العامة هي مكانة القبيلة وسيادتها، على الرغم من أنه كان مدحاً وهجاءً وفخراً وورثاً، فكل تلك كانت، في الغالب، فنوناً جزئية أو معاني فرعية لهذا الموضوع العام أو الهدف الرئيسي، هو دولة القبيلة أو الإمارة كما سنرى.

معنى ذلك أننا ننظر إلى هذا الشعر الجاهلي من ناحيتين، ناحية غايته العامة التي أنشئ في سبيلها، وناحية فنونه ومعانيه الجزئية التي اشتمل عليها، ولا مانع أن نقول ناحيته الخارجية والداخلية.

(١) ابن رشيق: العمدة ج ١ ص ٣٧ وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ٨٧.

وقد رأينا فيما يتصل بالأولى أنه قيل في سبيل القبيلة ولذلك يقاس هنا بما يحقق من مقاصد و يبلغ من تأثير وإذا صح ما روى من مكانة قصيدة عمرو بن كلثوم بين تغلب وغيرها ، وقصيدة الحارث بن حلزة وما بلغ بها عند عمرو بن هند لقومه بكر ، وما كان لشعر عبيد بن الأبرص الأسدي أمام كندة وشاعرها امرئ القيس كان دليلاً على بلاء الشعر في خدمة القبيلة وإعزازها إلى حد كبير .

أما عن الثانية فهو شعر غنائى يدخل في أبواب الحماسة والفخر والثناء والهجاء كما هو مقرر معروف ، ولكن يجب أن نلاحظ أن هذا الشعر الغنائى له درجتان : درجة تنتهى غايتها عند المدح أو الهجاء أو الرثاء مما يصور عاطفة فردية شخصية قيل للتعبير عنها وذلك يجرى بين الأفراد في سبيل شعورهم الخاص وهو نوع كثير لم يخل منه العصر الجاهلى أيضاً ، ودرجة تتجاوز هذه الغاية الفردية إلى القبيلة كلها فهو فخر بها ، وهجاء لأعدائها ، ورثاء لقتلاها في حروبها القبلية ، أو هو فخر وهجاء ورثاء موجه إلى شخص ولكن بواعثه قبلية عامة تعود إلى العشيرة لذلك تجده جدالاً حول انتصار أو هزيمة ، وتجد الرثاء وعييداً وتهديدات للقاتل أكثر مما هو بكاء على القتيل ، والوصف بعثاً للأفراد على الانتقام وإثارة حميتهم الجاهلية .

ويتضح ذلك حينما نرى زهيراً يمدح هرم بن سنان لا للثناء ، ولكن لغاية أسمى هى فضائله ومواقفه السامية وبخاصة في حرب داحس والغبراء . وهكذا ، وعلى هذا الأساس يجب أن يفسر الشعر الجاهلى .

وسنجد أن هذا الوضع يتغير عندما تتحضر الدولة وتأخذ على عاتقها حماية الأفراد ويغدو الشاعر أو الفرد عامة أقل حاجة إلى قبيلته أو عشيرته فيعيش لنفسه وفنه وتطغى شخصيته على شعره ويصبح شاعراً غنائياً بالمعنى الصحيح ، هنا نجد هذه الفنون تقال في سبيل غايتها القريبة أو سبيل الفرد وتصوير عواطفه الخاصة دون سمو إلى أفق القبيلة أو الدولة ، إذ يتخذ الشعر السياسى إذ ذاك موضوعاته واضحة محدودة في غالب الأحيان .

وبعد فان هذا الشعر القبلى يمكن رده إلى الأبواب الآتية : —

أولاً : شعر يقال فى تأييد القبيلة والتحفى بها وبكاء موتاتها ووصف مراتبها ونحو ذلك مما هو تاريخ لحياتها الخاصة .

ثانياً : شعر يقال ثورة عليها وهجاء لها إذا قصرت فى رعاية الفرد أو فى الاحتفاظ بمكانتها وشرفها .

ثالثاً : شعر هو فخر بالقبيلة على أعدائها وهجاء لهم ووعيدهم بالويل والثبور ثم تأييد لمكانة القبيلة عند احتكام أو مفاخرة .

رابعاً : شعر هو ثورة على النظام القبلى أو الاجتماعى كله ولا سيما ذلك النظام الاقتصادى الذى كون فى نفوس الفقراء تبرماً فكان منهم الصعاليك .

ويغلب على القسمين الأولين الاتصال بالنظام الداخلى للقبيلة كما يغلب على الأخيرين النهج الخارجى ، ولنأخذ الآن فى عرض نماذج هذه الأبواب .

— ٤ —

أول ما يلقانا من هذا الشعر القبلى ما كان تحفياً بالقبيلة واعتزازاً بمكانتها لأنها موئل الشاعر ومعدن رجائه ودولته التى يعيش فى كنفها ويرتبط معها بهذا العقد الاجتماعى الذى أصلته التقاليد ووثقته العادات والنظم فصار كلا الطرفين مكلاً للآخر لا يستغنى عنه ، هذا الاعتزاز بالقبيلة يدفع الشاعر إلى التغنى بما أثرها وذكر قديمها وما تمتاز به بين القبائل دون أن يكون ذلك تعالياً على قبيلة بعينها أو رداً على شاعر خاص وإن كان روحه مشعراً بفضل قومه على من سواهم ، هو شعر قبلى يصور العشيرة كما هى أو كما يتصورها شاعرها الممتاز ، تجد ذلك فى قول لمبيد بن ربيعة العامرى من قيس عيلان ، آخر معلقته المشهورة : —

إنا إذا التقت الجامعُ لم يزلْ مِنّا لِرِازٍ عَظيمة جِسامُها
ومقسّم يعطى العشيرة حقها ومُعَدِم لحقوقها هَضامُها
فضلاً وذو كرم يعين على الندى سَمَح كسوبُ رغائب غنّامها

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها^(١) .. الخ
يتكلم لبيد هنا بضمير الجماعة أو بلسان قومه مفتخراً بالأحياء والأموات
وبالشباب والشيخوخة دلالة على أصالة مكارمهم ودوامها ، وصف قومه بالبراعة في
الخصومة والقدرة على الانصاف والظلم معاً والكرم والنجدة والعدالة والقناعة ..
هذه صورة بني عامر في رأى شاعرهم المفضل لبيد ، وهى تمثل اعتزازه بقيبيلته
وإطلاق شعرهم في سبيلهم .

ومن ذلك ما قال حسان بن ثابت من قصيدة فى مدح عمرو بن الحارث

الغسانى : —

ولقد تقلدنا العشيرة أمرها ونسودُ يوم النائباتِ ونعتلى
ويسود سيدنا ججاج سادة ويصيبُ قائلنا سواء المفضلِ
ونحاول الأمر المهم خطابه فيهم ونفصل كل أمر مُعضل
وتزور أبواب الملوك ركابنا ومتى نُحكّم فى البرية نعدل^(٢)

فقومه زعماء مقدمون فى الشدائد سديدو الرأى أبحاد عدول تحترمهم الملوك ،
وحسان هنا يصور مجد عشيرته الخزرج اليمنيين الذين يتصلون بالغساسنة ملوك

الشام ، وهو شعر فى سبيل قومه ، ومن ذلك قوله من قصيدة : —

لنا حاضر فعم وباد كأنه شماريخ رضى غزة وتكرّمنا
متى ماترنا من معدٍ بعصبة وغسان نمنع حوضنا أن يهدّما
بكل فتى عارى الأشاجع لآحه قراع الكمامة يرشح المسك والدما
ولدنا بنى العنقاء وابنى مُحرق فأكرم بنا خلا وأكرم بنا ابننا
نسودُ ذا المال القليل إذا بدت مروءته فينا وإن كان مُعدّما^(٣) .. الخ

(١) لزاز خصومة ملازم لها موكل بها يقدر عليها . مغذمر متغضب ، راجع شرح
الزوزنى للمعلقات السبع .

(٢) الججاج السادة ، سواء المفضل وسط الصواب أى الحق والساداد . خطابه : خطبه ،
يريد أنا نحاول المعضلات لفضها — ديوان حسان ص ٣١٢ طبعة البرقوقى .

(٣) الديوان ص ٣٧٠ — فعم : كثير . شماريخ : أعالي . رضى جبل . الأشاجع جمع
أشجع وهو العصب المدود فوق السلامى ، عارى الأشاجع كناية عن الشجاعة . لآحه : غيره .
العنقاء هو ثعلبة بن عمرو بن بقيا بن عامر ماء السماء . محرق هو الحارث بن عمرو .

وكلها صور تقوم على الفضائل الجاهلية المتصلة بالسيادة والمجد وشرف النسب
وسعة السلطان ، وقد بقيت نزعة السيادة هذه في شعر حسان سمة لقومه حتى بعد
إسلامه ، ولعلها كانت صدى لهذه المنافسة بين المهاجرين والأنصار وقد دل على
ذلك بقوله : —

وكنا ملوك الناس قبل محمد فلما أتى الإسلام كان لنا الفضلُ
أولئك قومي خير قومٍ بأسرهم فما عُدَّ من خير ققومي له أهلٌ (١)

وفي حماسة أبي تمام أمثلة كثيرة لهذا النوع من الشعر القبلي في الجاهلية
والإسلام وإنما نشير هنا إلى بعض الأمثلة الجاهلية ، فمنها ما قاله بعض بني قيس
ابن ثعلبة : —

إنا محيوك يا سامي فخيِّنا وإن سقيت كرام الناس فاسقيناً (٢)

وهذه القصيدة المنسوبة للسموئل بن عادياء اليهودي : —

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل (٣)

هذه الصورة الأولى من الشعر القبلي يغلب فيها عكوف الشاعر على قبيلته
أو دولته الصغرى محتفياً بها ، معجباً بما آثرها ، لا يتحدى فيها شخصاً ولا قبيلة
وإن كانت إشاراً لها على سائر القبائل ، هو شعر قبلي داخلي في سبيل كيان
القبيلة وعزتها أو هو شعر متصل بالنظام الأساسي للعشيرة وتدير شؤونها وسياستها .

* * *

وهناك صورة أخرى لهذا الشعر القبلي هي من حيث النزعة عكس سابقتها ،
فهي ثورة على القبيلة ، وتهوين شأنها ، وهجاؤها لأنها قصرت في الواجب عليها
نحو الشاعر أو غيره وكأنها بذلك نقضت هذا العهد الاجتماعي القاضي بحمايته
والانتصار له فكانت بذلك دون القبائل الأخرى ، وتعرض كيانها للهوان فكان

(١) الديوان ص ٣٢٨ .

(٢) شرح ديوان الحماسة ج ١ ص ٩٨ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧ .

على الشاعر أن يقومها ويلزمها القانون ، وهذا ما فعله قريظ بن أنيف حين قال :

لو كنت من مازن لم تستبح إيلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لؤثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لايسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
الآيات (١)

فسواء أكانت دعوى هذا الرجل على قومه حقاً أم باطلا فإنه أقامها على أساس نظرى صحيح ، هو التناصر والتعاقد على العدو ظالماً أو مظلوماً ، وهى تبين لنا بجلاء حرص العرب على هذا النظام القبلى الداخلى القائم على العصبية أو العقد الاجتماعى المقرر المفهوم .

* * *

ويلى ذلك نوع آخر من الثورة على النظام القبلى أو على النظام الاقتصادى والاجتماعى كله هو ثورة الصعاليك (٢) من الشعراء ، وهم جماعة فقراء من قبائل شتى جمعت بينهم الخصاصة والحاجة وإعوازهم من مال هو عند غيرهم فخرجوا على قبائلهم وتحملوا من نظمها وأنكرهم قومهم وأخذوا هم أنفسهم بالإغارة والنهب وسلب القبائل والأفراد ما لهم ثم توزيعها فيما بينهم ، وكانوا رجالاً أشداء عداوين يسبقون الخيل خيرين بدروب الصحراء ومجاهلها كراماً حديدى الإرادة حسنى الحيلة للخلاص إذا أسروا ، نذكر منهم الشنفرى الأزدي من اليمن ، وتأبط شراً من قيس عيلان ، والسلميك بن السلكة من تميم وعروة بن الورد العبسى (٣)

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ج ١ ص ٨ — مازن قوم من تميم . اللقيطة وقيل الشقيقة من ذهل بن شيبان . اللؤثة الضعف . زرافات : جماعات .

(٢) جمع صعوك وهو الفقير الذى لا مال له ، وصعاليك العرب ذؤابها . راجع لسان العرب فى مادة صعلك .

(٣) راجع سير هؤلاء فى الأغاني والشعر والشعراء وخزانة الأدب ، وشرح المفصلية ، وشعراء النصرانية وجمهرة أشعار العرب والعقد الفريد .

فهؤلاء وزملاؤهم مثلوا الخروج على النظام القبلى وجعلوا وكدهم الحصول على المال ولو قتلوا أصحابه لايبالون فى هذا قرابة ، وقد طرحوا عن كواهلهم تقاليد العرب إلا ما ارتضوه لأنفسهم يعطفون على الفقراء والمرضى والضعاف يبذلون ما عندهم فى سخاء يجمعون بين صفتى الكرم والسلب ، فهم لصوص كرام شجعان يعفون عن المحارم ، ولعل سلوكهم هذا كان استثناساً بعمل القبائل معاً إذ كانت حياتها قائمة إلى حد ما على الغزو والسلب والفرق بين الصورتين أن عمل القبائل إجماعى منظم وعمل الصعاليك فردى لا نظام له فهو اختلاس ينهض به فرد أو أفراد .

هذا التحلل من النظام القبلى تبعه تحلل من شخصية القبيلة فى الشعر ، فلم يعن هؤلاء الصعاليك بتمثيلها والتعبير عنها ، هم انفردوا بأنفسهم فى الحياة وانفردوا بها فى الشعر فكان قصيدهم مثلاً قوياً لشخصياتهم وسلوكهم لا يكتمون منه شيئاً ولا يقصرون فى التعبير عنه فامتازوا بالصدق والصراحة والقوة ، وظهرت هذه الصفات فى فنههم فكان طريفاً مقبولاً هو من الشعر الغنائى الصحيح الذى يعتز بالشخصية الفردية وبهذا المذهب الثورى أو الاشتراكى .

والذى يعنيننا هنا أن شعر هؤلاء كان مثلاً لشعر سياسى طريف هو شعر الثورة والكفر بأوضاع فرضت عليهم الحرمان والفقر المدقع بجانب هذا الفقر العام فى البلاد كلها حتى كانت حياة العرب خشنة شحيحة مضطربة المناهج .

ونشير هنا إلى نماذج لهذا الشعر ونترك للقارئ الرجوع إلى سائر فى مظانها لعله يظفر منه بتمعة أدبية قيمة ربما لا يظفر بها عند كبار الشعراء الجاهليين .

وأول مانشير إليه لامية الشنفرى المعروفة بلامية العرب والتى مطلعها : —
أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فانى إلى قوم سواكم لأميل^(١)
فانها تصور لنا هذا النوع من الحياة تصويراً دقيقاً رائعاً يقوم على الحرية

(١) القصيدة مشروحة فى المواهب الفتحة للشيخ حمزة فتح الله ، ج ١ ص ١٦٤ ولو كانت منجولة لم يمنع ذلك تمثيلها حياة الصعاليك .

الشخصية ، والضرب في الصحراء ، والتعرض لأخطارها ، ووصف وحشها ،
والاعتماد على النفس في جلب الرزق مع كرم وعفاف وإباء وصبر للحتوف : —

أديمٌ مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهلُ
وأستفُّ ثُربَ الأرض كيلا يرى له على من الطول امرؤ متطولُ
طريدُ جنایات تياسرن لحمه عقيرته لأيتها حمٌ أولُ^(١)

وكذلك قصيدته التي قالها بعد ما ثأر لأبيه من قاتله : —

أرى أم عمرو أزمعت فاستقلت وماودعت جيرانها إذ تولت^(٢)

وقوله يصف حياته من قصيدة : —

ومرقبة عيطاء يقصر دونها أخوال ضررة الرجل الخفيف المشفَّ
نميت إلى أعلى ذراها وقد دنا من الليل ملتف الحديقة أسدف
فبت على حد الذراعين محبدا كما يتطوى الأرقش المتقصِّفُ^(٣)

ومن قول تأبط شراً وقد احتال حتى افتك نفسه وزميله ابن براق من
أسر تعرضاً له : —

يا عيدُ مالك من شوق وإراق ومر طيف على الأهوال طراق
يسرى على الأين والحيات محتفيا نفسى فداؤك من سار على ساق
إني إذا خلَّة ضنت بنائليها وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق
نجوت منها نجائي من بجيلة إذ أقيت ليلة خبت الرهط أرواق
إلى آخرها^(٤)

(١) مطال الجوع : الصبر عليه حتى أنساه . الطول التفضل . تياسرن لحمه : اقتسمته
كأنهن ضربن عليه بالميسر . عقيرته : نفسه وجثته . حم : قدر وخضر .

(٢) مذهب الأغاني ج ١ ص ٩٥ .

(٣) مذهب الأغاني ج ١ ص ٩٧ .

(٤) المفضليات ص ١ ، العيّد ما يعتاد الانسان من هم أو نحوه ، مالك من شوق أى
ما أعظمك من شوق . الخلّة الخليلة ، الأحذاق المتقطع قطعاً . بجيلة قبيلة أغار عليها ، الرهط
اسم واد ، وخبته بطنه ، ألقى أرواقه : عدا عدواً شديداً .

وهذا عُروة بن الورد يصف حياته وحياة صحبه : —

لما الله صعلوكا إذا جن ليلُهُ مصافى المشاش ألفاً كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعسا يمت الحصى عن جنبه المتعقر
يعين نساء الحى ما يستعنه ويمسى طليحا كالبعير المحسر (١)

وكان عبد الملك بن مروان يعجب بقوله : —

وإني امرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سميت وأن ترى بحسمى شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد (٢)

ومن قول السليكم بن السلركة فى إبل نهبها وقتل صاحبها ليلا : —

وعاشية راحت بطاناً ذعرتها بسوط قتيل وسطها يتسيف
كان عليه لون برد محبر إذا ما أتاه صارم يتلف
فبات له أهل خلاء فنأوهم ومرت بهم طير فلم يتعيفوا
الآيات (٣)

ونلاحظ هنا أيضاً أن هذا الشعر ، حين نراه من قريب ، حماسية ، ووصف ، وفخر ، وتعلق بالحرية ، ونقمة على التقاليد والنظام ، ومشاركة لحيموان الصحراء فى الشرود ، واعتزاز بالمواهب الفردية ، ولكنه من حيث غايته شعر قبلى أو سياسى معارض يشبه الأدب الحزبى فى الدول المتمدينة الآن .

ويستطيع الدارس أن يجد فى هذا الفن بجانب هذا الطابع العام الذى يسوده طابع كل فرد واضحاً دقيقاً ، كما يستطيع أن يجد فى شعر القبائل العربية شخصية كل قبيلة وإن اشتركت جميعاً فى بعض الفضائل العامة تفخر بها كالنجدة ، والكرم ، والشجاعة والمروءة بوجه عام .

(١) شعراء النصرانية ج ١ ص ٨٨٥ المشاش كل عظم هش دسم الطليح المي .

(٢) المصدر السابق ص ٨٨٧ .

(٣) عاشية إبل ترعى ليلا — الأغاني ج ١٨ ص ١٣٥ بلان .

بقى الشعر الذى قيل فى علاقة القبائل معاً والذى يصح أن يدعى شعر السياسة الخارجية للقبيلة مادماً نجرى على أن القبيلة دولة صغيرة .

وقد قدمنا أن الصلات بين القبائل كانت قائمة على التنافس والترقب وانتهاز الفرص للظفر بمال أو شرف ، وهذا هو ما نراه بين الدول فى كل العصور ، فهو تنافس فى السيادة والاستعمار وكسب الأسواق التجارية ومناطق المواد الأولية ، وليس الصراع بين الدول الحديثة إلا صورة لما كان بين القبائل البدوية القديمة ، فالأسباب واحدة وإن اختلفت الوسائل واتسعت الميادين .

هذا التنافس يرجع بين القبائل الجاهلية إلى عاملين رئيسيين مادى وأدبى ، فهو إما طمع فى إبل أو مرعى أو بئر أو حمى أو فرس أو متاع ماء وإما رغبة فى رياسة ، أو أخذ بثأر ، أو اعتزاز بنفس ، أو مفاخرة بقوة ، أو غضب لجار أهين أو عهد نقض أو مجارة لسفيه .

تلك الأسباب تركت الجزيرة العربية دائماً الغارات والحروب لاتعدم فى ناحية من نواحيها غارة مشنونة ، أو صراعاً بشعاً ، يستمر أياماً بل شهوراً ، وصارت حياة الناس رخيصة تذهب بسبب كلمة أو هفوة أو بلا سبب سوى السفاهة والعبث . وأيام العرب الكبيرة كثيرة تجاوزت الألف بكثير سوى المغاور الصغيرة^(١) وقد تناولت جميع القبائل والإمارات ، ولكننا هنا نقف عند بعض أيام القبائل الشمالية فيما بينها من قبيل الإشارة والرمز تاركين القول فى أيام الإمارات العربية إلى موطنها من هذا الباب .

ونشير قبل كل شئ إلى أن شعر الأيام وحوادثها دخلها التزيد والمبالغة لحاجة القصص والعصبيات إلى ذلك ، ومع هذا ففيها قسم يمكن التسليم بصحته

(١) راجع فى أيام العرب قبل الاسلام : شرح نقائض جرير والفرزدق طبع ليدن ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ وتاريخ ابن الأثير ج ١ ، والأغانى ، وأمثال الميدانى ، وشرح المفصليات وأيام العرب فى الجاهلية لبعض المعاصرين .

اعتماداً على طابعه الفنى الجاهلى أو وثوقاً مع ذلك بروايته أو اتصاله بشواهد تؤيده ، وشعر الأيام بعد هذا فنون شتى تخضع لذلك الهدف الرئيسى ، هو مكانة القبيلة وسلطانها بين القبائل فهو شعر السياسة الخارجية إن صح هذا الوصف . وسنرى أنه تناول الأمور المتعلقة بالحرب والسلم والتحكيم والعهود ونحوها مما يعرفه من قرأ شعر الأيام الجاهلية .

(١) من أيام القحطانيين فيما بينهم حروب الأوس والخزرج^(١) نذكر منها يوم حاطب للخزرج على الأوس وفيه يقول قيس بن الخطيم الأوسى ، وفى الديوان أن هذه القصيدة فى يوم بعث أيضاً : —

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب لعمره وحشاً غير موقف راكب^(٢)
إلى أن يقول : —

دعوتُ بنى عوف لحقن دماهم فلما أبوا ساحت فى حرب حاطب
وكنت امرأ لا أبعث الحرب ظالماً فلما أبوا أشعلتها كل جانب
إلى أن يقول : —

ويوم بُعث أسلمتنا سيوفنا إلى نسب فى جسم غسان ثاقب
فهلأ لدى الحرب العوان صبرتم لوقعتنا والبأس صعب المراكب
فأبنا إلى أبنائنا ونسائنا وما من تركنا فى بُعث بائب . الخ
فأجابه عبد الله بن رواحة بقوله من قصيدة : —

إذا عيرت أحساب قوم وجدتنا ذوى نائل فيها كرام المضارب
نحامي على أحسابنا بتلادنا لمفتقر أو سائل الحق راغب
بحرس ترى الماذى فوق جلودهم وبيضا نقاء مثل لون الكواكب^(٣)
ونذكر منها يوم الربيع ، قال فيه حسان بن ثابت : —
ويثرب تعلم أننا به — إذا التبس الأمر ميزانها

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٨ .

(٢) ديوان قيس طبع أوربة ص ١٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٦ .

ويثرب تعلم أننا بها إذا خافت الأوس جيرانها
ويثرب تعلم أن النبئت عند الهزاهز ذلائها
القصيدة (١)

فأجابه قيس بن الخطيم من قصيدة : —

ونحن الفوارس يوم الربيع قد علموا كيف فُرسائها
ويثرب تعلم أن النبئت راسي يثرب ميزائها
حسان الوجوه حدادُ السيو ف يبتدر الجدد شُبائها
القصيدة (٢)

تدور هذه الأمثلة من الناحية العامة على فخر الشاعر بقومه والإشادة بمواقفهم
وما آثرهم مع التهوين من شأن عدوهم وهجائه ، ومن الناحية القريبة هي فخر
وهجاء وحاسة ، متأثرة بتلك الغاية العامة في معانيها الجزئية من حيث التآزر
والصبر وحماية الجار ، والسيادة في القرى ، والفوز في الحروب ، ورفعة الأنساب .

(ب) ومن أيام القحطانيين والعدنانيين يوم سَحْبَلِ لَبْنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ
عَلَى بَنِي عَقِيلِ بْنِ كَعْبٍ مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ وَفِيهِ يَقُولُ جَعْفَرُ بْنُ عُلْبَةَ الْحَارِثِيُّ : —

وسائلة عنا بغيبٍ وسائلٍ بمصدقنا في الحرب كيف نُقاتِلُ
الْهَفْيُ بِقُرَى سَحْبَلِ حِينَ أَحْلَبْتُ عَلَيْنَا الْوَلَايَا وَالْعَدُوَّ الْمُبَاسِلُ
فَقَالُوا لَنَا : ثَنْتَانِ لَا بَدَّ مِنْهُمَا : صُدُورِ مَاحٍ أَشْرَعَتْ أَوْسَلَا سِلُ
فَقُلْنَا لَهُمْ : تَلَكُمُ إِذَا بَعْدَ كَرَةٍ تُغَادِرُ صَرْعَى نَوَّءُهَا مَتَخَاذِلُ (٣)

ويقول أيضاً وهو في حبسه ينسب : —

هَوَايَ مَعَ الرِّكْبِ الْيَمَانِيِّنِ مَصْعَدُ جَنْيَبُ وَجْهَانِي بِمَكَّةَ مُوثَقُ

(١) ديوان حسان طبع مصر ص ٤١٦ — ميزانها : قوامها . جيرانها أى أجربنا أهلها
منهم . النبئت عمرو بن مالك بن الأوس . ذلائها : أذلائها .

(٢) ديوان قيس ص ٧ .

(٣) شرح الحماسة للتبريزي ج ١ ص ٤٤ — ٥٦ . التلهف التوجع على فائت . فُرى
سحبِل موضع عند وادي سحبل . أحلبت أعانت . الولايا النساء .

عجبتُ لسراها وأنى تخلصت
إلى وباب السجن دونى مُغلق^(١)
ولما أخبر بأنه مقتول قال : —

ألا لا أبالي بعد يوم بسجبل
تركتُ بأعلى سجبل ومضيقة
شفيت به غيظى وحرب مواظنى
فدى لبنى عم أجابوا لدعوتى
إذا لم أعذب أن يجىء حماميا
مراق دم لا يبرح الدهر ثاويا
وكان شفاء آخر الدهر باقيا
شفوا من بنى القذعاء عمى وخاليا^(٢)

إلى آخر هذه القصيدة التى تدل هى وما قبلها على مقدار التعلق بالقبيلة
والفناء فى سبيلها واعتداد المجد الأعلى أن يهلك الإنسان ليحيا قومه وأن يشقى
ليسعدوا ثم ليذكر هو بين الصناید ذوى البلاء الشديد .

ويوم الكُلاب الثانى لتيم على مدحج^(٣) وفيه قال عبد يغوث الحارثى

قصيدته المشهورة وهو أسير فى قوم من تيم هم بنو تيم : —

ألا لا تلومانى كفى اللوم مايبا
جزى الله قومى بالكُلاب ملامة
ولو شئت نجتنى من الخيل نهدة
ولكننى أحمى ذمار أبيكم
أقول وقد شدوا لسانى بنسعة
أقول وقد شدوا لسانى بنسعة
فما لكما فى اللوم خير ولا ليا
صريحهم والآخرين المواليا
ترى خلفها الحو الجياد تواليا
وكان الرماح يخطفن الحماميا
أمعشر تيم أطلقوا لى لسانيا^(٤) . الخ

ينحى على قومه باللائمة أن فروا عنه حتى أسرو وهو يدافع عنهم ، وتلاحظ
أن أسريه من تيم شدوا لسانه بنسعة لأنه شاعر على حسب المألوف إذ ذاك .

ويوم فيف الريح لمدحج على عامر^(٥) وقد أصيب فيه عامر بن الطفيل ، طعنه

(١) معاهد التنصيص ج ١ ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ١٣٧ وابن الأثير ج ١ ص ٣٧٩ والعقد الفريد

ج ٣ ص ٣٥٤ .

(٤) الحو من الخيل التى تضرب إلى خضرة . الذمار ما يجب على الرجل حفظه .

(٥) النقائض ٤٦٩ والعقد الفريد ج ٣ ص ٣٥٩ والأغانى ج ٥ ص ٢١ .

مسهر بن يزيد الحارثي بالرمح في وجنته ففلق وجنته وأصاب عينه وافتخر بذلك مسهر بشعر يقول فيه : —

وكنا إذا قيسية برقت لنا جرى دمعا من عينها فتحدرا
مخافة ملاقت حليمة عامر من الشر إذ سر بالها قد تغفرا^(١)

وأخذ عامر يعتذر عن تلك الطعنة وعن هزيمة قومه لكثرة عددهم : —

أتونا بشهران العريضة كلها وأكلها في مثل بكر بن وائل
فبتنا ومن ينزل به مثل ضيفنا يبت عن قرى أضيافه غير غافل
أعاذل لو كان البداد لقتلوا ولكن أتانا كل جن وخابل
وخنعم حتى يعدلون بمدحج وهل نحن إلا مثل إحدى القبائل^(٢)

والظاهرة القبلية تسود هذا الشعر كله فخراً بالغلب ، واعتذاراً عن الهزيمة ولوما على الفرار .

(ج) ومن أيام العدنانيين فيما بينهم حرب البسوس بين بكر وتغلب من ربيعة وأمرها مشهور وقد تناولها القصص وأكثر فيها من الشعر والنثر إلى حد بعيد^(٣) ومما قيل فيها ماروى للفند الزماني في الحماسة :

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجعن قوما كالذي كانوا
فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدو ن دناهم كما دانوا
الآيات^(٤)

وكانت حرب البسوس مجالا لتفتح قرائح الشعراء حتى قيل إن أول ما طول

(١) زعم أنهم أخذوا امرأة عامر بن الطفيل .

(٢) شهران قبيلة من خنعم البداد التفرق . الخابل ضرب من الجن .

(٣) النقائص ٧٧٣ ، الأغاني ج ٥ ص ٣٢ ، ابن الأثير ج ١ ص ١٨٣ ، العقد الفريد

ج ٣ ص ٣٤٨ .

(٤) شرح الحماسة للتبريزي ج ١ ص ٢١ .

الشعر إنما كان في أحداثها لمارثي مهلهل أخاه كليبا بقصيدة تبلغ ثلاثين بيتاً^(١)
ومن يقرأ شعر أيام البسوس يراه معرضاً لتصادم العصبية القريية ، والعواطف
البعيدة ، والغضب للجار ، وسداد العقل مع جموح الشعور ، كل ذلك غلبت
عليه النزعة القبلية التي أثرت في تيار الحروب كما أثرت في اتجاه الشعور ومدى أفعه .
ويوم الوقى لتيمم (من مضر) على بكر (من ربيعة)^(٢) وفيه يقول
أبو الغول الطهوي : —

فدت نفسي وما ملكت يميني فوارس صدقت فيهم ظنوني
فوارس لا يملون المنايا إذا دارت رحي الحرب الزبون
ولا يجزون من حسن بسىء ولا يجزون من غلظ بلين
إلى آخرها^(٣)

يمثل أبو الغول هنا هذه العصبية التي ألفت بين فرسان قومه ، وشجاعتهم
النادرة وإنصافهم في الجزاء ، وبقاء قوتهم غير منقوصة ، ولهم فنون شتى في القتال
هزموا به عدوهم واعتصموا بعزهم عزيز . وهي صورة لجماعة من قومه كان لهم
بلاء في هذا اليوم المشهود .

وأما حرب داحس والغبراء فقد كان فيها عنبرة يذكرونها وشجاعته ومشاهد عبس
في معلقته كما جاء زهير بن أبي سلمى آخرها فدعا في معلقته أيضاً إلى السلم ،
وكانت المعلقتان صورتين للحماسة ، إحداهما تدعو إلى القتال وتفخر به ، والثانية
تشيد بالسلم وتقبح الحرب وما يلابسها ، وهذا وذاك في سبيل الجماعة البشرية
على كل حال^(٤) .

ويوم اللوى لغطفان على هوازن (وكلاهما من قيس)^(٥) وفيه رثى دريد

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٥٤ وابن سلام ص ٢٢ طبعة مصر .

(٢) شرح التبريزي على الحماسة ج ١ ص ٣٤ .

(٣) توازن بقطعة قريظ بن أنيف السابقة .

(٤) النقااض ٨٣ ، ابن الأثير ج ١ ص ٣٤٣ ، العقد الفريد ج ٣ ص ٤٩ الأغاني

ج ٨ ص ٢٤٠ .

(٥) الأغاني ج ١٠ ص ٦ ، العقد الفريد ج ٣ ص ٥٤ ، شرح الحماسة ص ٣٠٥ ج ٢ .

ابن الصمة أخاه عبد الله بشعر جيد نذكر منه هذه الأبيات من قصيدة مشهورة :

أرثَ جديدُ الحبلِ من أمِّ معبدٍ بعاقبةٍ وأخلفت كلَّ موعِدِ

يقول فيها عن قومه : —

أمرتهم أُمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغدِ
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم وأنى غير مهتدِ
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويتُ وأن ترشد غزية أرشدُ
دعاني أخى والخليل بينى وبينه فلما دعانى لم يجدنى بقعدٍ (١)

والأيام كثيرة العدد طويلة القصص والشعر تمثل صراعا دائما وأدبا قويا خالداً . وخلاصة هذا الفصل أن القبيلة العربية إن لم تكن دولة بهذا المعنى الاصطلاحي الحديث فقد توافرت لها خصائص تجعلها صورة مصغرة للدولة ، وكان ذلك الشعر الذى قيل فى سبيلها شعراً قليلاً لا يبعد كثيراً عن صور الشعر السياسى الحديث .

(١) غزية قبيلة من هوازن هى رهط الشاعر ، القعدد الجبان اللثيم القاعد عن المكارم .

الفصل الثاني

في سبيل الإمارة

- ١ -

ننتقل الآن إلى صورة أخرى للنظام الاجتماعي بين عرب الجاهلية الذين استقروا وسط الجزيرة أو شماليها ، وهي صورة أشد تعقيداً من نظام القبيلة وأقرب جداً إلى التكوين الدولي التام ، هي صورة الإمارات أو الممالك العربية التي أقامها المناذرة والغساسنة والكنديون ثم قريش في مكة المكرمة .

منذ عهد بعيد لا يمكن تحديده والقبائل العربية تتجاوز حدود الجزيرة الشمالية إلى بادية الشام ، تعيش هناك عند ريف العراق ومشارف الشام لتجتمع لنفسها بين حرية البادية وسهولة العيش من السواد والقرى ، وقد تعنى بنقل السلع التجارية الآتية من بلاد الشرق الأقصى إلى مصر والشام والروم وبالعكس ، فلما انهيار سد مأرب وحول الروم طريق التجارة من البر إلى البحر نزع كثير من القبائل اليمنية إلى بادية الشام منحازة إما شرقاً إلى حدود العراق ، وإما غرباً إلى حدود الشام ، وكان لابد من تنظيم إقامة هذه القبائل واستقرارها .

وقد ساعد على ذلك ما كان بين الفرس والروم من تنافس سياسي واستعماري ، فقد كان السلطان في العراق والشام متداولاً بين هاتين الإمبراطوريتين ، وكان هؤلاء العرب الذين تسكثروا في بادية الشام ينضمون إلى جيش الفرس أو الروم خاضعين في ذلك لحكم الجوار ، وللطمع في المغنم ، وانتهى الأمر بالدولتين الكبيرتين أن تتخذ كل منهما من يجاورها من الأعراب حراساً على حدودها لتبقى العراق لفرس والشام للرومان .

وفي القرن الثالث الميلادي استقر بالشام قبيلة من أزد كهلان تدعى غسان ،

وفيهما قامت إمارة أو مملكة الغساسنة برعاية الروم وعلى رأسها جفنة بن عمرو ملكا ، كما استقرت غربي الفرات قبيلة لخم من كهلان أيضاً وبها قامت إمارة المناذرة في ظل الفرس وعلى رأسها عمرو بن عدى ملكا بالحيرة ، وبقيت هاتان الإماراتان قائمتين حتى الفتح الاسلامي .

وقد احتفظت كل من هاتين الامارتين باستقلالها الذاتي ، ولم يتأخر الفرس والروم عن الاعتراف لهما بذلك لشجاعتهم في الحروب ، ولحفظ حدودهما ، وحراسة تجارتهم داخل الجزيرة العربية ، ولتبشير كل إمارة بحضارة الدولة التي تنتمي إليها .

وقد تجاوز الأمر استقلال الامارتين إلى تأثيرهما في الشؤون الخاصة بعرش الفرس وسيادة الروم ، فقد أرسل يزيد جرد الأول كسرى فارس (٣٩٩ - ٤٢٠ م) أكبر أبنائه بهرام إلى عرب الحيرة لينشأ بينهم في عهد النعمان الأول ، فلما مات أبوه نازعه أخوه على الملك فعاونوه العرب وتعصبوا له فلما ولي الأمر عرف لهم هذه اليد ، كذلك حدث بعد انتصار الحارث بن جبلة ملك الشام على المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، أن استدعى الحارث إلى القسطنطينية سنة ٥٦٣ م لمفاوضة القيصر فيمن يخلفه من أولاده وفيما يجب اتخاذه لمقاومة المناذرة ، ثم اضطر الروم إلى استرضاء ابنه المنذر بن الحارث بعد أن جفوه وعقد محالفة معه ليدفع عنهم عرب الحيرة .

ويذكر المؤرخون أن الامبراطور الروماني فيليب كان عربياً من بني السميذع أول من عرف التاريخ من العرب الذين هاجروا إلى الشام وكان قبل رئيس جماعة من القبائل المشتغلة بالغزو والاغارة . وغير ذلك لما قامت الحرب بين الفرس يحالفهم المنذر الثالث والروم يحالفهم الحارث بن جبلة وانتهت بالصلح ، كان من شروطه أن يدفع الروم جُعْلاً سنوياً للمنذر الثالث ملك الحيرة^(١) .

نستطيع إذاً ، أن نرى في كل من هاتين الامارتين مقومات الدولة سياسياً

حيث الاقليم والشعب ، والوحدة ، والنظام ، والخضوع لسلطان قائم ولا سيما أن احداها لم تندمج في الامبراطورية الكبرى فاحتفظت بكيانها الداخلي وارتبطت مع غيرها بعلاقات خارجية منظمة كان لها أثرها في التجارة ، والحروب ، والاستيطان .

من ذلك ما ذكرنا من هذه الصلات السياسية بينها وبين الفرس والروم مع إعفائهما من الإتاوة للامبراطوريتين ، وقد رأينا أن تجارة الفرس كانت تدخل الجزيرة بحراسة العرب نظير جعالة فلما حيل بينها مرة وبين اليمن كان يوم الصفقة لكسرى على تميم^(١) كذلك رأينا أن كسرى يتفق مع قيس بن مسعود الشيباني على أن يقطعه الأبلّة ليكفيه إغارة قومه بكر بن وائل على السواد ، ولكن بكرة غدرت ونزلت بذي قار وكان هذا اليوم المشهور لبكر على الفرس^(٢) .

ومن ذلك ما ساعدت ماوية بنت الأرقم بن الحارث الثاني ملكة الشام في أواخر القرن الرابع المسيحي الرومان في محاربة القوط الطامعين فيهم فدافع العرب عن القسطنطينية دفاعاً مجيداً . وقد علت منزلة الحارث بن جبلة الغساني عند الامبراطور جُستنيان حتى ولاه ملكاً على جميع قبائل العرب في سوريا ولقبه فيلارك وبطريق (Philarch & Patriarch) وهو اللقب الذي يلي لقب الحاكم الروماني في الشام وهكذا^(٣) .

أما ما كان بين الامارتين فهو التنافس والتربص تبعاً لما كان بين الفرس والروم ، ولما كان يحدث بينهم من مناوشات ويتخلف من ثارات . ونكتفي من ذلك بما كان بين المنذر بن ماء السماء والحارث بن جبلة الغساني ومن بعدهما حتى انتهى بيومي حليلة وعين أباغ^(٤)

(١) الطبري ج ٢ ص ١٣٣ ، العقد الفريد ج ٣ ، ص ٧٠ ، ابن الأثير ج ١ ص ٢٧٥ .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٨١ ، تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٤٨ ، ابن الأثير ج ١

ص ٢٨٩ ، الأغاني ج ٢ ص ٩٧ ، النقائض ٦٣٨ .

(٣) الصديق أبو بكر ص ٢٠٤ .

(٤) ابن الأثير ج ١ ص ٣٢٦ - ٣٢٨ ، العقد الفريد ج ٣ ص ٣٧٤ .

بقيت صلة كل من الامارتين بالقبائل البدوية وقد أقامها المناذرة على أصل
نفعي ومنافسة بين القبائل ، وكان لبعض القبائل معهم تقاليد خاصة كردافة
يربوع ^(١) .

فاذا أخلت القبائل بالعهود أو تجنى الملوك على القبائل فالحرب لا محالة ، وذلك
كيوم أواره الأول للمندر بن ماء السماء على بكر بن وائل لا يثارهم كندة بالولاء ^(٢)
ويوم أواره الثاني لعمر بن هند على تميم لميل هؤلاء الغساسنة وتجنى عمرو عليهم ^(٣)
ويوم السُّلَّان لبني عامر على النعمان بن المنذر لتعرض بني عامر لتجارة النعمان
إلى سوق عكاظ ^(٤) . كذلك أقامها الغساسنة على أصل اقتصادي وتجن من
جانبهم إذ أغار محرق الغساني وأخوه في بعض القبائل على بني ضبة بن أد
ببُرْخَة ^(٥) وكان يوم على الغساسنة ، فلما أغار بن مزَيْقِيَاء يوم إضم ^(٦) على
ضبة هزم أيضاً ، وقد هزم النعمان بن الحارث الغساني لما غزا بني حن بن حزام من
عذرة ^(٧) وكان للنابعة الذبياني في تلك الغزاة وساطة معروفة .

— ٢ —

وإنما جمعنا بين هاتين الامارتين في مقال واحد لتشابه وضعهما السياسي ،
ولشدة الاتصال بينهما في التنافس بين الفرس والروم ، ولتردد بعض الشعراء بينهما
وكان لهذا التردد صلة بالسياسة إلى حد كبير .

ويحسن أن نقف قليلاً عند بعض النصوص الشعرية التي قيلت في سبيل
هاتين الامارتين لعلنا نجد فيها روح الشعر السياسي الذي يقال عادة لغاية دولية .

(١) النقائض ٤٤٨ ، ٩٢٤ ، ٢٨٥ .

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ٣٣٤ .

(٣) النقائض ص ٦٥٢ ، ١٠٨١ ، وابن الأثير .

(٤) ابن الأثير ج ١ ص ٣٩١ .

(٥) و(٦) النقائض ١٩٥ .

(٧) ديوان النابعة الذبياني ص ٦٥ .

وأحب أن أسرع فألم أولاً بموقف النابغة الذبياني بين المناذرة والغساسنة ،
وما لا بس ذلك من شعر فانه يوضح لنا ما ندعيه من وجود شعر سياسي في مغزاه
وإن بدا لنا شعراً غنائياً في فنونه ومعناه .

اتصل النابغة بملوك الحيرة ومدحهم وطالت صحبته للنعمان بن المنذر فقرّ به ،
واتخذته نديماً له وصديقاً حتى وشى به عند النعمان أحد بطانته فهم بقتله ، ولكن
عصاماً حاجب النعمان أسر إلى النابغة بالأمر فهرب النابغة إلى الغساسنة المنافسين
للمناذرة كما رأيت ، ومدح عمرو بن الحارث الأصغر وأخاه النعمان ، ولذلك اشتد
سخط النعمان بن المنذر على النابغة فأخذ هذا يعتذر إليه حتى رضى عنه وأعاده
إلى منزلته عنده .

ربما صحت الرواية القائلة بغضب النعمان بن المنذر على شاعره بسبب الوشايات ،
وربما كانت المسألة أن مر النابغة بالغساسنة فمدحهم — وكان ذلك بتدبير الغساسنة
لحسدهم المناذرة على هذا الشاعر العظيم — فغضب النعمان لذلك واستغلها الوشاة
عنده حسداً للنابغة فعاد هذا يعتذر ، وسواء أكان هذا أم ذلك ، فالأمر لا يخلو
من استغلال النابغة لما بين الامارتين من تنافس أو استغلال الامارتين شعر النابغة
فأضفى ذلك عليه صفة السياسة وجعل له قيمة ممتازة في سبيل هاتين الدولتين
أو في سبيل ملوكهما على أقل تقدير .

ويظهر لنا أن هناك أموراً أخرى لا بست هذه المسألة فعدتها ، كتفوق
النابغة شاعر المناذرة على حسان شاعر الغساسنة ، وكجودة الشعر الذي قاله
النابغة في آل غسان ، وكذكره يوم حليلة وهو للحارث بن جبلة الغساني ملك
الشام على المنذر بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ^(١) ثم تعدد قصائد النابغة في
ملوك الشام مما يجعل المسألة — فيما يظهر — أن النابغة قسم نفسه بين الامارتين
وإن حن إلى الحيرة كما حن المتنبي إلى حلب وهو مقيم بمصر عند كافور ، ولا شك
أن شعر النابغة يؤرخ إلى حد كبير موقف الامارتين معاً ، وصلة النابغة بكل

(١) ابن الأثير والعقد الفريد .

منهما ، وقيمة شعره ومكانته في هذه البيئة العربية القديمة ، يقول في مدح عمرو
ابن الحارث الأصغر الغساني من قصيدة : —

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
تورثن من أنهار يوم حليلة إلى اليوم قد جربن كل التجارب^(١)
ويعتذر إلى النعمان بقوله : —

أتاني ، أبيت اللعن ، أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع
مقالة أن قد قلت سوف أنا له وذلك من تلقاء مثلك رائع
لعمري وما عمري على بهمين لقد نظقت بطلا على الأقارع^(٢)
وبمثل قوله : —

أنبت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زار من الأسد
مهلا فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد^(٣)

• وقد قلنا فيما مضى باختلاف النعمان بن المنذر والنابعة الذيباني في تفسير مدائح
النابعة في ملوك الشام . فالنعمان فسره تفسيراً سياسياً عاماً إذ هو التجاء إلى خصم
منافس وتقوية لشأنه وبخاصة عقب انتصار الشام على الحيرة ولكن النابعة فسره
تفسيراً شخصياً قريباً بأنه شكر على صنيع ينهض به جميع الشعراء ولا شك
عندى أن النابعة لم يخل سلوكه مطلقاً من السياسة الشامية الحيرية فكان شعره
سياسياً لذلك . ولا نطيل هنا في ذكر الشعراء الذين وردوا الحيرة والشام ولقوا
إكراماً يبتغى منه الملوك إشادة بذكرهم وتسجيلاً لثراهم كطرفة والمتامس والأعشى
وحسان بن ثابت وعلقمة الفحل وعدي بن زيد فذلك كله معروف مشهور .

(١) ديوان النابعة ص ١١ ، عصائب جماعات .

(٢) تستك : تضيق فتصم . الأقارع هو بنو قريع بن عوف الذين وشوا به إلى النعمان .

الديوان ص ٧٤ .

(٣) أبو قابوس هو النعمان بن المنذر أثمر أجمع وأسمى — الديوان ص ٣٨ .

ولعلَّ أهم ما يستوقفنا موقف بكر وتغلب من عمرو بن هند ملك الحيرة ، فقد تأرثت العداوة بينهما من حرب البسوس وكان آخر صلح بينهما في أعقابها على يد هذا الملك ، ولكن بعده مدة يسيرة حدثت بين وجوه القبيلتين ملاحاة في مجلس عمرو هذا ، وكان لابد لكل قبيلة أن تنهض بحجتها أمامه ، وقد قام شاعرهما بذلك : الحارث بن حنظلة البكري وعمرو بن كلثوم التغلبي ، فظفر الشعر الجاهلي من وراء ذلك بمعلقتين من خير قصائده ، لذلك يرى الباحثون أن هناك صلات بين هاتين القصيدتين ، فهما دفاع عن قبيلتين من أصل واحد ، وقد اشتركتا في أحداث جُلّى ، واتصلتا بملك الحيرة ، وكان لكل من القبيلتين أبطالها ووجوهها البارزون ، كما لكل منهما شاعرهما العظيم ومحاميهما الألد في الخصام على ما بينهما في الصياغة ، فجزالة الحارث تقابلها سلاسة عمرو ، وبقدر ما كان الحارث جذلاً - محتجاً كان عمرو خطيباً مصقلاً^(١) ويظهر أن قصيدة الحارث قيلت قبلاً .

والقصيدتان قبيلتان في سبيل قبيلتين كبيرتين ، فكانتا ملحمتين لهما خالدين ، وكل منهما تحوى عناصر رئيسية ثلاثاً : الفخر بقبيلة الشاعر ، و تهديد القبيلة الأخرى ، و الامتنان على الملك وإرهابه ، وإن كان عمرو أشد تعالياً ، وأكثر ادعاءً ، والحارث أشد اعتدالاً وأدنى إلى الواقع ، وعلى كل فلعل القصيدتين أرقى الشعر القبلي جميعه ، وأدخله في باب الشعر السياسى .

وإنما تم القول في الإشارة إلى هذا الشعر الذى قيل في الأيام المذكورة آنفاً ، فقد افتخر الأعشى بشفاعه رجل من قيس بن ثعلبة في سبى بكر بن وائل^(٢) يوم أواره الأول ، وفي يوم أواره الثانى لما بغى عمرو بن هند على طيء بايعاز زُرارة بن عدس قال قيس بن جروة الطائى قصيدة منها : —

فهبك ابن هند لم تعقك ملامه وما المرء إلا عهدُه ومواثقه
وكنا أناساً خافضين بنعمة يسيل بنا تلح الملا وأبارقه

(١) راجع Nickolson : A Literavy History of the arabs, P.

(٢) الديوان ص

فأقسمتُ جهداً بالمنازلِ من مَنى وما خبَّ في بطحائهن دَرادِقُهُ
لئن لم تغيّر بعض ما قد فعلتم لأنتَحِينَ العظم ذو أنا عارقُهُ
فسمى يومئذ عارقاً ، فقال عمرو لترُملة بن شُعَاث الطائي — وهو ابن عم
قيس بن جروة — أيهجوني ابن عمك ويتوعدني ؟ فقال : لا ، والله ما هجاك
ولكنه قد قال : —

والله لو كان ابنُ جفنة جاركم ما إن كساكم غُصّة وهوانا
وسلاسلاً يبرُقن في أعناقكم وإذا لقطع تلکم الأقرانا
ولكان عادته على جيرانه ذهباً ورِيطاً رادعاً وجفانا
إلى آخر القصة^(١) وهي تدل على أن الشعر كان يفاضل بين أسلوبَي الحكم
عند المناذرة والغاسنة أولاد جفنة ، وفي أعقاب هذا اليوم قال لقيط بن زُرارة
يعيّر بني مالك بن حنظلة باحراق عمرو إياهم ، ويدفعهم إلى الثورة ، وينعى على
عمرو سياسته : —

فأبلغ لديك بني مالك مغلغةً وسرّة الرّباب
فان أمراً أنتم حوله تحفون قبته بالقباب
يهين سراتكم عامداً ويقتلكم مثل قتل الكلاب
فلو كنتم إبلا أملت ولقد نزعت للمياه العذاب
ولكنكم غنم تصطفى ويترك سائرها للذئاب
بعمر أبيك أبي الخير ما أردت بقتلهم من صواب
ولانعمة ، إن خير الملوك ك أفضلهم نعمة في الرقاب^(٢)

هذه قصة تصور غدر الملك بقبيلة ، وثورة القبيلة على الملك ، وتفضيل غيره
عليه في سياسة الرعية ، ثم عسف الملك بتميم ودعوة شاعر منهم إلى نبذ هذا
الملك ومناهضته ، ونقد الملك في سلوكه .. كل ذلك سياسة أو شعر سياسي لا شك
فيه . فاذا نظرنا إلى الغساسنة مع القبائل وجدنا في ديوان النابغة وغيره صوراً

(١) النقائض ص ٦٥٢ و ١٠٨١ .

(٢) مغلغة : رسالة محمولة من بلد إلى بلد . أملت وردت ماء ملحا ، راجع النقائض .

شعرية لهذه الصلات السياسية ، فهذا يوم بزاحة لصبة على محرق الغساني وأخيه^(١)
وزياد فيه يقول بن القائف : —

نعم الفوارسُ يوم جيش محرقٍ لحقوا وهم يدعون يالَ ضرار
زيدُ الفوارسِ كرّ وابنا مُنذرٍ والخيـلُ أوجفها بنو جبار
حتى سموا لمحرمه برمامهم بالطعن بين كتائب وغبار^(٢)

وقال ربيعة بن مقروم الضبي في يوم إضم بعد ما قتل بن مزريقاء وهزم أصحابه:
وآل مزريقاء وقد تداعت حلائبهم لنا حتى فرينا
صبرنا بالسيوف لهم وكانت معاقلنا بهن إذا عصينا
وغادرنا قريعهم صريعا عوائده سباع يعتفينا^(٣)

ولما غزا النعمان بن الحارث الغساني بني حُنَّ من عذرة — على غير رأى
النابعة الذيباني — التحم قوم النابعة لبني حُنَّ والتقوا مع آل غسان فهزموهم وحازوا
على مامعهم من الغنائم فقال النابعة في ذلك : —

لقد قلتُ للنعمان يوم لقيته يريد بني حُنَّ بركة صادر
تجنّب بني حُنَّ فإن لقاءهم كريبه وإن لم تلق إلا بصائر
عظام اللهـى أولاد عذرة إنهم لهاميم يستلونها بالحناجر
همُ منَعوا وادى القرى عن عدوهم بجمع مبير للعدو المكائر^(٤)

وسائر القصيدة تصوير لقوة هذه القبيلة وسلطانها وآثارها الحماسية مما يدل
على أن قلب النابعة كان معها على الغسانيين ، ولاغرو فقد كان النابعة من
مادحي العذريين .

ونعود إلى ما كان بين الامارتين من التنافس السياسي لنذكر يومى عين

(١) النقائض ١٩٥ .

(٢) أوجفها : حشها .

(٣) مزريقاء هو عمرو بن عامر ماء السماء (خزاعة ١٢٢/٢) عصينا اتخذنا السيوف

(٤) اللهـى جمع لهوة للمال في الأصل . الهاميم واحدة لهموم وهو العظيم الضخم —

أباغ وحليمة وفيهما انتصرت الشام على العراق ، وكان انتصاراً للروم على الفرس أيضاً ، وفي اليوم الأول يقول ابن الرعاء الضيائي : —

كم تركنا بالعين عين أباغ من ملوك وسوقة أكفاء
أمطرهم سحاب الموت تترى إن في الموت راحة الأشقياء

وفي ذلك اليوم قتل فروة وقيس ابنا مسعود بن عامر فقالت ابنة فروة تثرى أباها في إحدى روايتين : —

بعين أباغ قاسمتنا المنايا فكان قسيمها خير القسيم
وقالوا ماجدا منكم قتلتنا كذلك الرمح يكلف بالكريم^(١)

وفي يوم حليمة قال علقمة بن عبدة يستشفع الحارث الغساني في شأن أخيه قصيدته المشهورة ليفك أساره : —

طحباك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حسان مشيب^(٢)

بقي ما كان بين العرب والفرس ، وذلك يوم الصفقة لكسرى على تميم^(٣) وذلك أن تيمما كانت تحرس تجارة كسرى أنوشروان في طريقها إلى اليمن فأراد هوزة بن علي الخنفي خفارتها وأخذ جعل تميم ولكن تميم نهبت التجارة وأسرت هوزة ثم فدى نفسه ثم احتال مع كسرى حتى استقدموا بني تميم إلى المشقر وهو حصن يدخل فيه الرجل فيقتل حتى تنبه للأمر رجل وقطع سلسلة الحصن وكشف الأمر ففارت تميم وفي ذلك يقول الأعشى يمدح هوزة : —

سائل تيمما به أيام صفقتهم لما رأيهم أسارى كلهم ضرعا
وسط المشقر في غرباء مظامة لا يستطيعون بعد الضر منتفعا
فقال للملك أطلق منهم مائة رسالمن القوم مخفوضاً ومارفعا^(٤)

(١) معنى البيت الأول أن المنايا لما قاسمتنا أخذت خير قسم وهو الميت .

(٢) العقد الثمين ص ١٠٥ .

(٣) ابن الأثير ج ١ ص ٢٧٥ .

(٤) الديوان ص ٨٧ طبعة أوروبا .

وأما يوم ذى قار لبكر على العجم ^(١) فحديثه طويل وشعره كثير ومغزاه
كما قال الرسول عليه السلام : اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم
وبنى نصرُوا وبه افتخر أعشى قيس حيث يقول : —

أما تميمٌ فقد ذاقَتْ عداوتنا وقيسٌ عَمِلانَ مَسَّ الحَزَى والأَسْفُ
وجُنْدٌ كَسَرى غداةَ الحِنوِ صَبَّحَهُمْ منا غطاريفَ تَرجو الموتَ وانصرفوا
لو أن كلَّ مَعَد كان شارِكنا فى يومِ ذى قار ما أخطاهم الشرفُ ^(٢)

وقال العدِيل العجلى فى ذلك : —

ما أوقَدَ الناسَ مِن نارٍ لمَكرُمةٍ إلا اصْطَلَمَينا وكنا مُوقِدِى النارِ
وما يَعدونَ مِن يومٍ سَمِعْتُ به للناسِ أَفضَلَ مِن يومِ بَذى قارِ
جئنا بِأسلابهم والحِيلِ عابِسةٍ لما استلبنا لكَسرى كلَّ إِسوارِ ^(٣)
فالنزعة التى تمثلها هذه الأبيات هى نزعة عربية فى وجه الفرس وإن لم تجتمع
معد كلها فى القتال اجتماعها يوم خزازى فى وجه اليمين .

— ٣ —

وأما كندة فقد قام ملكها أول الأمر برعاية اليمين التابعة إذ ملكوا
حُجر بن عمرو آكل المِرار على بكر بن وائل فنزل ببطن عاقل وأغار ببكر فانتزع
ما كان بأيدي اللاحميين من أرض بكر وتتابع ملوكها متصلين بالفرس والروم
والمناذرة والغساسنة وبعض القبائل البدوية ، وكانت لهم أيام وشعر سياسى إلى
آخر أيامهم وزوال ملكهم ، نذكر هنا ما كان من امتلاك الحارث بن عمرو
الكندى الحيرة مكان المنذر بن ماء السماء أيام قباز كسرى فارس ، ولكن
كسرى أنوشروان أعاد المنذر مكانه وهرب الحارث ولكن بنى تغلب وغيرهم
انتهبوا ماله وأخذوا ثمانية وأربعين نفساً من بنى آكل المِرار فيهم عمرو ومالك

(١) النقائض ٦٣٨ .

(٢) الديوان ص ٢١٠ والعقد الفريد ج ٣ ص ٨٢ .

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ٨٢ .

ابنا الحارث فقتلهم المنذر في ديار بني مرينا وفيهم يقول عمرو بن كلثوم الثعلبي : —
فآبوا بالنهب وبالسياب وبالسبايا وأبنا بالملوك مُصَفِّدِينَا
ويقول امرؤ القيس : —

ملوك من بني حجر بن عمرو يساقون العشيمة يقتلوننا
فلو في يوم معركة أصيبوا ولكن في ديار بني مرينا
ولم تُغسل جماجمهم بغسل ولكن في الدماء مرمليننا
تظل الطير عاكفة عليهم وتنتزع الحواجب والعيونا^(١)

ولما كان الحارث بالحيرة أتاه أشراف نزار فملك بنيه على قبائلهم فسكان
حجر والد امرئ القيس على بني أسد بن خزيمة وغطفان ، وكان شرحبيل على
بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة وطوائف من بني دارم
من تميم والرباب ، وملك معد يكرب على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن
زيد مناة وطوائف من بني دارم بن حنظلة والصنائع وهم بنو رُقَيْصَه قوم يكونون
مع الملوك من شذاذ العرب ، وملك ابنه عبد الله على عبد القيس ، وابنه سلمه
على قيس فلما هلك الحارث تشتمت أمر بنيه وتفرقت كلمتهم وكانت المغاورة بين
الأحياء الذين معهم وتفاقم الأمر حتى جمع كل واحد منهم لصاحبه المجموع .

وكان يوم الكلاب الأول لسلمة على شرحبيل وفي عقبه يرثي سلمة أخاه
كما رثاه أخوه سلمة بشعر منه : —

إن جَنَّبِي عن الفراش لنأبى كنتجافى الأسر فوق الظراب
من حديث نمسا إلى فما تر قاعيني ولا أسيغ شرابي

إلى آخر ما قال ، ولما قُتل شرحبيل حمت بنو سعد بن زيد مناة عياله وألحقوهم
بقومهم وفي ذلك يقول امرؤ القيس ويعرض ببني حنظلة الذين خذلوه : —

أحنظَل لو حاميتُم وصبرتم لأثنت خيراً صالحاً ولأرضاني
إلا أن قوماً كنتم أمس دونهم هم منعوا جاراً لكم آل غُدران

ثياب بني عوف طهاري نقيه وأوجههم عند المشاهد غُرَّانُ
الآيات^(١)

ثم كان يوم حَجَر حين ثارت بنو أسد عليه فقلته وقام امرؤ القيس يثأر
لأبيه ويهدد بني أسد بشعره وينقضه عليه عبيد بن الأبرص الأسدي فاذا قال
امرؤ القيس : —

والله لا يذهب شيخى باطلاً حتى أبير مالكا وكاهلاً
القاتلين الملك الحلال حلاً خير معد حسباً ونائلاً
قال عبيد الأسدي : —

ياذا المخوفنا بقة ل أبيه إذلاًلاً وحيناً
أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذبا ومينا^(٢)
وإذا قال امرؤ القيس حين فاته بنو أسد : —

ألا يالهِفَ هُند إثر قوم هم كانوا الشفاء فلم يُصابوا
وقاهم جد هم بيني أبيهم وبالأشقين ما كان العقابُ
وأفلهن علباء جريضا ولو أدركنه صِفِر الوطاب^(٣)
قال عبيد يرد عليه . —

أتوعد أسرتي وتركت حَجُرا يُريغ سواد عينيهِ الغُرابُ
أبو دين الملوك فهم لقاح إذا نُدبوا إلى حرب أجابوا
فلو أدركت علباء بن قيس قنعت من الغنيمه بالاياب^(٤)

وهكذا حتى إذا بُيئت امرؤ القيس من العرب قصد إلى السموءل بن عادياء بتماء
ليكتب له إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر ففعل ، ورويت

(١) الديوان ص ١٨٩ .

(٢) ديون عبيد ص ٢٧ طبع أوروبا .

(٣) الديوان ص ٥١ .

(٤) ديوان عبيد ص ٨١ .

له قصيدة قالها حين توجه إلى قيصر مع صاحب له ، منها : —

بكي صاحبي لما رأى الدربَ دونه وأيقنَ أنا لاحقانَ بقيصرا
فقلتُ له لا تبكِ عينُكِ إنما نحاولُ مُلكاً ونموتُ فنَعذراً^(١)

ثم يهلك مرجعه من عند قيصر فيما يقول الرواة .

قصة كندة ، كما رأيت تدور حول ملك قام في الجزيرة العربية ولكنه اتصل باليمن في نشأته ، وبالمناذرة والفرس إبان سطوته وقوته ، وبالغساسنة والروم آخر أيامه ، وكانت له مع القبائل ولاسيما بني أسد وقائع ، شارك الشعر فيها وكان دائماً صحيفة هذه الدولة من قيامها إلى زوالها .

— ٤ —

وفي مكة المكرمة أقامت قریش حكومة جمهورية ذات نظام استقراى ملحوظ ، وذلك منذ ولى أمر الكعبة ووظائفها قصى بن كلاب فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، فكانت له الحِجَابَة والسِّقَايَة ، والرِّفَادَة واللواء ، والقيادة ، ثم أمر قریشاً أن يبنوا حول الكعبة وابتدأ هو فبنى دار الندوة حيث يجتمع كبراء أهل مكة تحت إمرته للتشاور فى أمور بلدهم . وقد تشعبت هذه الوظائف فيما بعد وتقاسمتها العشائر القرشية بعد خلاف كثير إلا أن مكة امتازت مع ذلك بموقعها الجغرافى حيث تلتقى القوافل إلى اليمن والحيرة والشام ونجد كما كانت تتصل من البحر الأحمر القريب منها بتجارة العالم وامتازت باجتماع الحاج فى ساحاتها كل عام والتجار فى أسواقها كثيراً ، فكانت تجمع بين خصائص دينية وأدبية ، واجتماعية واقتصادية لم تتوافر لغيرها من القبائل العربية هذا وفر لها نظاماً داخلياً محترماً وبخاصة بعد حلف الفضول الذى عقدته قریش بعد حرب الفجار^(٢) وصارت مكة بذلك العاصمة المعترف بها فى الجزيرة العربية .

(١) القصيدة بالديوان ص ٦٦ .

(٢) الأغانى ج ١٩ ص ٧٤ ط بلاق ، ابن الأثير ج ١ ص ٣٥٩ .

ازدهار الحياة بمكة طوع لأبناء عبد مناف بن قصي أن يعقدوا مع جيرانهم معاهدات أمن وسلام : عقد هاشم بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع أمير غسان معاهدة حسن جوار ومودة ، وحصل من الامبراطور على الاذن لقريش أن تجوب الشام آمنة ، وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع النجاشي كما عقد نوفل والمطلب حلفا مع فارس ومعاهدة تجارية مع النجاشي ^(١) وقد دفعت قریش الأحباش عن الكعبة ^(٢) كما اشتركت مع كنانة في حرب الفجار ضد قيس عيلان ^(٣) ولم تكن قریش معروفة بالحروب والأيام حتى جعل مؤرخو الأدب ذلك من أسباب تخلفها في الشعر الجاهلي ، ولما جاء الاسلام اتصل مجدها الطريف بالتليد ، وصارت قبيلة الخلافة الاسلامية التي جمعت وظيفتها بين السلطين الدينية والدنيوية كما يلي .

فاذا رحنا نلم بهذا الشعر الذي قيل في سبيل هذه الحكومة القرشية قبل الاسلام ظفروا منه بقدر مناسب نشير هنا إلى بعض نصوصه ونحيلك على مراجعته لعلك تستقصيه .

فقد روت سيرة بن هشام ^(٤) شعر الرزاح بن كلاب في نصرته أخاه قصياً على خزاعة لينتزع منها ولاية الكعبة ووظائفها ، منه قوله : —

لما أتاني من قصي رسول	فقال الرسول أحيوا الخليل
نهضنا إليه نقود الجياد	ونطرح عنا الملل الثقيل
فهن سراع كورد القطا	يجبن بنا من قصي رسولا
فلما انتهينا إلى مكة	أبحنا الرجال قبلا قبلا
فقتلنا خزاعة في دارها	وبكراً قتلنا وجيلاً فجيلاً

(١) حياة محمد لهيكل ص ٩٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٠ طبعة الحلبي .

(٣) السيرة ج ١ ص ١٩٥ .

(٤) ج ١ ص ١٣٣ .

وروت لقصى بن كلاب قوله : —

أنا ابن العاصمين بنى لؤى بمكة منزلى وبها ربيتُ
إلى البطحاء قد علمت معد ومروتها رضيت بها رضيت
فلست لغالب إن لم تأثل بها أولاد قيذر والنبيت^(١)
وفى حلف الفضول يقول الزبير بن عبد المطلب ويقال إنه أول من
دعا إليه : —

حلفتُ لَنَعْقِدَنَّ حلفاً عليهم وإن كنا جميعاً أهلَ دارٍ
نسميه الفضول إذا عقدنا يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نهجر كل عار^(٢)
والشعر الذى قاله عبد لمطلب يستنصر الله على رد أبرهة عن الكعبة معروف
وهو قوله : —

لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
الآيات^(٣)

وأما حروب الفجار فيظهر أن قریشاً دفعت إليها على غير هواها بدليل
ما حاولت أن تقفها أول الأمر وما أنكرت من أعقابها آخر الأمر حتى عمدت إلى
حلف الفضول لما شعرت به من تضعف وبخاصة بعد موت هاشم وعبد المطلب
لما أشرفت على التفرق بسبب التطلع إلى الرياسة حتى طمعت فيها العرب ، وإننا
لنجد آثار ذلك فى الشعر فقد قال بعضهم بعد منصرفهم من الفجار : —

نحن كنا الملوك من آل نجد وحماة الزمار عند الدمار
ومنعنا الحجون من كل حى ومنعنا الفجار يوم الفجار

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣٦ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ١٦٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٢ .

وفي ذلك يقول خدّاش بن زهير العامري : —

فلا توعدينني بالفجار فإنه أحلّ يبطحاء الحجون الحازيا^(١)

وإنما أشير إلى يوم شمطة من أيام الفجار الثاني لقيس على كنانة وقريش ففيه

يقول خدّاش بن زهير العامري من عامر بن صعصعة : —

ألا أبلغ إن عرضت به هشاما وعبد الله أبلغ والوليدا

بأنا يوم شمطة قد أقمنا عمود الدين إن له عموداً . . الخ

وأما يوم عكاظ فكان لكنانة وقريش على هوازن وفيه يقول ضرار

ابن الخطاب : —

ألم تسأل الناس عن شأننا ولم يُشَيِّتِ الأمر كالخاير

غداة عكاظ إذ استكملت هوازن في كفها الحاضر

فقرت سليم ولم يصبروا وطار شعا بنو عامر . . الخ

وأما يوم الحريرة فكان لقيس على كنانة وقريش وفيه شعر لخدّاش

ابن زهير أيضاً منه قوله : —

لقد بلوكم فأبلوكم بلاءهم يوم الحريرة ضربا غير تكذيب

إن توعدونني فأني لأبن عمكم وقد أصابوكم منه بشؤبوب . . .

وفي أعقاب رث أميمة بنت أمية بن عبد شمس أخاها أبا سفيان بن أمية

ومن قُتِلَ من قومها بشعر منه : —

أبي ليأسك لا يذهب ونيط الطرف بالكوكب

وهذا الصبح لا يأتي ولا يدنو ولا يقرب

بعقر عشيرة منا كرام الخيم والمنصب^(٢)

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧ .

(٢) أيام العرب في الجاهلية ٣٣٧ .

وقالت فاطمة بنت الأحجم ترثي الجراح زوجها : —
قد كنت لي جبلا ألوذ بظله فتركتني أضحي بأجرد ضارحي
قد كنت ذات حمية ماعشت لي أمشي البراز وكننت أنت جناحي
فاليوم أخضع للذليل وأتقى منه وأدفع ظلمي بالراح^(١)
وكذلك رثت إختها :

فاذا كان شعر قريش على نسق الشعر القبلي الماضي فلا شك أن فيه روحا
دينياً سامياً ، واجتماعياً مسالماً ، وصورة حياة مستقرة وديعة خالية من عنف البادية
وقسوة الصحراء . وهو قبل وبعد شعر قبيل في ظل هذه الحكومة الديمقراطية
ولأجل الاحتفاظ بها فاتسم بسمات سياسية من هذا الوجه .

د. ن. خ. ع

١٥٥٠

تذييل

في خواص الشعر السياسى قبل الاسلام

نوجز هنا القول في خواص هذا الشعر السياسى في الجاهلية ، إذ كانت هذه الخواص خلاصة مركزة للمعاني التي تناولها ، ولأسلوبه في الأداء ، ولأغراضه أو اتجاهاته العامة التي خضع لها الشعراء حين ينشئون ، ولما كان هذا الشعر السياسى ، بحسب ما فسرناه ، كثيراً فان خواصه هذه توشك أن تكون خواص الشعر الجاهلى جميعه .

والأصل العام لتوافر هذه الخواص ، ولا سيما الموضوعية منها ، هو أن الحياة البدوية قامت على العصبية القبلية في أغلب نواحي الجزيرة ثم تأثرت بعصبية الامارة أو الحكومة في أطرافها وبعض جهاتها ، وكان لابد من هذه العصبية لحفظ كيان الفرد وعشيرته ، فاذا تكلم الشاعر فانما يتكلم في ظل هذه الرابطة الاجتماعية التي توفر له العدالة الداخلية والسلامة الخارجية ، ومعنى هذا أن يكون الشعر في روحه وغايته شعر جماعة لا شعر فرد في أغلب الأحيان .

وعلى ذلك تكون خاصته الأولى ظهور شخصية القبيلة في هذا الشعر قوية بجانب شخصية الفرد ، وقد تطغى شخصية القبيلة من حيث المعانى فلا يكون للفرد في القصيدة إلا هذه الصياغة الفنية التي تعد مظهر براعته الأسلوبية ، هذه الشخصية القبلية تتراءى في الأيام ، والأنساب ، والمفاخر الأخرى كالانصاف والرياسة وإباء الضيم وسائر الفضائل الحربية والاجتماعية التي تعتز بها القبيلة سواء أكانت حقيقية واقعية أم خيالية مثالية وقد تجلت هذه الميزة الأولى في كل من معلقى عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، فكانت كلتاها سجلا لقبيلته ومرآة لما أثرها كما صورها شاعرها العظيم .

ويتبع ذلك أمر آخر هو أننا نجد في القصيدة الواحدة صفات عامة يتمدح بها

جميع الشعراء ويسجلها هذا الشعر القبلي كالكرم ، والشجاعة ، والنجدة ، وحماية الجار ، والقدرة على الظلم ونحو ذلك مما يتصل أكثره بالمرءة ، كما نجد معها سمات كل قبيلة ، وذلك حسبما يغلب عليها أو تشتهر به ، فلا شك أن شعر القبائل والامارات يشير إلى بأس بنى عبس ، وخشونة تميم ، وسلطان تغلب ، وكثرة قيس ، وأناة بكر ، وتهذيب قریش ، وكذلك يشير إلى أن الغساسنة كانوا أرقى عقلا من المناذرة وأسمى حضارة وهو فرق ما كان بين حضارة الفرس والروم ، ثم نجد مع هذين عواطف الشاعر وصياغته ، تبدو الأولى منفردة في نسيب مثلاً أو خالعة قوة وجمالاً على سائر الصفات العامة .

ولذلك كله مظاهره في الأسلوب فالتعبير يكون بضمير الجماعة الذى يدل على القبيلة ، والخطاب يكون لجماعة أخرى أو لفرد مقصود يمثل قبيلته أو يتناقض مع الشاعر الأول ، وقد يكون الهجو أو الفخر بضمير الغائب إذا كان المخاطب عاماً أو غائباً وهذا معناه أن الشعر شعر جماعة لا فرد .

ذلك من ناحية الصياغة اللفظية كما رأيت ، وأما الناحية المعنوية ، فالأصل في الشعر السياسى هو الاحتجاج للقبيلة أو الامارة ، وقد فعل ذلك الحارث ، وعمر ، وطرفة ، وعنترة وحسان بن ثابت وعبيد وزهير ، إلا أن هذا الاحتجاج يكون حقيقياً كما يكون خطابياً يقوم على المبالغة والادعاء ، وكثيراً ما تكسبه الصور البيانية قوة وروعة ، تجد ذلك في احتجاج زهير لمذهبه في السلام ونبد الحرب ، وفي هذه الصور التى عرضها عمرو لسلطان تغلب وسطوتها ، وفي صورة الحضارة الغسانية التى عرضها حسان في شعره .

ومن الطبيعى أن تكون فنون الشعر السياسى أو معارضه هى الحماسة ، والفخر ، والهجاء ثم المدح والوصف والثناء لأن الشاعر البدوى لم تتكون عنده الأصول المذهبية والنظريات الاجتماعية تكوناً منطقياً يقوم على الشرح والتعليل ، وإنما كان يدرك الاتجاهات بقدر أثرها في حياته فيطمئن إليها مادحاً ذوياً ، أو ينفر منها هاجئاً إياهم ، ويفزع لنجدة قومه داعياً إلى ذلك في حماسة ونفر فكان من ذلك فنون غنائية في صياغتها ولكنها اجتماعية أو سياسية في غايتها ،

وإذا كان شعر القبيلة وفي سبيلها فانه يدخل في باين : داخلي تحفياً بالقبيلة واعتزازاً بها كما يكون ثورة عليها ونقمة ، وخارجي يكون فخراً بها وهجاء لعدوها ، ولما كان كيان القبيلة قائماً على حمايتها وصلاتها بالقبائل الأخرى فشعرها الخارجي يكون أكثر من الداخلي ، إذ الحياة الداخلية لم تحتج إلى تسجيل وإشادة فهي أمر طبيعي مقرر ، وأما الخارجية فهي مجال الصخب والتنافس وفي حاجة إلى الإشادة والوعيد ، وتاريخ الشعر يثبت ذلك فشعر القبائل الخارجي هو الغالب وعليه قامت أكثر فنون الشعر الجاهلي .

والوصف العام لهذا الشعر أنه شعر العاطفة الصادقة ، والمعاني القريية ، والخيال البسيط الجميل ، والعبارة السهلة الخالية من التعقيد مع حسن اختيار البحور العروضية وذلك وصف غالب لا تعدم له شذوذاً ، وضعفاً يصادفك في بعض نصوصه الصحيحة .

بقي أن نعرف خصائص كل شاعر ، وميزات كل فن من فنونه الفرعية كالرثاء والوصف والحماسة والفخر ، ولا أظننا نجد لذلك مجالا هنا وكل ما نشير إليه أن الرثاء مثلاً كان مشوباً بالوعيد والتهديد والعزم على الانتقام والوصف ، كان صوراً حماسية حتى النسيب لم يسلم من هذا الروح الحماسي الصارم .
وخلاصة القول أن هذا الشعر كان صورة ملائمة لبيئته جعلت منه الحياة البدوية سجلاً صادقاً لآراء فيه ولا تكلف فكان كتاب القبيلة والإمارة العربية القديمة .

البَابُ الثَّانِي

فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ

اَلْفَصْلُ الْأَوَّلُ

فِي سَبِيلِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ

- ١ -

كان قيام الامارات العربية والنظم الاجتماعية في أطراف البادية ووسطها ، ثم ما صاحب ذلك من نهضة أدبية ، وتبصر ديني ، واستشراف إلى مثل عليا في الحياة ، إرهاباً لهذا الدين الجديد الذي ظهر في العرب وحملهم على أن يكوّنوا وحدة تؤسس دولة عامة وتتقدم إلى مسرح التاريخ لتمثل دورها الممتاز وتحمل علم الحضارة أمام الشعوب الاسلامية ، وقد تم لها ذلك في عدة أطوار تاريخية ، وأشكال مدنية ، وكان الشعر ، ولا سيما السياسي ، يساير هذه الدولة في تكوينها الداخلي ، وسلطانها الخارجي ، وحروبها الأهلية ، وأحزابها السياسية .

ويمحسّن أن نشير قبلاً إلى هذه المعالم الأساسية التي امتاز بها هذا العهد الاسلامي الجديد فكان بها طوراً مغايراً للحياة الجاهلية في نزعاتها ، وأوضاعها ، ونظمها ، وغايتها من الحياة ، ثم ما كان من مظاهر ذلك في الشعر السياسي بوجه خاص .

وأول ما نشير إليه هنا هو الركن الرئيسي الذي قامت عليه الدعوة الاسلامية ، فقد كانت قائمة على تنظيم الشؤون الدينية والدنيوية للبشر عامة ، لذلك كان الرسول يدعو الناس جميعاً ليصلح ما بينهم من صلات لتتوافر لهم حياة منظمة عادلة آمنة ، وليعلمهم شعائر دينية أخرى قوامها التوحيد والعبادة وانتظار الدار

الآخرة ، وهذا معناه أن الاسلام كان ديناً ودولة أو كان يجمع بين السلطتين الروحية والزمنية ، ومهما يختلف الباحثون ^(١) في مرد الجانب الثانى بالنسبة للاسلام أهو عقيدة دينية أم عمل مدنى ، فان الواقع أن الرسول وخلفاءه كانوا ينهضون بهذين الجانبين معاً دون أن يفرقوا بينهما وأن الخلافة الاسلامية فى أوج عزتها كانت مرءاً للسلطتين الدينية والسياسية جميعاً ، وهذا يغاير من بعض الوجوه ما كانت عليه الامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب « فكلما النظامين يستند على قوة الدين ، إذ كلاهما دين عالمى يعمل على ضم العالم تحت لوائه ، بيد أن الامبراطورية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود بل كانت استمراراً لامبراطورية وثنية سابقة ، حتى إن الامبراطور شارلمان تلقب بألقاب الأباطرة الوثنيين ، كما تجدد فى الغرب حاكمين أحدهما زمنى وهو الامبراطور ، والآخر روحى وهو البابا . أما الخلافة فانها لم تقم على نظام سياسى سابق بل هى نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التى نشأت على أثر ظهور الاسلام وبسط سيادة العرب على بلاد فارس ومعظم بلاد الدولة الرومانية الشرقية ، والخليفة حاكم سياسى ، بمعنى أنه حاكم واحد يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية ، ولا تتعدى وظيفته الدينية المحافظة على الدين ، ويستطيع باعتباره حامى الدين أن يعلن الحرب على الكفار ، ويعاقب الخارجين على الدين ، ويؤم الناس فى الصلاة ، ويلقى خطبة الجمعة ، بخلاف البابا فانه يعتبر قسيساً أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين ، وهو المرجع الأعلى فى الأمور الدينية » ^(٢) .

معنى ذلك أن الرسول عليه السلام كان ينهض بتوحيد القبائل العربية تحت لواء الدين أولاً فيخضع العرب لفكرة الجنس ويصبحون أمة عربية لها وحدتها العنصرية ، والدينية ، واللغوية ، والشرعية ، ويخضعون لرئيس واحد كان هو الرسول ثم خلفاءه من بعده ، وهذا وحده كاف للقول بأن العرب إبان

(١) راجع فى ذلك : مقدمة ابن خلدون ، والخلافة لرشيد رضا ، والاسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق .

(٢) ورد هذا النص فى كتاب النظم الاسلامية لحسن ابراهيم وعلى ابراهيم ص ٢٠ .

ظهور الاسلام كانوا قادمين على تكوين دولة عربية لها مقومات الدولة الناشئة أو الناهضة ، لاشك في ذلك ، وأن جميع الجهود التي تبذل في هذه السبيل لا تخلو مطلقاً من طابع سياسى يؤثر في مجراها وفي غايتها معاً .

ومما يستأنس به في ذلك أن الدعوة الاسلامية لم تخل من حروب وغزوات اضطر إليها الرسول لتقويم هذه الأمة ، وانتشالها من جهالتها ، وردها إلى نظام مدنى مهذب يلائم هذا الدين ويتخذ من تعاليمه وسيلة الاصلاح البشرى العام . فإذا رأينا الشعور ينهض هذه الدعوة أو يناصرها ، حكمنا عليه بأنه شعر سياسى إلى حد كبير ، إذ كان شعر نهضة و انقلاب وكان بذلك صورة ناطقة لهذا الصراع بين وضع جاهلى قديم ونظام إسلامى جديد ، وإذا شئت فقل بين دولة تزول وأخرى تقوم .

وثانى ما نذكر ، وهو نتيجة لما قلنا ، أن الأساس القبلى عاد فى رأى الاسلام منكراً نهى عنه الرسول ، وأنكر دعوة الجاهلية ، والتشبث بعصبيتها الحقاء ، وحل محل هذه الحمية أساس آخر عام عريض الأفق هو الاسلام أو الدين الانسانى الجديد ووحدته العربية أولاً ثم البشرية آخرأ وبذلك وبالتدرىج ، أخذ الاعتبار القبلى يتضاءل ليحل مكانه اعتبار عربى ثم إنسانى ، وأخذت الديانات القديمة تنهزم أمام الاسلام فى داخل الجزيرة العربية ، وكان معظمها الوثنية والمسيحية واليهودية والمجوسية ، ثم تتقلص فيما بعد ، أمام الفتوح الاسلامية خارج البادية ، إذ كانت وجهة الاسلام إصلاحية عامة لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، والناس جميعاً فى رأى الاسلام كأسنان المشط ، لا امتياز فيه لقبيلة أو جنس ، ولا وجود لدين إلا الاسلام .

وكان من مظاهر هذا الوضع الجديد أن ترك الرسول قومه قريشاً وأهله الأدينين بمكة إلى الأنصار من الأوس والخزرج بالمدينة وألف بينهم وبين المهاجرين فألقى بذلك العصبية القبلية فى سبيل الوحدة الدينية^(١) وأخذ يحارب قومه بحلفائه

(١) راجع كتابه عليه السلام بين المهاجرين والأنصار واليهود فى مجموعة الوثائق السياسية

من سكان يثرب ، نجد الأوس والخزرج يصطالحون في ظل هذا الدين الجديد بعد ما كان بينهم من أيام فادحة في الجاهلية ، وقد سارت القبائل المسلمة في هذه السبيل نفسها تنضوى تحت لواء الاسلام ، ثم أخذت قريش تجمع أمرها ومن لف لفها لحرب الرسول ومن آمن به ، ذلك في سبيل قديمهم وحرراً على الدين الجديد ودولته ثم قام اليهود والنصارى يقفون في وجه هذا الدين الجديد بالسيف واللسان حين جد الجد وأخذ شأن الاسلام في النمو والعمل الايجابي منذ هجرة الرسول إلى المدينة ، ورأينا الفرس والروم يلتفتون إلى هذا الحدث الجديد في بادية العرب القاحلة ، ولعلمهم ظنوه نوعاً من السكينة أو الاحتياي على المال أو السلطان فلم يبالوه أو لعلمهم ارتقبوه هادئين .

وإذا لاحظنا قبلاً أن هذه الدعوة الاسلامية ذات جانبين ديني وسياسي فإننا نلاحظ الآن أن هذه الدولة العربية سيكون لها جانبان سياسيان أحدهما داخلي متصل بالحكومة العربية أو الاسلامية ، والثاني خارجي بين المسلمين وغيرهم من الأمم الأخرى مادام المسلمون ملزمين بالدأب في نشر الاسلام وتحقيق رسالته الانسانية العامة وما دامت لهم هذه الدولة التي تشرف على نفاذ هذا الواجب . وقد وضحت هذه الأوضاع كلها من أول الأمر حين قال الرسول لقومه إني نذير لكم خاصة وللناس عامة ، وأخذ يتزعم هذه النهضة أو الدولة الناشئة ثم يخلفه عليها أبو بكر وعمر وعثمان . .

(١) هذا الوضع الجديد الذي أجملناه هنا أثر في الشعر والشعراء من هذا الجانب السياسي الذي نتناوله هنا ، وكان من مظاهر هذا التأثير أن شعر التناقض والتهاجي بين الأوس والخزرج أخذ ينتهي ويتحول إلى قريش في مكة بزعامه أبي سفيان بن حرب هناك ، فبعد أن كان فخراً وهجاء بينهم جاهلياً في سبيل السيادة القبلية والمطالب المادية صاروا فخراً وهجاء إسلامياً بينهم وبين قريش وخلفائهم في سبيل الدين الجديد ودولته ، وذلك من شأنه أن يغير اتجاه الشعر

ويوسع من أفقه ويسمو بغايته ، ولعل الخزرج كانوا أبعد صيتاً من الأوس في ذلك .

(٢) وكذلك نرى الشاعرية القرشية أخذت تستيقظ وتقوى بعدما كانت هينة يسيرة في الجاهلية ، وذلك مناهضة لهذا النظام الجديد ، ولأنصاره ، وحرصاً على ما كان لقريش من نفوذ بين العرب ديني واجتماعي واقتصادي . لذلك أخذنا نسمع في تلك الحقبة بشعراء لم يكن لهم ذكر في الشعر قبل الاسلام وبخاصة أبا سفيان وعمر بن العاص ، ثم ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعرى والحارث بن هشام وأبا أسامة معاوية بن زهير الذي ينسب إليه أصح شعر قيل في بدر^(١) وإذا كان ابن سلام يرد قلة الشعر القرشي في الجاهلية « إلى أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا »^(٢) فان الاسلام كان حدثاً هز نفوسهم وأثار نخوتهم وحملهم على القول دفاعاً عن أنفسهم ورداً على نظرائهم من أنصار المدينة .

(٣) ثم نجد القبائل الأخرى ، غير قريش والأنصار ، تأوى شيئاً فشيئاً ، إلى أحد الجانبين ، فشعراؤها إما مع الرسول أو عليه ، واستمر ذلك أكثر العهد المدني إلى أن أوشكت الوحدة العربية على الكمال بإشراف الرسول ثم خلفائه من بعده ، فكان الأعشى التميمي ، والحجاج بن علاط السامي ، ومعبد الخزاعي ، وميمونة بنت عبد الله البسوية مع الرسول ، وكان أمية بن أبي الصلت وكعب ابن الأشرف اليهودي مع قريش .

(٤) وظهر بين النساء شواعر يقلن في المواقف الاسلامية كما يقول الشعراء وكان شعرهن حمية ثائرة ، وتحريضاً على القتال ، وبكاءً على القتلى من ذويهن ، واشتقاءً من أعدائهن ، منهن هند بنت عتبة بن ربيعة وصفية بنت مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهند بنت أثابة بن عباد بن المطلب ، وقتيلة بنت الحارث وكن جميعاً في جانب قريش يوم يبيكين القتلى ،

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٥ طبعة الحلبي .

(٢) طبقات الشعراء ص ١٠٢ طبعة مصر .

ثم صفية بنت عبد المطلب ، ونعم امرأة شماس بن عثمان وكانت مع المسلمين في أحد ، وغيرهن من الشواعر^(١) .

(٥) أما شعراء اليهود فقد وقفوا يدافعون عن كيانهم أمام هذه الدولة الفتية التي تنكر دينهم أولاً ، ثم سلوكهم الذي لم يسلم من الجنسية ثانياً حتى أجلتهم عن بلاد الحجاز آخر الأمر وأضعفت من شأنهم إلى أبعد حد ، وقد كانوا في الجاهلية ممتازين بثروتهم وثقافتهم ونظامهم الاجتماعي ، ومن شعرائهم في الجاهلية السموءل بن عاديا ، وأبو الزناد ، وسارة القرظية ، ومن كانوا في زمن البعثة أوس بن دنى القرظي وكعب بن الأشرف وله نقائض جاهلية مع حسان وغيره في حروب الأوس والخزرج وكان على الرسول فقتل ، ثم الربيع بن أبي الحقيق القرظي وكان حليفاً للخزرج يوم بُعث هو وقومه وله شعر يعاتب فيه الأنصار ثم سَمَّاكَ اليهودي الذي عُرف في إجلاء بني النضير يرد على شاعر مسلم مناقضاً له ، قيل هو علي بن أبي طالب ، كما ردّ على كعب بن مالك أيضاً في هذا الحادث . ومنهم جبل بن جوال الثعلبي الذي ردّ على أبي سفيان بن الحارث في شأن بني قريظة والنضير ، ومنهم مرّحب اليهودي وهو رجّاز ورد ذكره في أمر خيبر وسلم بشيء من شعرهم فيما يلي^(٢) .

(٦) ولما تقدمت الأيام قليلاً أي آخر حياة الرسول كان شعر الوفود مثالا للشعر القبلي الجاهلي إلا أنه قيل في ظل الاسلام وبسببه فصار بذلك من هذا الفن السياسي ، وكان أشبه بشعر قريش في هذا الباب ، وكانت مرآة الرسول ذات ظل سياسي كذلك .

وإذ كنا قد عقدنا هذا الفصل لدراسة الشعر الذي قيل في سبيل الأمة العربية وتكوين دولتها فان عهد أبي بكر يدخل فيه لأن حروب الردة التي شغلته طويلاً إنما كانت انتكاساً خطيراً في حياة هذه الدولة ، ولولا حزم أبي بكر وعزمه لكان

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٠ و ١٧٦ — ١٧٨ .

(٢) راجع السيرة لابن هشام ج ٣ ، ٤ والأغاني في أجزائه المختلفة ، وتاريخ ابن الأثير

ج ١ ، ٢ وطبقات الشعراء لابن سلام .

شأن الدين وانتقضت العرب إلى غير رجعة ، وقد قيل في الردة شعر كثير للدولة وعليها ، ألم تكن الردة هدماً لبناء الدولة التي وضع الرسول أسسها ، وتحللاً من هذه الشعائر الإسلامية ولا سيما الزكاة ؟ ألم تكن نزوات لجماعة المتنبيين الذين يسعون وراء المنافع المادية ورياسة القبائل ؟ هذه كلها أعمال في صميم السياسة ومناهضة خطيرة لهذا النظام الإسلامي الذي عمل فيه الرسول ، فشرها شعر سياسي لاشك فيه .

— ٣ —

ذلك هو الأفق العام للشعر واتجاهاته في هذه الفترة الأولى من صدر الإسلام وعلينا الآن أن نقف عند الشعر والشعراء الذين نهضوا بهذا الفن السياسي في عهد تكوين الدولة الإسلامية الأولى .

(أ) وأول ما نشير إليه من ذلك أن الدين وقف من الشعر موقفاً طبعياً واضحاً ، فالشعر من حيث أنه فن رفيع يعد من مقومات الحياة لا يحظره الإسلام وقد سمعه الرسول وأثاب عليه كعب بن زهير بهردته ، وحمل حسان وزملاءه من الأنصار وغيرهم أن يردوا على قريش وينصروه بألسنتهم كما نصروه بأسلحتهم^(١) ومن الطبيعي أن ينصرف الرسول عن الشعر الذي ينهاض الدين ويعارضه ، وعن الشعر الماجن الذي لا يتفق والفضائل النفسية أو يعين على الرذائل .

(ب) ثم نلاحظ أن الشعر العربي في هذه الفترة أخذ بالتدريج يتجه إلى القرى ، لا أقول في نشأته ونموه وإنما في اتجاهه ، فمركزه المدينة ثم مكة وشيء منه في الطائف حيث الاستقرار ، وهذا طبعي فالمعركة بين مكة والمدينة أول الأمر جذبت الشعراء إلى كل منهما ، وكانت تقيف تسكن الطائف وأسلمت متأخرة ومنها أبو الصلت وأممية ابنه وغيرهم ، ولما هدأت المعركة وصارت المدينة عاصمة المسلمين كان الشعر ينشد فيها أو يخضع لسياستها ، كان ذلك أيام الرسول

(١) راجع في هذه المسائل دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٩ والعمدة الأرشيق

وخلفائه الراشدين . وفي هذه الفترة الأولى كان هناك جيل جديد ينشأ في المدن الحجازية وبواديها وفي بادية البصرة وهو الجيل الذي مثل الشعر في زمن الأمويين .

(ج) ثم نلاحظ شيئاً آخر هو كثرة الشعر المنحول الذي أضيف إلى شعراء هذه النهضة الدينية من مدرستي مكة والمدينة ، وذلك للمبالغة في الغزوات أو تكثير شعر الشعراء أو إنطاق شعراء قريش بمدح الرسول أثناء هجائهم الأنصار أو لاعتراف الأنصار بهزيمة أحد مثلاً ، كما ذهب الشعر الذي هجى به الرسول والمسلمون . وقد كثر الوضع على حسان بن ثابت وعلى بن أبي طالب وطالب أخيه وكعب بن مالك والحرث بن هشام وضرار بن الخطاب ، وكثيراً ما يشير ابن هشام إلى الموضوع ولكنه يترك بعضاً دون إشارة ، ولعله هو نفسه كان متأثراً بالعصبية الإسلامية حين يطمئن إلى شعر ضرار بن الخطاب في مدح الرسول وقريش وهجاء الأنصار في غزوة بدر ، على أننا نستطيع تمييز الشعر الموضوع بأشياء منها ما ذكرنا من إنطاق قريش بمدح الرسول أثناء هجاء الأنصار ، ومنها ضعف العاطفة ورذالة الأسلوب إلى درجة الشعر القصصي الشعبي أحياناً ، ومنها كثرة القصائد للشاعر الواحد في الموضوع الواحد . ثم هناك قصائد يقال إنها أنشئت في حادثة خاصة فاذا بها كلام عام لا يتصل بحادثة أو يتصل بها بأوهى الأسباب ، وقد ورد أن أصبح شعر بدر هو ما قاله أبو أسامة معاوية بن زهير حليف بني مخزوم وكان مشركاً فمر بهبيرة بن أبي وهب مُعِياً فحمله ومضى وقال شعره في هذا اليوم ^(١) .

(د) وأهم ما يلاحظ من الناحية الفنية العامة هو اختلاف تأثير الإسلام في أساليب الشعراء المخضرمين الذين ظهر عليهم وهم يقولون الشعر ، فأما الخطيئة مثلاً ، فقد احتفظ بشخصيته الجاهلية إلى حد بعيد وبقى منه مستوى الأسلوب لم يضعف وإن تأثر بالقرآن في بعض معانيه ، وأما لبيد فقد سكنت عن الشعر احتفالاً بالقرآن الكريم وقالوا إنه قال في الإسلام بيتاً واحداً ولكن هذا القول مردود لأن في ديوانه قصيدة يوصى بها بناته قبيل وفاته وقد عاش في الإسلام

أكثر من أربعين سنة ، و بقيت الخنساء جاهلية أيضاً ومثلها كعب بن زهير صاحب « بانت سعاد » فهي جاهلية وإن مدح فيها الرسول . وكل من كعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة الأنصاريين الخزرجيين قد احتفظ بأسلوبه على جزالة كعب ورقة عبد الله ولعلهما إسلاميان لم يعرفا كثيراً بالشعر في الجاهلية . أما حسان بن ثابت فكان شعره الجاهلي أقوى من شعره الإسلامي لتغير البيئة عليه ، وارتجاله ، وكثرة ما قال ، وتقيدته بحدود الدين ، وترك معاييره القديمة ، وكثرة ما حمل عليه . على أن له بعض قصائد إسلامية جيدة كقصيدة له في بدر وثانية في فتح مكة وثالثة في مفاخرة شاعر تميم ، أما أمية بن أبي الصلت فكان شعره مع قریش قوياً وكذلك قسم من شعر ابن الزبيري والعباس بن مرداس السلمي وأبو سفیان بن الحارث أولئك الذين أسلموا عام الفتح وصاروا مع الرسول عليه السلام .

(هـ) أما الشعر نفسه فقد قلنا إنه فن سياسي من حيث غايته وجوه الذي يتنفس فيه لاتصاله بمذهبين جاهلي وإسلامي وبدولتين دولة قديمة مفككة وأخرى حديثة موحدة ، ويسياسيتين مضطربة ضعيفة وأخرى منسقة قوية ، وبحياتين حياة ضيقة فقيرة محبوسة في الصحراء وأخرى عريضة غنية تفتح في الدنيا وتسود العالم مصلحة مهذبة هادية إلى خيري الدنيا والآخرة ، ولكنه مع ذلك يظهر في أشكال شتى من الفخر والهجاء والثناء والوصف والوعد والوعيد والحماسة سواء ذلك من جانب الرسول وأنصاره أو من جانب قریش ومن لف لفهم كاليهود بوجه خاص . على أن هذه الفنون وجدت مختلطة معاً ، وليس من صالح الدراسة الشعرية أن نفصل بين هذه الفنون في القصيدة الواحدة أو في جملة قصائد ، وخير للدارس أن يتناول هذا الشعر على أنه وحدة عامة ذات مظاهر معنوية جزئية شتى تقوم بمهمة عامة هي تحقيق الفوز للإسلام من ناحية الرسول وللجاهلية من ناحية خصومه القرشيين واليهود والنصارى .

(و) هذه الوحدة العامة يمكن إيراد خواصها الفنية في النقاط الآتية : —

(١) المفروض أن يكون هذا الفن قوياً حماسياً في جملة لأنه شعر العواطف

المتعارضة التي تتصادم حول الحياة أو أعز ما في الحياة كالدين ، والحرية ، والسيادة ،
وشعر النهضة الفائرة يكون صاحباً أشبه بالخطابة لأنه يكون من واديهما في مثل
هذه الظروف إذ يقوم بوظيفتها ويعتمد مثلها على قوة الشعور ، وصدق العقيدة ،
ويقين الإقناع ، فكيف به إذا اختلط بالعصبية الجاهلية بين القبائل الجاهلية ؟
ومع ذلك فانا لانعدم فيه شعراً ضعيفاً فاتراً لا يثير عاطفة ، بل هو غث بارد
لا يلائم هذه النهضة الخطيرة ، ولعل هذا الضعف أن يكون مصدره الارتجال
أو الانتحال أو الضعف الأصيل في طبيعة الشاعر أو كذب عاطفته .

هناك ذلك الشعر القوي الذي يصدر عن عاطفة صادقة وعقيدة قوية كقول
أبي بكر بن الأسود بن شعوب الليثي يميكي قتلى بدر : —

تُمَنِّينَا السَّلَامَةَ أُمُّ بَكْرٍ وهل لى بعدَ قومي من سلامِ
فماذا بالقلب قلب بدرٍ من القينات والشرب الكرامِ
وماذا بالقلب قلب بدرٍ من الشيزى تُكَلِّلُ بالسنامِ
إلى أن يقول : —

يُخَبِّرُنَا الرِّسُولُ لِسُوفِ نَحْيَا وكيف حياةُ أصداء وهام^(١)
وقول أبي أسامة معاوية بن زهير الجُشْمِي حليف بنى مخزوم ، ويقول ابن
هشام إن قطعته هذه أصح شعر قيل في بدر : —

ولما أن رأيت القومَ خفوا وقد زالت نعاساتهم لنفرِ
وأن تُركت سراةُ القومِ صرعى كأن خيارهم أذباح عترِ
وكانت جمةً وافت رحاماً ولقينا المنيايا يوم بدرِ
إلى أن يقول : —

فأقسم بالذي قد كان ربِّي وأنصاب لدى الجمرات مغرِ

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٠ — القلب البئر ، الشيزى جفان تصنع من خشب
وإنما أراد أصحابها الذين يطعمون فيها . الأصداء جمع صدى وهو بقية الميت في قبره .

لسوف ترون ما حسبي إذا ما تبدلت الجلود جلود نمر^(١)
 ذلك نحو مما كان من جانب قريش ، وأما ما كان من جانب الرسول فنحو
 قول حسان بن ثابت في غزوة بدر : —

تبلت فؤادك في المنام خريدة تسقى الضجيج ببارد بسم
 إلى أن يقول : —

ومجدل لا يستجيب لدعوة حتى تزول شوامخ الأعلام
 بالعار والذل المبين إذ رأىبيض السيوف تسوق كل همام
 بيدي أغر إذا انتهى لم يحزه نسب القصار سميدع مقدم
 بيض إذا لاقت حديداً صممت كالبرق تحت ظلال كل غمام^(٢)

وهناك شعر ضعيف لا يوازي ما سبق كقول ضرار بن الخطاب يوم بدر : —

عجبت لفخر الأوس والحين دائر عليهم غداً والدهر فيه بصائر
 وفخر بني النجار أن كان معشر أصيبوا بيدر كلهم ثم صائر
 وقول كعب بن مالك يحجبه : —

عجبت لأمر الله والله قادر على ما أراد ليس لله قاهر
 قضى يوم بدر أن نلاق معشرا بغوا وسبيل البغي بالناس جائر^(٣)

(٢) وكان هذا الشعر يدخل في فنون الفخر والهجاء والثناء والوصف
 وما يتصل بها من وعد ووعيد وشماتة واشتفاء أو هو كله شعر حماسي إذا فهمنا
 من الحماسة ذلك الشعر القوي الذي يلائم هذه الفترة من تاريخ الإسلام والمسلمين ،

(١) نفس المرجع ص ٣٥ — زالت نعابتهم ذهبت نفوسهم . العتر الصنم الذي يذبح له .
 الجمعة الجماعة من الناس . مفر جمع أمغر وهو الأحمر يريد الأنصاب مطلية بالدم .

(٢) نفس المرجع ص ١٧ — تبلت أسقمت . الخريدة الجارية الحسنة الناعمة . المجدل
 الصريع على الأرض . الأعلام الجبال العالية . القصار الذين قصر سعيهم عن طلب المكارم .
 السميدع السيد . البيض السيوف . صممت السيوف مضت وقطعت .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٤ .

وقوة الشعر كما نعرف مردها قوة الشعور ، وصدق العقيدة ، والاعتزاز بالشخصية ، وكل ذلك قد كان مهماً يكن الفن الذى يعرضه ومهما يتعثر فى بعض حالات الضعف التى عللناها آنفاً .

قامت هذه الفنون من جانب المدينة بالفخر بالإسلام والرسول والانتصار ، وهجاء قريش بهزيمتها وسوء عقيدتها ومصير قتلها وعاقبتها السيئة فى الدنيا والآخرة ، ثم التحفى بالاستشهاد وانتظار الجنة والاعتزاز بالدين والتأثر للمسلمين . . ومن جانب مكة بهجاء الأنصار والمهاجرين والوعيد بأيام يثأرون فيها لأنفسهم ، ثم بكاء قتلاهم بكاء حاراً يبلغ فيه النساء مبلغاً عظيماً يدعون إلى الانتقام والاشتفاء .

ومع ذلك فهناك فى هذا الجانب ما يدل على أن قريشاً كانوا يلحون على الأنصار بالهجرة دون الرسول والمهاجرين فكانوا يمسونهم مساً خفيفاً أو يرجعون انتصار الإسلام إلى وجودهم فى جيوشه . ومنهم من كان ينكر هذا الصراع بين قريش فى مكة ومهاجريهم مع الرسول إلى المدينة ويدعو إلى السلام والوئام ، فعل ذلك — إن صح ما روى — ضرار بن الخطاب وطالب بن أبى طالب ، وربما كان ذلك نتيجة اختلاط العصبية القبلية بالدعوة الدينية ، وكانت الأنصار تلح من جانبها على قريش بالهجرة وتستل منهم محمداً والمهاجرين إلحاحاً يدل على أن العصبية الجاهلية لم تمح من نفوس الفريقين ، على أن للانتحال دخلاً فيما روى من ذلك وإن لم ينبه عليه ابن هشام دائماً . فهذا ضرار بن الخطاب ينسب إليه فى بدر أنه قال : —

فان تظفروا فى يوم بدر فأنما بأحد أسمى جدكم وهو ظاهر
وبالنفر الأخيار هم أولياؤه يحامون فى اللأواء والموت حاضر
يُعد أبو بكر وحمزة فيهم ويدعى على وسط من أنت ذاكر^(١)

وهذا غريب من ضرار بن الخطاب ، ثم نجد كعب بن مالك يرد عليه محتفياً

بالرسول شامتاً بقريش ذا كراً مصيرهم إلى النار^(١) وضرار هذا يذكّر الحرب —
 في يوم أحد — آسيا ، فلا يلح على قريش بالهجرة وإنما يذكّر هزيمتهم لا غير ،
 هذا إذا كان ماروي له صحيحاً كاملاً^(٢) . وهناك طالب بن أبي طالب في بدر ،
 يمدح الرسول ويبكى مصارع قريش ويتمنى لو اتفقت القبيلة مكيتها ومدنها على
 الأنصار ، وهذا الشعور كان يُرمى به الهاشميون خاصة وبأنهم مع محمد حذّبون
 عليه^(٣) فأقرأ قول طالب هذا : —

فيا أخويننا عبد شمس ونوفلا فدا لكما لاتبعثوا بيننا حربا
 ولا تصبحوا بعد ودّ وألفة أحاديث فيها لكم يشتكى النكبا
 فما إن جئنا في قريش عظيمة سوى أن حمينا خير من وطئ التريا
 فوالله لاتنفك نفسى حزينمة تامل حتى تصدقوا الخرج الضربا^(٤)

فهو محرج بين النزعة القرشية العامة في وجه الأنصار وبين العاطفة الهاشمية
 الخاصة في وجه قريش ، لذلك كان شعره معقد الوضع غير صريح الاتجاه .

ويتصل بذلك انحياز أمية بن أبي الصلت الثقفي إلى قريش يوم بدر فبكى
 قتلهم وأحلافهم بكاء لم يخل من حقد خاص على محمد الذي خص بالرسالة
 دونه ، فقال : —

ألا بكيت على الكرام مـ بنى الكرام أولى المادح
 كبكا الحمام على فرو عـ الأيك في الغصن الجوانح^(٥)
 ورثي زمعة بن الأسود قتلى بنى أسد في هذا اليوم^(٦) .

ولما كان حسان بن ثابت يلح العصبية في شعر قريش ألح عليهم بالهجرة

(١) نفس المرجع ص ١٥ .

(٢) ص ١٤٧ .

(٣) الأغاني ج ٤ ص ١٨٢ .

(٤) سيرة ج ٣ ص ٢٧ .

(٥) ص ٣١ .

(٦) ص ٣٤ .

في أسلوب جاهلي غاظم به حقا قبل أن يسلموا : —

وقد زعمتم بأن تحموا ذماركم وماء بدر زعمتم غير مورود
ثم وردنا ولم نسمع لقولكم حتى شربنا رواء غير تصريد^(١)
ولما علم كعب بن الأشرف اليهودي بمصارع قريش في بدر أسرع إلى مكة
يستحث قريشاً على الأنصار أو على إنقاذ مدينة قومه من محمد وأتباعه ، وقال
شعراً يستفزع مأساة بدر ويأمل أن تنهض قريش بانقاذ يثرب ، منه : —

طحنت رحي بدر لمصرع أهله ولثل بدر تستهل وتدمع
قُتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الملوك تصرع
نُبئت أن الحارث بن هشامهم في الناس بيني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما يحمي على الحسب الكريم الأروع^(٢)

وظاهر أن هذا الشعر نزعة يهودية تجمع بين عناصر الجنس والدين والوطن
وتخشى أن يفعل العرب ببني إسرائيل اليوم ما فعله الرومان من قبل .

(٣) وفي الأغاني^(٣) « كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة رهط
من قريش عبد الله بن الزبيري وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمر
ابن العاص . . فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار : حسان بن ثابت وكعب بن
مالك وعبد الله بن رواحة فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع
والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر . قال :
فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول
عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول
ابن رواحة . »

والذي يعنيننا من هذا النص أن كان لهجاء الأنصار قريشاً مذهباً أحدهما

(١) ص ٢١ .

(٢) ص ٥٥ .

(٣) ج ٤ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

جاهلي قديم يتصل بالأحساب والأنساب والأيام ، يمثله حسان وكعب لا غلظة قريش قبل أن تسلم إذ كان أفقرهم جاهلياً فلما أسلموا لم يروا فيه خطراً لأنه يناقض روح الإسلام الذي اعتنقوه فلا بأس عليهم منه ، والثاني مذهب إسلامي يمثله ابن رواحة وكان يهجوهم بالكفر والإعراض عن سبيل الهداية فما كانوا يبالونه إذ كان ذكراً لما هم عليه وراضون به ، فلما أسلموا وجدوا ماضياً سيئاً مسجلاً عليهم فأنفوا منه وربما أضاعوا شعره .

ونحن وإن كنا نوافق إجمالاً على هذا الكلام فانا نلاحظ عليه (أولاً) أنه وصف غالبى إذ لم يخل شعر حسان وكعب من وصف قريش بالكفر و (ثانياً) أن شعراً كثيراً قد ضاع مما هجيت به قريش لأن ما في أيدينا من شعر حسان وكعب يتصل بأيام الإسلام فقط ثم هو بعد كلام عام و (ثالثاً) أن المعانى الدينية عند حسان وكعب كانت فى الغالب مدحاً فى الإسلام ورسوله وشهادته وجيوشه وكانت عند ابن رواحة كذلك وذكماً فى اليهودية والنصرانية الوثنية القرشية بوجه خاص . أما هجاء قريش فكان أكثره جاهلياً أو على مثاله وكان أقله مهاجمة للرسول ولدينه . ولم يحفظ التاريخ الأدبى من هجائهم للرسول شيئاً أو شيئاً ذابال . وتجد ابن هشام فى أعقاب بعض القصيد يقول وقد تركنا أبياتاً فيها إخفاش ، وغالبها كان موجهاً إلى الرسول .

ونحن نسوق لك الشاهد الآتى لتفهم منه أن الإحن بين المهاجرين والأنصار لم تذهب مطلقاً وإن توارت بعض الشئ وأن حسان بن ثابت لم ينس لقريش وثبيتها وماضيها معه قبل أن تسلم « خرج رجل يقال له جَهْجَاهُ الغِفَارِيُّ بفرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفرس له يسقيهما فأوردهما الماء فورد على الماء فتية من الأنصار فتنازعوا فاقتتلوا فبلغ ذلك حسان ، فقال وهو يريد المهاجرين من القبائل الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسلام : —

أَمْسَى الْخِلَالِيسُ قَدْ عَزَوْا وَقَدْ كَثَرُوا وَابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيْضَةُ الْبَلَدِ
أَمَا قَرِيشٌ فَانِى لَسْتُ تَارِكُهُمْ حَتَّى يُنْيَبُوا مِنَ الْغِيَاتِ بِالرَّشَدِ
وَيَتَرَكُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى بِمَعْزَلَةٍ وَيَسْجُدُوا كُلُّهُمْ لِلوَاحِدِ الصَّمَدِ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا حسان نفست على إسلام قومي^(١) .
ولكن شعر ابن رواحة في أحد وبدر الآخرة ، كان بكاء على حمزة بن
عبد المطلب ووعيداً لقريش قاتليه يوم أحد : —

بكت عيني وحق لها بكائها وما يغني البكاء ولا العويلُ
على أسد الإله غداة قالوا أحزمة ذاكم الرجل القتييل^(٢)
وكان — في بدر الآخرة — سخرية بأبي سفيان وفخراً ببدر الكبرى ،
وذماً لدين المشركين واحتفالاً بالرسول عليه السلام : —

وعدنا أبا سفيان بدرا فلم نجد لميعاده صدقاً وما كان وافيًا
فأقسم لو وافيتننا فلقيتننا لا أثبت ذميا وافقتد المواليا^(٣)
إلى آخر الأبيات . وله شعر في (مؤتة) يدل على روح إسلامي جعل فنه
أقوى وأوضح ، وقد ودع الرسول حين خرج إلى هذه الغزاة : —

فتبت الله ما آتاك من حسن تثبت موسى ونصرا كالذي نصروا
إني تفرست فيك الخير نافلة الله يعلم أني ثابت البصر
أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر
وقال يحرض الناس على القتال : —

جلبنا الخيل من أجاء وفرع تغر من الحشيش لها العكوم
إلى أن يقول : —

فلا وأبي مآب لنأتينها وإن كانت بها عرب وروم^(٤)
الأبيات . وهي وغيرها متصلة ببدء حروب الشام .

(٤) أما عن صياغة هذا الشعر الذي دار حول النهضة الإسلامية ، فقد

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٥٩ .

(٢) سيرة ج ٣ ص ١٧١ .

(٣) ص ٢٢١ .

(٤) سيرة ج ٤ ص ١٦ .

اختلف باختلاف الشعراء الذين أنشأوا هذا الشعر ولا سيما أنهم كانوا جاهليين في فهمهم مختلفي البيئات الشعرية ، ثم اختلفوا في مقدار اتصالهم بالإسلام وتأثرهم به وخضوعهم لحوادثه الجديدة وروحه القويم ، ولكنها كانت على العموم صياغة جاهلية لم يستطع العهد الحديث بحوادثه العظيمة أن يغير منها لأنها ثمرة ملكات عتيقة تم نضجها من قبل ، ولأن تغير ملكات الشعر ومواهبه يسير ببطء بل يتم على يد جيل جديد ، فالأسلوب جاهلي خالص عند بعض الشعراء كالخطيئة والخنساء وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وشعراء مكة وشواعرها أيضاً . وربما كان حسان بن ثابت هو الشاعر الفذ الذي حاول أن يُسلم سريعاً في صياغته وأسلوبه وأن ينسلخ عن موهبته الأصلية فحاول أمراً غير طبعي وسقط بين كرسيين وضعف شعره الاسلامي لما أراد مجاوزة ملكته الناضجة إلى أخرى سطحية لا أصل لها في نفسه . ولا تخدعك سهولة الشعر القرشي فذلك هو الأسلوب الذي كان في الحجاز وهو الذي نزل القرآن قريباً منه ففهمه العرب وظنوا أنهم يقدرّون عليه . وحينما يعود حسان إلى طبعه فيستأنى في عمل الشعر ويذهب مذهبه القديم ويتابع روحه الأصيل تجد شعره جيداً يشبه شعره الجاهلي . ومن ذلك قصيدته في فتح مكة حيث يقول : —

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء
ديار من بني الحسحاس قفر تعفها الروامس والسما
وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء

فيذكر الأماكن الغسانية التي تتصل بحياته القديمة في ظل ملوك الشام ثم يذكر الخمر وآثارها إرضاء لشیطانة الشعرى الأصيل ثم يصل إلى الموضوع فيقول : —

عدمنا خيلنا إن لم تروها تُثير النقع موعدها كدأ
ينازعن الأعنة مُصغيات على أكتافها الأسل الظماء^(١)

أين من هذا قوله في أحد يرد على ابن الزبعرى : —

ذهبت يا ابن الزبعرى وقعة كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتُم ونلننا منكم وكذلك الحرب أحياناً دُول^(١)

بل أين هذا من قول ابن الزبعرى في أحد : —

يا غرابَ البينِ أسمعتَ فقل إنما تنطق شيئاً قد فعل
إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجهٌ وقيل
فسل المهراس من ساكنه بين أقحاف وهم كالحجل
ليت أشيأى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل^(٢)

(٥) على أنه ليس من الطبعي أيضاً أن يسلم هذا الفن السياسي من سمات
الاسلام ، وفيه قيل ولأجله أنشئ سواء في ذلك شعر الأنصار المؤيدين وشعر
قريش المعارضين فاذا كان شداد بن الأسود يقول في الرسول : —

يخبرنا الرسول لسوف نحيا وكيف لقاء أصداء وهام
وسمك اليهودي يقول لما أجلى بنو النضير وقتل كعب بن الأشرف : —
فعل الليلي وصرف الدهور يديل من العادل المنصف^(٣)

سخرية بالرسول ، وبما هو من سمات الاسلام ، كما يرد في شعر المشركين
واليهود فان حسان بن ثابت يقول لأبي سفيان يوازن بينه وبين الرسول : —
أتهجوه ولست له بكفء فشر كما خير كما الفداء
أخذاً من قوله تعالى : « وإنا وإياكم على هدى أو في ضلال مبين » وقوله
في رثاء النبي عليه السلام : —

عزيزٌ عليه أن يحيدوا عن الهدى حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدوا
من قوله تعالى : « عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »

(١) ج ٣ ص ١٤٤ .

(٢) ص ١٤٣ .

(٣) ج ٣ ص ٢٠٨ .

مما يبدو في ناحية الأسلوب . وهناك تأثير معنوي يبدو من الفرق بين قول زهير
ابن أبي سلمى : —

رَأَيْتِ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصَبُّ ثُمَّتْهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فِيهِمْ

الذي يدل على أن الموت عنده مصادفة ، وبين قول حسان : —

لَوْ كُنْتُ أُعْجِبُ مِنْ شَيْءٍ لَأَعْجِبَنِي سَعَى الْفَتَى وَهُوَ مَخْبُوءٌ لَهُ الْقَدَرُ

يسعى الفتى لأمر ليس يدركها فالنفس واحدة والهم منتشر

والمرء ما عاش محدود له أجل لا ينتهى العمر حتى ينتهى الأثر

مما هو إيمان بالقضاء والقدر .

كذلك هناك فرق بين قول طرفة : —

كَرِيمٌ يَرَوِي نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ سَتَعْلَمُ إِنْ مِتْنَا غَدًا أَيُّنَا الصَّدِيقُ

الآيات التي يكفر فيها بالآخرة ويستئيس من الحياة وبين قول بجير

ابن زهير : —

إِلَى اللَّهِ — لَا الْعُزَّى وَلَا اللَّات — وَحْدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النِّجَاءُ وَتَسْلَمُ

لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من النار إلا طاهر القلب مسلم

الذي يؤمن بالآخرة وما يتصل بها من ثواب وعقاب وقد يكون شيء من

الفكرة الأخيرة عند زهير في معلقته ولكنه ليس واضحاً ولا قائماً على عقيدة ثابتة .

(و) وكان للنساء ، كما قلنا ، مشاركة ملحوظة في هذه النهضة الشعرية القائمة

في ظل هذا النظام الجديد ، وكان شعرهن بكاء على القتلى ونوحاً وتحريضاً على

الانتقام واشتفاء حين الظفر بالثارات ، وقد عرف منهن مع قریش هند بنت عتبة

ابن ربيعة ، وقتيلة بنت الحارث ، وصفية بنت مسافر ، ومع الأنصار ميمونة

بنت عبد الله ، وصفية بنت عبد المطلب ، وهند بنت أثاثة ، ونعم امرأة شماس

ابن عثمان الذي قتل يوم أحد ، وأكثر ما شعر النساء إنما كان في بدر وأحد كما

روى ابن هشام في السيرة النبوية ، وهذه هند بنت عتبة بن ربيعة تبكى أباهما

يوم بدر : —

أَعْنِيْ جوداً بدمعٍ سَرَبْ عَلَى خَيْرِ خَنَدَفٍ لَمْ يَنْقَلِبْ
تَدَاعَى لَهُ رَهْطُهُ غُدُوَّةَ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَلَبِ
يُذَيِّقُونَهُ حُرْدَ أَسْيَافِهِمْ يَعْلَمُونَهُ بَعْدَمَا قَدْ عَطَبَ^(١)

فتصور أساها وحسرتها بهذا القول الرقيق والبحر القصير ، وأرق منه قولها
نأحة : —

لِلَّهِ عَيْنًا مَنْ رَأَى هَلْكَاءَ كَهْمِكَ رِجَالِيهِ
يَا رَبُّ بَاكَ لِي غَدَا فِي النَّائِبَاتِ وَبَاكِهِ^(٢)

فلما قتل حمزة في أحد رأت في ذلك تأراً لأبيها فقالت شامته : —

نَحْنُ جَزِينَاكَ يَوْمَ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ بَعْدَ الْحَرْبِ ذَاتُ سَعْرِ
مَا كَانَ عَنْ عُتْبَةَ لِي مِنْ صَبْرِ وَلَا أَخِي وَعَمَّهُ وَبَكَرِي^(٣)

وهذه قتيلة بنت الحارث تبكي أخاها النضر وتعتب على الرسول أن لم يمن
عليه فيطلقه : —

يَا رَاكِبَا إِنِ الْأَثِيلَ مِظْنَةٌ مِنْ صَبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مَوْفَقٌ

الآيات التي منها في خطاب الرسول : —

مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرَبَّمَا مَنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيْظُ الْحَنْقُ
ظَلَّتْ سِيُوفُ بَنِي أَبِيهِ تَنْوِشُهُ لِلَّهِ أَرْحَامُ هُنَاكَ تُشَقِّقُ^(٤)

وسائر شعر النساء في سيرة ابن هشام والطبرى والأغانى وكتاب شواعر
العرب وغيرها من الكتب والدواوين . والذي نلاحظه أن شعر النساء في هذه
الفترة أقل من شعر الرجال وأرق منه ، وكان في الغالب ظاهرة شعورية فردية
تتصل بالأهل الأقربين أكثر من اتصالها بالمذهب العام ، وكانت فيه منافسة

(١) سيرة ج ٣ ص ٤٠ .

(٢) ص ٤١ .

(٣) ص ٩٧ .

(٤) ج ٢ ص ٤٤ .

بين مكة والمدينة أيضاً ، ولعل شوارع قریش كن أقوى فناً لحرق الهزيمة وزوال العز التليد .

(ز) وكان اليهود ذوى مكانة ملحوظة بين العرب شمالى الحجاز لكفائتهم العقلية والمالية وبراعتهم الصناعية وما كان لهم من شمائل حببت إليهم العرب وأنطقهم بمدح هؤلاء الاسرائيليين . وكان اليهود منذ الجاهلية حريصين على منزلتهم هذه . ولما جاء الاسلام جدوا فى المحافظة عليها فكادوا للاسلام وناهضوه وعطف عليهم بعض العرب مسلمين وغير مسلمين حتى أنه لما أجلي بنو النضير إلى خيبر دان لهم أهلها . وتاريخ اليهود فى بلاد العرب منذ نزولهم فى القرن الخامس قبل الميلاد ^(١) كان تاريخ سياسة استعمارية واضحة تعتمد على اللين والموادعة حيناً ، وعلى الحرب حيناً ، وعلى حفظ التوازن بين الأوس والخزرج فى يثرب كثيراً ، على أن تاريخهم الشعرى يصور حياتهم السياسية والاجتماعية إلى درجة ما ، فهذه سارة القرظية ترثى اليهود الذين قتلهم أبو جبيعة الغسانى لتخلص يثرب منهم للأوس والخزرج ^(٢) وكذلك فعل بهم مالك بن العجلان فذلوا وأخذوا يتعززون بالعرب جيرانهم ، وهؤلاء العرب مدحوا أبا جبيعة لما مهد لهم فى المدينة كما تحكى الروايات . وتاريخ السموئل شمالى الجزيرة العربية — بتياء فى حصنه الأبلق — معروف متصل بتاريخ امرئ القيس والغساسنة وله شعر فى بعض هذه الحوادث . وقد تدخل الربيع بن أبى الحقيق فى هذه الملاحاة الشعرية يوم فارغ من أيام الأوس والخزرج ^(٣) وكان أحد الرؤساء فى يوم بُعث حليفاً للخزرج مع قومه وله شعريعاتب قومه والأنصار ^(٤) وهو يدل على حرصه على صالح قومه ومكائهم . أما كعب بن الأشرف فكان فى الجاهلية شاعراً فارساً ناقض حسان

(١) راجع ابن الأثير ج ١ ص ٤٩٢ ومهذب الأغانى ج ١ ص ١٠٩ وتاريخ اليهود فى بلاد العرب .

(٢) مهذب الأغانى ج ١ ص ١٠٨ .

(٣) ابن الأثير ج ١ ص ٥٠٠ .

(٤) مهذب الأغانى ج ١ ص ١١٢ .

ابن ثابت وغيره^(١) ولما كان الاسلام ألّب قريشاً على الرسول وشبّب بنساء المسلمين فقتل في ذلك كما قتل سلام بن أبي الحقيق لتحزيبه الأحزاب ، وفي ذلك قول حسان : —

لله در عصاة لا قيتهم يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم مراحاً كأسد في عرين مغرف
حتى أتوكم في محل بلادكم فسقوكم حثفاً ببيض ذفف
مستنصرين لنصر دين نبيهم مستنصرين لكل أمر مجحف^(٢)

وقال كعب بن مالك في مقتل كعب بن الأشرف . —

لقد خزيت بغدرتها الجبور كذاك الدهر ذو صرف يدور
فرد عليه سمك اليهودي فقال : —

أرقت وضافني هم كبير بليل غيره ليل قصير^(٣)
وهناك شاعر يهودي آخر هو جبل بن جوال الثعلبي بكى النضير وقرينة
فقال : —

ألا ياسعد سعد بني معاذ لما لقيت قريظة والنضير
لعمرك إن سعد بني معاذ غداة تحملوا هو الصبور^(٤)
فرد عليه حسان بن ثابت بقوله : —

تفاقد معشر نصرنا قريشاً وليس لهم ببلدتهم نصير
هم أوتوا الكتاب فضيعوه وهم عُمى من التوراة بور^(٥)
وفي ديوان حسان أن جيلاً أسلم بعد ذلك .

(١) مهذب الأغاني ج ١ ص ١١٢ .

(٢) سيرة ج ٣ ص ٦١ .

(٣) ص ٢٠٩ .

(٤) ص ٢٨٥ .

(٥) ص ٢٨٤ .

ومنذ أخذ الاسلام يجلى اليهود — قريظة والنضير — ظهر على السنة الشعراء ما كان لهم من صلات جاهلية قديمة مع بعض العرب وما كان لهم من منزلة في الحياة الاجتماعية . من ذلك ما قال عباس بن مرداس السلمى يمتدح بنى النضير : —

لو أن أهل الدار لم يتصدَّعوا رأيت خلال الدار مَلهى وملعبا
فانك ، عمرى ، هل أريك طعائنا سلكن على رُكن الشَّطَاةِ فتَيَّابَا
عليهن عَيْن من ظباء تَبَالَة أوانِسُ يُصبين الحليمَ الجَرَّابَا
إذا جاء باغى الخير قَلَمَن فُجَاءَة له بوجوه كالدنانير : مَرَحِبَا
وأهلا فلا ممنوع خير طلبته ولا أنت تحشى عندنا أن تُؤَنَّبَا
فلا تحسبني كنت مولى ابن مشكم سلامٍ ولا مولى حَيٍّ بن أحطبا (١)

فأجابه خَوَّاتُ بن جبير أخو بنى عمرو بن عوف ، فقال : —

تَبَكَّى على قتلى يهود وقد ترى من الشجوة لو تبكى أحبَّ وأقربا (٢)
فرد عليه عباس بن مرداس بقوله : —

هجوتَ صريح الكاهنين وفيكم لهم نِعَم كانت من الدهر تُرْتَبَا
أولئك أخرى لو بكيت عليهم وقومك لو أدوا من الحق واجبا (٣)
فرد عليه كعب بن مالك أو عبد الله بن رواحة فقال : —

لعمري لقد حكت رحى الحرب بعدما أطارت لؤيا قبلُ شرقا ومغربا
بقية آل الكاهنين وعزها فعاد ذليلا بعدما كان أغلبا (٤)

فصورة اليهود في شعر عباس بن مرداس جميلة كريمة قوية تدل على مكانة هؤلاء في بلاد العرب قديماً ، وبخاصة إذا لحظناها في مثل قول كعب بن الأشرف : —

(١) ص ٢١١ .

(٢) ص ٢١٢ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) نفس المرجع .

رُبَّ خَالٍ لِي لَوْ أَبْصَرْتَهُ سَبَطَ الْمِشْيَةَ أَبَاءَ أَنْفٍ
لَيْنَ الْجَانِبِ فِي أَقْرَبِهِ وَعَلَى الْأَعْدَاءِ سَمَ كَالزَّعْفِ
وَلَنَا بَرٌّ رِوَاءَ جَحَّةٍ مَنْ يَرِدُهَا بَانَاءُ يَغْتَرِفُ
وَنَخِيلَ فِي قَلَاعِ جَحَّةٍ تَمْزِجُ التَّمْرَ كَأَمْثَالِ الْأَكْفِ
وَحَرِيرٍ فِي مَحَالِ خَلَّةٍ آخِرَ اللَّيْلِ أَهَازِيحُ بُدْفٍ (١)

وفي قول أبي سفيان يمدح سلام بن مشكم من زعماء اليهود بعد ما نزل به
فأكرمه : —

سَقَانِي فِرَوَانِي كُفَيْتًا مُدَامَةً عَلَى ظَمَأٍ مَنِي سَلَامِ بْنِ مِشْكَمٍ
تَخِيرْتُهُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَاحِدًا سَوَاهِمَ فَلَمْ أُغْبِنَ وَلَمْ أَتَدْمِمْ (٢)
الآبيات .

وقال خفاف بن ندبة في رثاء حضير الكاتب وكان نديمه وصديقه : —
لَوْ أَنَّ الْمَنَايَا حُدْنَ عَنْ ذِي مِهَابَةٍ لِهِنَّ حَضِيرًا يَوْمَ أَغْلَقَ دَائِمًا (٣)
وقال في ذلك : —

أَتَانِي حَدِيثٌ فَكَذَبْتُهُ وَقِيلَ خَلِيلُكَ فِي الْمَرَمَسِ (٤)
الآبيات .

وظاهر أن حياة اليهود آخر الجاهلية وصدر الاسلام أصيبت باضطراب كما
يبدو ذلك في شعر الربيع بن أبي الحقيق يسخط على النضير وقرينة لقسوتهم
على بني قينقاع بسبب انضمامهم إلى الخزرج عوناً لهم على الأوس يوم بُعث، قال : —
سَمَّمْتُ وَأَمْسَيْتُ رَهْنُ الْفَرَا شٍ مِنْ جَرَمِ قَوْمِي وَمِنْ مَغْرَمِ
وَمِنْ سَفْهِ الرَّأْيِ بَعْدَ النُّهْيِ وَعَيْبِ الرِّشَادِ وَلَمْ يَفْهَمْ (٥)

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٣٢ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٨ .

(٣) الأغاني ج ٥ ص ١٥٤ — ١٥٩ .

(٤) مذهب الأغاني ج ١ ص ١١٢ .

(٥) تاريخ اليهود ص ٦٩ .

ومن قوله بعد مقتل كعب بن الأشرف : —

ألا يا لقومي لا أرى النجم طالعا ولا الشمس إلا حاجبي يميني
معذبتى خلف القفا بعمودها فجلُّ نكيري أن أقول ذريتي^(١)

وجملة القول أن شعر اليهود في هذا الجانب كان في سبيل كيانهم القومي والديني والاقتصادي ، وكانوا يقولون الشعر حماسة وفخراً وبكاء على مجدهم الذي أخذ يزول ودولتهم التي زلزلت ، نعم لم نر فيما قرأنا من شعرهم هجاء صريحاً للرسول عليه السلام ، فرجما ضاع مع غيره ، ولكنهم كانوا على الرسول .

(ح) وآخر ما نذكر من شعر السيرة ذلك القسم الذي قيل في السنة التاسعة للهجرة وهي سنة الوفود . ونشير قبلاً إلى قصيدة كعب بن زهير — بانث سعاد — فإن كعباً لما مدح الرسول وخص معه قریشاً غضبت الأنصار فعاد كعب ومدح هؤلاء بقصيدة أخرى ترضية لهم ، وهذا موقف يجمع بين آثار العصبية القديمة وسمات الوحدة الإسلامية الحديثة . ثم أكتفى بالإشارة إلى وفد تميم — والوفود كما تعلم هي أطراف البلاد العربية تلتئم مع أصولها وتنضوي تحت هذه الراية الإسلامية العامة ، فشعر الوفود كان في سبيل الدولة الجديدة أيضاً — ويعيننا هنا أن نرى في هذا المثال صراعاً بين الجاهلية الخشنة ، وبين الإسلام السمح الكريم ، فاذا وازنت بين الشعر والنثر التيممي وبين الإسلام شعرت بروحين متجافيتين وحسبك أن أورد لك مطلع القصيدتين ، للزبرقان بن بدر شاعر تميم ، وحسان شاعر الرسول لتدرك بعدما بين الحالين ، قال الزبرقان : —

نحنُ الملوك فلاحى يُعادِلنا منا الملوك وفيما تُنصب البيع

وقال حسان : —

إن الذوائبَ من فير وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تُتبع^(٢)

ذلك شعر البداوة الزائلة وهذا شعر الدولة القائمة .

(١) نفس المرجع ص ١٣٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٠٨ .

(ط) وخلاصة القول أن موت الرسول عليه السلام كان خاتمة لتكوين هذه الوحدة العربية التي عُدت أساساً للنظام الجديد والامبراطورية الاسلامية ، وكان الشعر الذى قيل فى سبيل هذه الغاية شعراً سياسياً واجتماعياً ودينياً ، وما دامت هذه الجوانب هى مقومات الدولة الاسلامية فى وحدتها ، ودعوتها ، ونظامها ، وقوتها ، وفتوحها ، وسطوتها ، فهو شعر سياسى أصيل أدى الواجب عليه ، وصور هذه النهضة المباركة ، فلننظر فيما بعد ذلك .

— ٤ —

بعد وفاة الرسول مباشرة جدّت مسألة سياسية خطيرة هى مسألة الخلافة أو نظام الحكومة الاسلامية : أين تكون ؟ وكيف تكون ؟ فقد تطلع إليها الأنصار بحجة أنهم آووا الرسول ونصروه حين خذلته قريش ، وطمع فيها المهاجرون أو القرشيون لأنهم قوم الرسول وآله الأذنون ، ثم لحظها الأمويون وحاولوا أن يدفعوا إليها الهاشميين كأنها ميراث يورث لينحوا عنها أبا بكر وسواه . ومن المعلوم بعد ذلك أن نظام الاستخلاف لم يكن مقررّاً ولا دقيقاً فقد بويع أبو بكر وسط ملاحاة السقيفة ، ثم استخلف بعده عمر بن الخطاب ، وهذا جعلها دائرة فى ستة أشخاص ، ثم كانتبيعة على مبتورة أعقبها أحداث نقلت الملك إلى الأمويين .

ونشير هنا إلى بعض الشواهد التى عرض فيها الشعر لهذه المسألة السياسية إذ كانت أول موقف من نوعه بين العرب أو أمام الدولة الناشئة .

(١) لما بايع بشير بن سعد أبا بكر وازدحم الناس عليه يبائعونه مرأبو سفيان ابن حرب بالبيت الذى فيه على بن أبى طالب فوقف عليه وأنشد : —

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم	ولا سيما تيم بن مرة أو عدى
فما الأمر إلا فيكم وإليكم	وليس لها إلا أبو حسن على
أبا حسن فاشدد بها كف حازم	فانك بالأمر الذى يرتجى ملى

فقال على لأبي سفيان إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه ، وكذلك رفض العباس
ابن عبد المطلب ^(١) .

(٢) وقال بعض ولد أبي لهب بن عبد المطلب يدعوا لعلى وينتصر له : —

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبي حسن
أليس أول من صلى لِقِبَلَتِكُمْ وأعلم الناس بالقرآن والسنن
الآيات ^(٢)

(٣) ولما تم الأمر لأبي بكر قال أبو عبرة القرشى : —

شكراً لمن هو بالثناء حقيق ذهب اللجاج وبويع الصديق
من بعد ما زلت بسعد نعلهُ ورجا رجاء دونه العيوق
إلى أن يقول : —

إن الخلافة في قريش مالكم فيها ورب محمد معروق ^(٣)

(٤) ولم يسكت الأنصار فذكروا مواقفهم في نصرة الدين وأيامهم على
قريش حتى بدت العصبية واضحة وكادت تبعث حرباً ، فهذا حسان بن ثابت ^(٤)
يقول من قصيدة : —

نصرنا وآوينا النبي ولم نحف صروف الليالى والبلاء على رجل
بذلنا لهم أنصاف مال أ كفنا كقسمة أيسار الجزور من الفضل
إلى أن يقول : —

فكان جزاء الفضل منا عليهم جهالتهم حقاً وما ذاك بالعدل
فغضبت قريش وأجابه ابن أبي عزة شاعرهم فقال : —

معشر الأنصار خافوا ربكم واستجبروا الله من شر الفتن

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٦ ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) راجع ديوان حسان ص ٢٧٢ و ٣٢٨ و ٣٨٩ .

إننى أرهب حرباً لاقحاً يشرق الموضع فيها باللبن^(١)
 (٥) وطال اللجاج بين قريش والأنصار حتى أن عمرو بن العاص لما قدم
 من سفره وسمع حديث السقيفة قال : —

ألا قُلْ لأوس إذا جئتمَا وقل إذا جئتما للخزرج
 تمنيتم الملك في يثرب فأنزلت القدر لم تنضج

الآيات . فرد عليه مالك بن العجلان شاعر الأنصار بقوله : —
 فقل لقريش نحن أصحاب مكة ويوم حنين والفوارس في بدر
 الآيات^(٢)

(٦) وبعد لأى وطول جدال قال خزيمة بن ثابت الأنصارى يخاطب
 قريشاً : —

يال قريش أصلحوا ذات بيننا وبينكم قد طال حبل التماحك
 فلا خير فيكم بعدنا فارقوا بنا ولا خير فينا بعد فهر بن مالك
 كلانا على الأعداء كف طويلة إذا كان يوم فيه حب الحواريك
 فلا تذكروا ما كان منا ومنكم ففى ذكر ما قد كان مشى التشارك^(٣)

(٧) وقد بقيت هذه القضية حتى العصور المتأخرة ، فقد روى أن أبا القاسم
 على بن الحسين المغربى الأزدي كان أيام شرف الدولة أبى على بن بويه سلطان
 الحضرة وأمير الأمراء بها والقادر خليفة ، وكان أبو القاسم يتعصب لقحطان على
 عدنان ، وقد قال ينتصر للأنصار على قريش فى مسألة الخلافة : —

نحن الذين بنا استجار فلم يضع فينا وأصبح فى أعز جوار
 بسيوفنا أمست سخينة بُرَّكا فى بدرها كمنحائر الجزار

وبعد ذكر وقائع شتى للرسول والأنصار على قريش قال : —
 أفنحن أولى بالخلافة بعده أم عبد تيم حاملو الأوزار

(١) شرح نهج البلاغة ص ١٠ .

(٢) شرح نهج البلاغة ص ١٢ ج ٦ .

(٣) نفس المرجع ص ١٤ ج ٦ .

ما الأمر إلا أمرنا وبسعدنا زفت عروس الملك غير نوار
القصيدة (١)

— ٥ —

لم يفرغ أبو بكر وصحبه من مسألة الخلافة حتى واجه مشكلات المرتدين ، وكانت الردة نوعاً من الانتكاس الدينى والسياسى تورط فيه العرب قبيل وفاة الرسول وفى عهد أبى بكر الصديق تحللاً من شعائر الدين ، وتقاليده الحكومة القرشية ، وخروجاً على هذا النظام السياسى الذى يخضع البدو لسلطان المدينة أولقرش ثم تعلقاً بالحرية الجاهلية القائمة على السفه والشراب وطمعاً من الرؤساء فى السيادة التى تمتعهم بسلطان ما فى بعض نواحي الجزيرة العربية . وقد اتخذوا لذلك وسائل شتى كالتمبؤ ، والثورة ، ومنع الزكاة ، وطرده لولاة الحكومة ، ومهاجمة المدينة نفسها . وكان البلاء عاماً فلم يبق على الإسلام إلا طوائف قليلة فى بعض القبائل العربية ، وكانت الحال تدعو إلى اليأس لولا عزيمة أبى بكر ، فقد بعث الجيوش لقمع هذه الثورات وأبلى خالد بن الوليد فى حروب الردة بلاء عظيماً حتى دانت العرب ثانية لحكم الإسلام . وكان أبو بكر ينظر إلى الدولة الإسلامية بعينين ساهرتين : إحداها إلى الحياة الداخلية وكيانها السياسى والاجتماعى ، والثانية إلى موقفها من الروم والفرس وكانت كلتاها تترصد هذه الدولة الجديدة التى لم تكن عليهما خطراً طارئاً ، فقد تكون منافساً شديداً .

وكان الشعر يساير هذا النشاط السياسى ويسجله دالاً على روحه ومغزاه ، ونشير هنا إلى شيء قليل منه .

(١) اجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة الأسدى وقدموا على المدينة يسألون أبا بكر أن يحط عنهم الزكاة فأبى فقال الحطيمة شعراً منه : —
أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبى بكر

أيورثنا بكرةً إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهللا رددتم وفدنا بزمانه وهلا خشيتهم حسي راعية البكر
وإن التي سألوكم فمنعتم لكالتر أو أحلى إلى من التمر^(١)
هذا الشعر إنكار لبعض شعائر الدين أو لأهمها اجتماعياً واقتصادياً وثورة
على هذا النظام المتتابعى فى حكام المسلمين وتهديد بالحرب الطاحنة وميل إلى
سفه الجاهلية .

(٢) وقال أبو شجرة بن عبد العزى حين ارتد عن الإسلام ، وهو ابن
الخنساء ، من بنى سليم بن منصور : —

سل الناس عنا كل يوم كرية إذا ما التقينا دارعين وحسراً
ألسنا نعاطى ذا الطماح لجاحه ونظعن فى الهيجا إذا الموت أقفرا
وعارضة شهباء تخطر بالقنا ترى البلق فى حافاتها والسنورا
فرويت ربحى من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أعمر^(٢)
ثم أسلم أبو شجرة ثانياً ، فلما كان زمن عمر أتاه يأخذ عطاءه فعرفه وضربه
بالدرة ومنعه عطاءه فعاد إلى أرض بنى سليم وقال : —

ضنّ علينا أبو حفص بنائله وكل مختبط يوماً له ورق
ما زال يرهقنى حتى خذيت له وحال من دون بعض الرغبة الشفق
لما رهبت أبا حفص وشروطه والشيخ يفرع أحياناً فينحمق^(٣)

فكان ارتداد أبى شجرة مشاركة فى الثورة على الدولة الجديدة وكان غضب
عمر فى سبيل هذه الدولة ، حتى منعه العطاء من بيت مال المسلمين بعد إسلامه
لذلك ، وحتى وقر الشر فى نفس أبى شجرة ولولا ما هاب عمر وشروطه لركب
متن الحمق فقتل الخليفة أو عاد مرتداً .

(١) تاريخ الطبرى ج ١ ص ١٨٧٤ طبع أوربه منسوبة فيه إلى الخطيل أخى الخطيئة .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٠٥ .

(٣) المرجع السابق .

(٣) وقال القعقاع بن عمرو في أيام الحيرة زمن أبي بكر : —

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة وأخرى بأثباج النجاف الكوانف
فنحن وطئنا بالكواظم هُرْمُزًا وبالشني قرني قارنٍ بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت على الحيرة الروحاء إحدى المصارف
الآيات (١)

(٤) وكان ممن طلب الصلح من خالد بن الوليد في حربه بالعراق عمرو

ابن عبد المسيح بن قيس بن حيان بن الحارث — وهو بقميلة — فصالحهم على
الجزية فقال ابن بقميلة في ذلك : —

أبعد المنذرين أرى سواما تُروِّحُ بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى قلوصلًا بين مَرَّةٍ والحفير
فصيرنا بعد هُلك أبي قُبَيْسٍ كجرب المعز في اليوم المطير
تقسمننا القبائل من معدٍّ علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يُرام لنا حريم فنحن كضرة الضرع الفخور
كذاك الدهر دولته سجال فيوم من مساء أو سرور (٢)

هذا شعريكي عهداً مضى في ظل المناذرة ، وينكر عهداً حاضراً في ظل
الخلافة الإسلامية إذ يحتكم فيه الأعراب ويفرضون عليهم الجزى ، كما أن
ماقبله فخر بهذا العهد الجديد وشماته بالفرس الذاهبين ، فهما تياران متقابلان .

(٥) وكانت جيوش المسلمين منذ أن كسرت شوكة المرتدين مهيبة

الجانب مخوفة ولا سيما حين أخذت تمحو آثار الردة وتأخذ في الفتوح ، فقد كان
خالد بن الوليد سائراً من الحيرة مدداً لأهل الشام ، فمر بطريقه مفوّراً من
قراقر — وهو ماء لكلب — إلى سوّى ، وأغار على أهله وهم (بَهْرَاء) قبيل
الصبح ، وناس منهم يشربون الخمر في جفنة اجتمعوا عليها ومغنّهم يقول : —

(١) نفس المرجع ص ٢٠٤٦ .

(٢) ص ٢٠٤٠ .

ألا عللاني قبل جيش أبي بكر
ألا عللاني بالزجاج وكررا
ألا عللاني من سلافة قهوة
أظن خيول المسلمين وخالدا
لعل مناينا قريبا وما ندرى
على كميت اللون صافية تجري
تسلى هموم النفس من جيد الخمر
ستطرقكم قبل الصباح من البشر
فهل لكم في السير قبل قتالهم
وقبل خروج المعصرات من الخدر
فقتل مغنيهم تحت الغارة وسال دمه في تلك الجفنة .

* * *

وننتهي من هذا الفصل إلى توحيد الأمة العربية وتكوينها شعباً متحداً له
نظام واحد ، وحاكم واحد ، ودين واحد ، وقانون عام يظله بعدما كان قبل
إمارات وقبائل ، وقد أعده هذا النظام لينهض بالفتوح في الأرض ، ويؤسس
إمبراطورية إسلامية ، وينشر تعاليم الإسلام وشعائره ، ويتخذ له سياسة خارجية
واسعة المدى .

وقد رأينا الشعر يساير هذا التكوين الدولي ، ومهما يكن فيه من وضع
فإن فيه هذا المنهاج السياسي وروحه الذي فصلناه .

الفصل الثاني

في ظل الدولة الإسلامية

- ١ -

رأينا في الفصل السابق أن عهد الرسول عليه السلام وعهد أبي بكر الصديق كان عهد الوحدة العربية وتحويل هذه القبائل البدوية المتنافرة أمة متحدة ، تخضع لنظام واحد ، وتدين بدين واحد ، وتعمل لغاية واحدة لعلها بذلك تستطيع تحقيق الرسالة الإسلامية العامة بنشر الدين الحنيف وإبلاغه أقطار العالم .

وقد بدأ ذلك ببدء الدعوة وأخذ ينمو بطيئاً في مكة وأسرع منه في المدينة معتمداً على الإقناع كثيراً ، وعلى السيف حين يصادف الجهالة الجاهلية والسفاهة العنيدة حتى كادت تستقر هذه الوحدة العربية آخر حياة الرسول عليه السلام وتسير الأمور في مجراها مطردة إلى غايتها لولا هذه الردة المشؤمة التي شغلت معظم خلافة أبي بكر ، وحملته على أن يقف جهوده الأولى على إخضاع هؤلاء الثائرين ، وردهم إلى حظيرة الإسلام ، ليوطد الوحدة العربية من جديد ، لذلك كان عمل الرسول وأبي بكر في الغالب ، عملاً داخلياً في سبيل الأمة العربية أو هو عمل السياسة الداخلية لتنظيم هذا الشعب وتأسيس حكومته الجديدة العامة وإن بدأت أعلام السياسة الخارجية في حياة الرسول عليه السلام كما يلي .

وكان الشعر الذي قيل في سبيل هذه الأمة شعراً سياسياً داخلياً إذ كان يقال في هداية العرب أولاً ، ولأجل وحدتهم ، وفي الصراع بين ذلك الماضي المضطرب وبين المستقبل المذهب المنتظم ، صراع كان بين القبيلة الجاهلية ، والأمة العربية الإسلامية ، لَمَّا يتصل في عهده الأول بالفرس والروم والترك وسواهم ، أما اليهود الذين اشتركوا في هذه المعركة الأولى فكانوا إما عرباً

متهودين وإما قلة يهودية عاشت بين العرب ، ولم تؤثر في كيانهم العام ، وكانت أشبه بالشيء المنكر الغريب الذي لا يصح تداخله في أثناء هذه الأمة العدنانية أو العربية .

أما عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، فقد كان له طابعه الخاص ، هو طابع الفتوح الخارجية والضرب في الأرض لتكوين الإمبراطورية الإسلامية التي أخذ سلطانها ينتشر ، وييسط ظله على العالم الشرق والغرب ، ويحتل في فارس والروم والأتراك وإفريقية والأندلس ، ويكون لهذه الدولة سياسة خارجية عملية بعد أن كانت من قبل داخلية فقط أو خارجية جزئية لا خطر لها ، قبل عهد عمر بن الخطاب .

كان عمر بن الخطاب أعرف الناس بطبيعة الأمة العربية ، وأقدرهم على أخذها بالسياسة الحكيمة التي جعلت منه مثال الحاكم المسلم ، فقد تحرى العدالة المطلقة التي لا تعرف الهوادة في تنفيذ شعائر الإسلام وقوانينه ، واتخذ شعاره الديموقراطية الحازمة والرجوع إلى الحق إذا جاوزه ، لا يقبل الدنية في دينه ، ولا القصور دون غاية في إعلاء شأنه وشأن المسلمين الذين كان لهم أباً عطوفاً ، وراعياً حازماً حتى أرضاهم بسلوكه وأعجز من بعده أن يتمثله فعاتت حكومته في تاريخ الإسلام فردوسه المفقود ، ونطق الشعر بذلك قوياً مخلصاً في حياته وبعد مماته إلى يومنا هذا .

كذلك شغل العرب بالفتوح الخارجية في فارس والروم استغلالاً لنشاطهم الحربي منذ الجاهلية وأيام الرسول وخليفته الأول ، وإشغالا لهم أن يفرغوا لأنفسهم فيعود بأسهم بينهم شديداً ، وتحقيقاً لهدف الإسلام ورسائلته العامة إلى الناس أجمعين ، ثم منع رءوسهم أن يتركوا المدينة إلا للجهاد في سبيل الله مخافة أن يكونوا لهم عصبيات إسلامية في أقطار الدولة فتتشقق وحدتها العزيزة وتتداعى أركانها وهي قريبة العهد بالتنازع الجاهلي وحميته الحقاء^(١) .

وجاء عثمان فكان لين العريكة ، واسع الحلم ، حتى اغتبط بعض الناس

بحكمه لما وجدوا فيه من تيسير لم يجدوه عند عمر فخرج كبار الصحابة إلى جهات الدولة يملكون فيها الضياع ويثرون ويجمعون حولهم الرعية ، وترك للأغنياء أمر الزكاة يخرجونها حسب تقديرهم ، وأخذ الترف يدب بين الناس . ثم كان عثمان في رأى الهاشمين ظاهرة أموية تسترد مجدهم القديم ، وتنافس فيه آل الرسول الأدين ، على أن الناس أخذوه بأمور كإقطاع القطائع ، وحماية الحمى ، وإيثار أقربائه بالوظائف إلى نحو ذلك مما أثار عليه الرعية فقتلته ^(١) .

ومع ذلك فقد استمرت الفتوح في عهده شرقاً وغرباً إذ كان ذلك امتداداً لما سبقه من فتوح لتوسيع البلاد الاسلامية ونشر الدعوة الدينية كما يأتى بيانه .

معنى ذلك أن الدولة الاسلامية في عهد عمر وعثمان صلت لها سياستان داخلية تشرف على شئون الرعية وتنظمها وتسلك في سبيلها ما تراه صالحاً حسب اجتهادها ، وخارجية تقوم على الفتوح وما تستتبعها من غزو وصلح ومعاهدات ، وتعمير واستثمار ، وتنظيم وتعليم ، واتصال بشعوب وممالك ، وتسيير للجيش الفاتحة ورسم خطط قتالها ونحو ذلك مما يتصل بالعالم الخارجى ^(٢) .

وإذا كان الشعر قد سجل لهذه الدولة نشاطها السياسى الداخلى والخارجى فانا نلاحظ هنا أن الشعراء الذين نهضوا بذلك في هذه الفترة وفيما يليها لم يكونوا مشهورين غالباً ، لأن فحول المخضرمين كانوا قد ضعفوا أو انصرفوا عن الشعر أو كانت مواقفهم السياسية مضطربة كحسان والحطيئة ولبيد والنابعة الجعدى ، أما رجال الشعر السياسى الاسلاميون فكانوا في دور الطفولة أو التكوين الفنى لما يتم لهم نضج فشغل هذه الفترة جماعة من المقلين أو المغمورين استطاعوا أن يرسموا لنا بمقطوعاتهم صورة سياسية ترضى مؤرخ الأدب إلى درجة ما .

وإذا رحنا نتبين سياسة عمر وعثمان الداخلية من شعر هذا العهد ظفرنا بقدر

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٣٥ طبعة الرجا .

(٢) راجع الوثائق السياسية ص ٢٢٨ وما بعدها .

يكفى موزع بين دواوين الشعراء وكتب التاريخ العام والخاص ومراجع الأدب الكبيرة وحسبنا هنا أن نشير إلى شيء منها ليكون مثالا لغيره ، ثم نترك الشواهد وما تدل عليه من سلوك هذين الحاكمين دون الاطالة في التعليق .

(١) وربما كان من خير ما يصور حكومة عمر وسياسته الرعية قول حسان

في رثائه : —

وفجَّعنا فيروز لادر دره بأبيض يتلو المحكمات مُنيب
رءوف على الأدنى غليظ على العدا أخى ثقة في النائبات نجيب
متى ما يُقْل لا يكذبُ القول فعله سريع إلى الخيرات غير قطوب^(١)

وأما مكانته في خلافة المسلمين ، وما بلغ بها من الغايات التي أعجزت سواه فقد يدل عليها ما قيل في رثائه مما ينسب إلى الجن ولعله للشماخ بنِ ضرار أو لجزء أخيه : —

أبعدَ قتيلٍ بالمدينة أظلمت له الأرض تهتزُّ العِضاه بأسوق
جزى الله خيراً من إمام وباركت يدُ الله في ذاك الأديم الممزق
فمن يسعَ أو يركب جناحي نعمة ليُدركَ ما حاولت بالأمسِ يُسبق
الآيات^(٢)

(٢) وكان عمر حريصاً على الآداب الاسلامية كارهاً للتقاليد الجاهلية من عصبية وأهاج وصياح بالشعر في الغزل أو الحمريات ونحوها لا يلبس في القسوة على منتهجليها مهما تكن منزلتهم ، فقد حبس الخطيئة لهجائه الزبرقان بن بدر ، فاستعطفه الشاعر أول الأمر بأبيات أولها : —

أعوذُ بك إني امرؤ سقتني الأعادي إليك السجالات
فلم يلتفت عمر إليه حتى قال له : —

ماذا تقول لأفراح بذي مَرخ زُغبِ الحواصل لا ماء ولا شجر

(١) الديوان ص ٣٨ .

(٢) الأغاني ج ٩ ، ص ١٥٩ طبعة دار الكتب .

أَلْقَيْتُ كَاسَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَافْغَرِ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ
أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَى إِلَيْكَ مَقَالِيدَ النُّهْيِ الْبَشَرُ
لَمْ يُوْثِرْكَ بِهَا إِذْ قَدَّمُوكَ لَهَا لَكِنْ لَأَنْفُسَهُمْ كَانَتْ بِكَ الْإِثْرُ
ثُمَّ نَهَاهُ عَنِ الْمُهْجَاءِ وَاشْتَرَى مِنْهُ أَعْرَاضَ الْمُسْلِمِينَ بِثَلَاثَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ فَقَالَ
الْحَطِيبَةُ فِي ذَلِكَ : —

وَأَخَذَتْ أَطْرَافَ الْكَلَامِ فَلَمْ تَدَعْ شَتْمًا يَضُرُّ وَلَا مَدِيحًا يَنْفَعُ
وَحَمِيَّتِي عَرَضَ اللَّئِيمِ فَلَمْ يَخْفَ ذُمِّي وَأَصْبَحَ آمِنًا لَا يَفْزَعُ (١)
وَلَمَّا قَالَ أَبُو مِجْنَةَ التَّقْفِي : —

إِذَا مِتُّ فَادْفَنْنِي إِلَى أَصْلِ كَرَمَةٍ تُرَوَّى عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عِرْقُهَا
وَلَا تَدْفِنْنِي فِي الْفَلَاةِ فَانِي أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَلَّا أَذُوقَهَا (٢)

جَلَدَهُ عُمَرُ وَنَفَاهُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَلَكِنَّهُ فَرَّ إِلَى الْعِرَاقِ تَائِبًا وَأَبْلَى فِي الْفَتْوحِ
الْإِسْلَامِيَةِ هُنَاكَ . وَمِنْ حَدِيثِ لُبَيْدِ بْنِ رَبِيعَةَ أَنَّ عُمَرَ أَرْسَلَ إِلَى عَامِلِهِ عَلَى الْبَصْرَةِ
أَنْ سَلِ لُبَيْدًا وَالْأَغْلَبَ الْعِجْلِيَّ مَا أَحْدَثَا فِي الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ الْأَغْلَبُ : —

أَرْجَزًا سَأَلْتُ أُمَّ قَصِيدٍ فَقَدْ سَأَلْتُ هَيْئًا مَوْجُودًا
وَقَالَ لُبَيْدٌ قَدْ أَبْدَلَنِي اللَّهُ بِالشَّعْرِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ فَزَادَ عُمَرُ فِي عَطَائِهِ
فَبَلَغَ بِهِ أَلْفَيْنِ (٣) .

وَلَمَّا كَانَ يَطُوفُ إِحْدَى اللَّيَالِي بِسَكَّةٍ مِنْ سَكِّ الْمَدِينَةِ سَمِعَ امْرَأَةً تَهْتَفُ فِي
خَدْرِهَا وَتَقُولُ : —

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَمْرٍ فَأَشْرِبَهَا أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَى نَصْرِ بْنِ حِجَّاجٍ
إِلَى فَتَى مَاجِدِ الْأَعْرَاقِ مُقْتَبِلٍ سَهْلَ الْحِمَا كَرِيمٍ غَيْرِ مِلْجَاجٍ
تَنْمِيهِ آبَاءٍ صَدَقَ حِينَ تَنْسِبُهُ أَخُو قَذَاحٍ عَنِ الْمَعْرُوفِ فَرَاجٍ

(١) الْأَغَانِي ج ٢ ص ١٨٥ طبعه دار الكتب .

(٢) الْأَغَانِي ج ٢١ ص ٢١٥ طبعه ليدن .

(٣) الْأَغَانِي ج ١٤ ص ٩٧ .

فأحضر عمر نصرًا هذا وقال له — لما لحظ من فتنته النساء — والله لا تساكنتي ببيلة أنا بها وسَّيره إلى البصرة^(١) .

وكان عمر قد استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على ميسان ، وكان شاعرا ، فقال : —

مَنْ مَبْلَغُ الْحَسَنَاءِ أَنْ حَلِيلَهَا بِمِيسَانَ يُسْقَى فِي زَجَاجٍ وَحْتَمِ
إِذَا شَتَّتْ غَنْتِي دِهَاقِينَ قَرْيَةٍ وَصَنَّاجَةٌ تَجْثُو عَلَى كُلِّ مَنْسَمِ
فَإِنْ كُنْتُ نَدْمَانِي فَبَالًا كَبِرَاسِقِي وَلَا تَسْقَى بِالْأَصْغَرِ الْمُتَشَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ تَفَادُؤُنَا فِي الْجَوْسِقِ الْمُتَهْدِمِ
فلما بلغ عمر قوله ، قال : نعم والله إنه ليسوءني ، من لقيه فليخبره أني قد عزلته ، فقدم على عمر فقال ، والله ما صنعت شيئا مما قلت ، ولكن كنت امرأ شاعرا وجدت فضلا من قول فقلت فيه الشعر ، فقال عمر والله لا تعمل لي على عمل ما بقيت وقد قلت ما قلت^(٢) .

(٣) بينما عمر جالس إذ أقبل رجل أعرج يقود ناقة تظلع حتى وقف عليه فقال : —

إِنَّكَ مُسْتَرْعَى وَإِنَّا رَعِيَّةٌ وَإِنَّكَ مَدْعُوٌّ بِسِيَاكِ يَا عُمَرُ
إِذَا يَوْمٌ شَرُّ شَرِّهِ لَشِرَارِهِ فَقَدْ حَمَلْتِكَ الْيَوْمَ أَحْسَابَهَا مُضَرُّ
فقال لا حول ولا قوة إلا بالله وشكا الرجل ظلع ناقته فقبض عمر الناقة وحمله على جمل أحمر وزودّه وانصرف ، ثم خرج عمر في عقب ذلك حاجا فبينما هو يسير إذ لحق راكبا يقول : —

مَا سَأَسْنَا مِثْلَكَ يَا بَنَ الْخَطَابِ أَبْرُ بِالْأَقْصَى وَلَا بِأَصْحَابِ
بَعْدَ النَّبِيِّ صَاحِبِ الْكِتَابِ

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٦ .

فنخسه عمر بمخصرة معه وقال : فأين أبو بكر ؟ !^(١)

* * *

(١) كذلك نرى في الشعر سياسة عثمان اللينة اليسيرة التي شابها عصبية واضطراب وكانت دون سياسة عمر حزمًا وصرامة حتى عادت منكرة عند بعض الطوائف الإسلامية التي رأت في عمر مثال الحاكم المسلم الذي لم يجرؤ عليه أحد جرأته على عثمان . فقد كان الوليد بن عقبة ، وإلى عثمان على الكوفة ، يشرب مع ندمائه ومغنيه حتى الصباح وصلى بالناس الصبح أربعًا وأفسد الصلاة ، وقد دخل قصره يترنح ثملًا ويتمثل بأبيات لتأبط شرًا : —

ولستُ بعيداً عن مُدام وقينة ولا بصفا صلك عن الخير معزل
ولكنني أروى من الخمرها متى وأمشى الملا بالساحب المتسلسل
وفي ذلك يقول الخطيئة : —

شهد الخطيئة يوم يلقي ربه أن الوليد أحق بالعدر
نادى وقد تمت صلاتهم أأزيدكم ؟ ثملًا وما يدرى
ليزيدهم أخرى ولو قبلوا لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو خللوا عنانك لم تزل تجري

وبدا من عثمان شك في شهادة الشهود عليه فلجأوا إلى على فحمل عثمان على إقامة الحد عليه^(٢) فهذا وال من قرابة عثمان يستهين بشعائر الدين ، وهذا هو الخطيئة الذي حبسه عمر وأخافه يعتذر عن فعل الوليد أو يسخر به .

(٢) ومع ذلك فقد نكس شباب من أهل الكوفة على أبي الحيسمان الخزاعي وقتلوه وشهد عليهم أبو شريح الخزاعي فكتب فيهم سعيد بن العاص إلى عثمان فكتب إليه في قتلهم فقتلهم على باب القصر في الرحبة وقال في ذلك عمرو بن عاصم التميمي : —

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ق ٢ طبع أوربة ص ٢٧٦٦ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٤ .

لَا تَأْكُلُوا أَبَدًا حَيْرَانَكُمْ سَرَفًا أَهْلَ الدَّعَارَةِ فِي مُلْكِ ابْنِ عِفَان
 إِنْ ابْنُ عِفَانِ الَّذِي جَرَّبْتُمْ فُطِمَ لِلصُّوَصِ بِمَحْكَمِ الْفَرْقَانِ ^(١)
 وَقَدْ بَلَغَ عَثْمَانُ أَنَّ كَعْبَ بْنِ ذِي الْحُبَكَةِ النَّهْدِيَّ يَعَالِجُ نِيرِنَجًا فَأَمَرَ الْوَلِيدَ بْنَ
 عَقْبَةَ بِتَعْزِيرِهِ وَإِرسالِهِ إِلَى — دُنْبَاوَنْد — لِأَنَّهَا أَرْضُ سَحْرَةٍ فَقَالَ فِي ذَلِكَ
 كَعْبٌ لِلْوَلِيدِ : —

لَعَمْرِي لَنْ تُطَرِّدَنِي مَا إِلَى التِّي طَمَعْتُ بِهَا مِنْ سَقَطِي لِسَبِيلِ
 رَجَوْتُ رَجُوعِي يَا بَنَ أَرْوَى وَرَجَعْتِي إِلَى الْحَقِّ دَهْرًا غَالِ ذَلِكَ غَوْلُ
 وَإِنْ اغْتَرَانِي فِي الْبِلَادِ وَجَفَوْتِي وَشَتَمْتِي فِي ذَاتِ الْإِلَهِ قَلِيلُ
 وَإِنْ دَعَانِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَلَيْكَ (يَدُنْبَاوَنْدِ كَمْ) لَطْوِيلُ ^(٢)
 فَلَمَّا وَلَّى سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ أَعَادَهُ وَاسْتَصْلَحَهُ .

(٣) وَفِي زَمَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَتَبَةَ اسْتَعَارَ ضَابِيءُ بْنُ الْحَارِثِ الْبَرْجَمِيَّ مِنْ قَوْمِ
 مِنَ الْأَنْصَارِ كَلْبًا يُدْعَى قَرْحَانَ لَصِيدِ الظُّبَاءِ فَحَبَسَهُ عَنْهُمْ فَنَافَرَهُ الْأَنْصَارِيُّونَ
 وَاسْتَغَاثُوا عَلَيْهِ بِقَوْمِهِ فَكَاثَرُوهُ فَانْتَزَعُوهُ مِنْهُ وَرَدُّوهُ عَلَى الْأَنْصَارِ فَهَجَّاهُمْ وَقَالَ
 فِي ذَلِكَ : —

تَجَشَّمْتُ دُونِي وَفَدَّ قَرْحَانُ خُطَّةً تَضِلُّ لَهَا الْوَجَنَاءُ وَهِيَ حَسِيرُ
 فَبَاتُوا شَبَاعًا نَاعِمِينَ كَأَنَّمَا حَبَاهُمْ بَيْتُ الْمَرْزُبَانِ أَمِيرُ
 وَأَمَكُم لَا تَتْرَكُوهَا وَكَلْبَكُمْ فَإِنْ عَقَّقُوا الْأُمَهَاتِ كَبِيرُ
 فَاسْتَعَدُّوا عَلَيْهِ عَثْمَانُ فَعَزَّرَهُ وَحَبَسَهُ حَتَّى مَاتَ فِي سَجْنِهِ كَمَا تَقُولُ إِحْدَى
 الرِّوَايَاتِ ^(٣) وَهُوَ الَّذِي يَأْسَفُ لِعَدَمِ اشْتِرَاكِهِ فِي الْفَتْكِ بِعَثْمَانَ حَيْثُ يَقُولُ : —
 هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عَثْمَانَ تَبْكِي حَلَالُهُ
 (٤) وَأَثْنَاءَ حَصَارِ عَثْمَانَ خَرَجَتْ عَائِشَةُ أُمُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْحِجِّ هَارِبَةً

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ق ٢ ص ٢٨٤٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٠٣٣ .

(٣) الطبري ج ٢ ق ٢ ص ٣٠٣٤ .

واستتبع أخاها محمد بن أبي بكر فأبى ، فلامه في ذلك حنظلة الكاتب مع اتباعه
ذو بيان العرب في شأن عثمان فقال له محمد : ما أنت وذاك يا ابن التميمية ؟ فقال له
حنظلة : يا ابن الخثعمية إن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبتك عليه بنو عبد مناف
وانصرف وهو يقول : —

عجبتُ لما يخوض الناس فيه يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم ولاقوا بعدها ذلاً ذليلاً
وكانوا كاليهود أو النصارى سواء كلهم ضلوا السبيلاً^(١)
(٥) ولما قتل عثمان رثاه حسان وكان عثمانياً منحرفاً عن غيره وكان عثمان
إليه محسناً^(٢) فتوعد حسان الناس بقوله : —

يأليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأنُ علي وابن عفانا
لنسمعَنَّ وشيكا في ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمان
ثم رثاه ناعياً على الأنصار قعودهم عن نصرته^(٣) .
(٦) وكان الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخا عثمان لأمه ، فسُمع في الليلة
الثانية من مقتل عثمان يندبه وهو يقول : —

بنى هاشم ، إيه فما كان بيننا وسيفُ ابن أروى عندكم وحرائبه
بنى هاشم ردوا سلاح ابن اختكم ولا تنهبوه ، ما تحل مناهبه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مراربه
فأجابه عن هذا الشعر وفيما رمى به بنى هاشم ونسب إليهم الفضل بن العباس
ابن أبي لهب فقال : —

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن اختنا فهم سلبوه سيفه وحرائبه

(١) الطبرى ص ٣٠١١ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٣) راجع الديوان ص ٢٢ و ١٠١ و ١٨٣ .

وكان وليَّ العهد بعد محمد عليّ وفي كل المواطن صاحبه الأبيات^(١) وكانت هذه الملاحاة ظاهرة لما كان بين بيتي هاشم وأمية من تنافس منذ الجاهلية .

وقد رثاه غير واحد من الشعراء رثاء يقوم على صفاته الكريمة وينذر الناس بالشر لما انتهكوا من حرمة المدينة وما يستتبع ذلك من شرور^(٢) .
هذه الأمثلة من الشعر بيان لهذا المنهج الذي سلكه عمر وعثمان في سياسة الأمة العربية على فرق ما كان بينهما في ذلك ، وقد انتهت هذه السياسة آخر عهد عثمان إلى غايتها من قتله وقيام الحروب الأهلية بين علي ومعاوية كما نذكره في الفصل التالي .

— ٣ —

أما عن السياسة الخارجية فقد بدأت سيرتها في حياة الرسول عليه السلام ، حين أرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ؛ ففي السنة السادسة للهجرة أخبر أصحابه أنه مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث العسافى ملك الحيرة والحارث الحميري ملك اليمن وإلى نجاشى الحبشة وكان ذلك إنفاذاً لرسالته العامة إلى الناس كافة ، وبالأحرى وضعاً لأساس الدولة الإسلامية وسياستها الخارجية ، ثم كانت غزوات ذات الطلح ومؤنة وتبوك فاتحة الجانب العملي لهذه السياسة في حياة الرسول عليه السلام . وقبيل وفاته جهز جيش أسامة ابن زيد بن حارثة لغزو أطراف الشام أو لمناوشة الروم ، فلما مات الرسول سمر أبو بكر هذ الجيش ثم شغل بحروب الردة كما قدمنا ، فلما استقر له الأمر فكر في غزو الفرس والروم فأرسل جيشاً إلى العراق على رأسه خالد بن الوليد ومعه المثني بن حارثة فكانت له مع الفرس وخلفائهم من العرب وقائع ارتد العرب على أثرها إلى أطراف الصحراء ، ثم دعا أبو بكر إلى حرب الروم بالشام بزعامة

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٢) راجع الطبرى ٣٠٦٠ .

أبي عبيدة ومعه عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة ، ثم لحق بهم بعد مدة خالد بن الوليد مرتداً من العراق وأخذوا في الفتوح حتى إذا كانوا يقاتلون في اليرموك أتاهم نعي أبي بكر ، واستخلاف عمر وتولية أبي عبيدة القيادة العامة مكان خالد بن الوليد لذلك نعد عهد الفتوح الخارجية ، من حيث قوته وآثاره الجلى ، يبدأ بعمر بن الخطاب ويستمر زمن عثمان بن عفان ، إذ كانت فترتهما هي الحلقة العملية الأولى لهذه السلسلة الإسلامية ، وبذلك يكون للمسلمين أيامهما سياسة ذات شعبتين داخلية وخارجية . وقد أشرنا من قبل إلى الشق الأول وما اتصل به من شعر .

أما الشق الثانى فيمتاز بمقومات واضحة كوحدة الأمة العربية وتركها بلادها إلى الفتوح الخارجية ، ومواجهة دولتين كبيرتين هما الفرس والروم ولا سيما الأولى التى كان العرب يخشون بأسها ثم استطاعوا أن يقضوا عليها سراعاً وأن يتابعوا الفتوح فى شرق الأرض إلى أمد بعيد .

وكان الطابع العام للسياسة الخارجية زمن الفاروق وعثمان طابعاً إيجابياً حربياً من ناحية الدولة الإسلامية إذ هى الفاتحة المنتصرة ، وفى ظل هذه الفتوح يسير التهذيب الإسلامى ، وتنشر حضارته ، وت عقد معاهداته ، ويُدبسط سلطانه ، وتقوم إمبراطوريته العظيمة ، فى زمن عمر نشطت الفتوح فى فارس من القادسية إلى نهاوند سنة إحدى وعشرين هجرية وهى التى سميت فتح الفتوح ، ولم تحل سنة إحدى وثلاثين للهجرة حتى قتل يزيد جرد الثالث بخراسان زمن عثمان وبموته زالت دولة الساسانيين . ثم فتحت طبرستان على يد سعيد بن العاص ، وأعيد فتح مرو وخوارزم وغيرها كنيسابور وبلخ ، ثم أخضعت أذربيجان .

ومن الناحية الغربية فتحت الشام وفلسطين ومصر أيام عمر ثم إفريقية زمن عثمان الذى حدثت فى عهده موقعة السوارى بين أبى سرح وقسطنطين ملك الروم قرب الاسكندرية فى بحر الروم .

من الطبعى بعدما قدمنا أن يكون الشعر السياسى المتصل بهذه الفتوح إيجابياً قوياً كذلك ، فهو من حيث فنونه حماسة وفخر ، وذكر للوقائع ، وإشادة

بالقواد ، وفرح بالظفر والغنائم ، وإيمان بقوة الدين وروحه ، واعتزاز بهذه الدولة الناشئة التي هزمت الروم ، وأزالت الفرس ، وسارت أعلامها ظافرة في شرق الأرض وغربها ، تعتمد على دين صحيح ، وخلق قويم ، وشعور صادق ، وثقة بالنصر لا حد لها .

هو كما قلنا شعر سياسى من حيث غايته وهدفه وإن كان وصفاً وحماسة وفخراً ، بل كثيراً ما كانت نصوصه صريحة في تسجيل المعانى السياسية التي تدل على دولة تقوم وأخرى تزول ، وخلافة تعلو وعروش تثل ، وملوك يصرعون . وليس الشعر ملزماً في هذه المواقف أن يشرح الآراء السياسية ، وعوامل القيام والسقوط لدولة ما ، وإن أشار إلى ذلك في غير موضع .

وعلينا بعد ذلك أن نشير إلى بعض هذه النصوص الشعرية التي تلابس هذه السياسة لعلنا نرى فيها ما أشرنا إليه من مزايا وخصائص دون أن نضطر إلى إطالة النقد والايضاح .

(١) روى الطبرى ^(١) « كانت العرب توقع وقعة العرب وأهل فارس في القادسية فيما بين العديب إلى عدن أبين وفيما بين الأبلّة وأيلة ، يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها ، وكانت في كل بلد مصيخة إليها تنظر ما يكون من أمرها حتى إن كان الرجل ليريد الأمر فيقول لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية ، فلما كانت وقعة القادسية سارت بها الجن فأتت بها ناساً من الانس فسبقت أخبار الانس إليهم ، قالوا فبدرت امرأة ليلا على جبل بصنعاء لا يدري من هي ، وهى تقول : —

وَمَا خَيْرَ زَادٍ بِالْقَلِيلِ الْمَصْرَدِ	حُمَيْتِ عَنَا عِكْرِمَ ابْنَةِ خَالِدٍ
وَحَيَّاكَ عَنَى كُلِّ نَاجٍ مُفْرَدِ	وَحَيَّتِكَ عَنَى الشَّمْسِ حِينَ طَلُوعِهَا
حِسَانَ الْوَجْهِ آمَنُوا بِمُحَمَّدِ	وَحَيَّتِكَ عَنَى عُصْبَةِ نَخَعَةٍ
بِكُلِّ رَقِيقٍ الشَّفَرَتَيْنِ مُهَنَّدِ	أَقَامُوا لِكُسْرَى يَضْرِبُونَ جَنُودَهُ

وسمع أهل اليمامة مجتازاً يغنى : —

وجدنا الأكثرين بنى تميم غداة الروع أصبرهم قتالا
هم ساروا بأرعن مكفهر إلى لجب فزرتهم رِعَالاً
بحور للأكاسر من رجال كأسد الغاب تحسبهم جبلاً
تركن لهم بقادس عز فخر وبالحيفين أياماً طـوالاً
مقطعة أكفهم وسوق بمردى حيث قابلت الرجالا
وسمّع بنحو ذلك في عامة بلاد العرب .

(٢) ولما ورد أبو محجن الثقفي على سعد بن أبي وقاص حبسه أسفل قصره
أيام القادسية فتأسف أبو محجن على ما يفوته من مواقف القتال فرجا سعداً
أن يطلقه ليحارب فردّه ، فرجاسلمى بنت حفصة زوجة المثنى بن حارثة الشيباني ،
وقد كان سعد تزوجها بعده ، أن تطلقه على أن يعود فيضع رجله في القيد إذا سلم
من قتال الفرس فقالت : وما أنت وذاك ؟ فرجع يرسف في قيده وهو يقول : —
كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقها
إذا قت عتاني الحديد فأغلقت مصاريع من دوني تُصمّ المنايا
الأبيات . ثم أطلقته سلمى فأبلى في القتال حتى ظنوه الخضر أو ملكاً من
الملائكة فلما كان الليل وتحاجز الفريقان دخل القصر ، ووضع رجله في القيد ،
ورفع عقيرته وهو يقول : —

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا
الأبيات (١)

(٣) وفي فتوح الحيرة أيام عمر على يد المثنى بن حارثة ، وهزيمة مهران
وقتلّه ، وكان من أبطال العجم ، ثم فرار الفرس إلى المدائن يقول عروة بن زيد
الخليل : —

هاجت لعروة دار الحى أحزانا واستبدلت بعد عبد القيس همداًنا

وقد أَرَانَا بِهَا وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ إِذْ بِالنُّخَيْلَةِ قَتَلَى جَنْدُ مِهْرَانَا
أَيَّامَ سَارِ الْمَثْنَى بِالْجُنُودِ لَهُمْ فَقَتَلَ الْقَوْمَ مِنْ رَجُلٍ وَرُكْبَانَا
سَمَا لِأَجْنَادِ مِهْرَانٍ وَشِيعَتِهِ حَتَّى أَبَادَهُمْ مَثْنَى وَوَحْدَانَا
الْأَبْيَاتُ ^(١) وَهِيَ جَامِعَةٌ كَمَا تَرَى بَيْنَ الدِّيَابِجَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَطْلَعِهَا وَبَيْنَ
الْحِمَاسَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مَوْضُوعِهَا ، فَكَانَتْ فَنَاءً عَرَبِيًّا فِي بَيْئَةِ فَارَسِيَّةِ .

(٤) وَفِي أَعْقَابِ الْقَادِسِيَّةِ تَجِدُ مَقْطُوعَاتٍ شَعْرِيَّةً جَمِيلَةً لِبَشْرِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ
وَعُرْوَةَ بْنِ زَيْدِ الْخَلِيلِ وَقَيْسِ بْنِ هَبِيرَةَ ، رَوَاهَا أَبُو حَنِيفَةَ الدِّينُورِيُّ فِي الْأَخْبَارِ
الطَّوَالِ ^(٢) وَهِيَ نَاطِقَةٌ بِالْفَخْرِ بِهَذَا النِّشَاطِ الْحَرْبِيِّ ، وَالظَّفَرِ بِهِ فِي ظِلِّ الرَّايَةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَالْإِنْتِصَارِ عَلَى هَاتَيْنِ الْإِمْبَرَاتُورِيَّتَيْنِ ، فَمَنْ قَوْلِ قَيْسِ بْنِ زَهِيرٍ : —

جَلَبْتُ الْخَلِيلَ مِنْ صَنْعَاءَ تَرْدِي بِكُلِّ مُدْجَجٍ كَاللَيْثِ حَامِي
إِلَى وَادِي الْقُرَى فِدْيَارِ كَلْبٍ إِلَى الْيَرْمُوكِ وَالْبَلَدِ الشَّامِي
فَلَمَّا أَنْ زَوَيْنَا الرُّومَ عَنْهَا عَظَفْنَاهَا ضَوَامِرَ كَالْجِلَامِ
فَأَبْنَا الْقَادِسِيَّةَ بَعْدَ شَهْرٍ مُسَوِّمَةً دَوَابِرُهَا دَوَامِي
فَنَاهَضْنَا هُنَاكَ جَمُوعَ كِسْرَى وَأَبْنَاءَ الْمَرَازِبَةِ الْعِظَامِ
وَمَنْ قَوْلُ عُرْوَةَ : —

صَبَرْتُ لِأَهْلِ الْقَادِسِيَّةِ مَعْلِمًا وَمِثْلِي إِذَا لَمْ يَصْبِرِ الْقَرْنُ يَصْبِرُ
فَطَاعْنَتُهُمْ بِالرَّمْحِ حَتَّى تَبَدَّدُوا وَضَارَ بِهِمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى تَكْرُكُوا
حَمَدْتُ إِلَهِي إِذْ هَدَانِي لِدِينِهِ فَلِلَّهِ أَسْعَى مَا حَيَّيْتُ وَأَشْكُرُ
وَمَنْ قَوْلُ بَشَرَ : —

أَلَمْ خَيَالٌ مِنْ أُمِيمَةٍ مَوْهِنَا وَقَدْ جَعَلْتُ إِحْدَى النُّجُومِ تَغُورُ
إِلَى أَنْ يَقُولَ : —

وَحَلَّتْ بِيَابَ الْقَادِسِيَّةِ نَاقَتِي وَسَعْدُ بْنُ وَقَاصٍ عَلَى أَمِيرٍ

(١) الْأَخْبَارُ الطَّوَالُ لِلدِّينُورِيِّ ص ١١٥ وَفِي الطَّبَرِيِّ مَنْسُوبَةٌ لِلْأَعْوَزِ الشَّنِيِّ ص ٢٢٠٠ .

(٢) ص ١٢٥ وَالْوَارِدُ هُنَاكَ عُرْوَةَ بْنُ الْوَرْدِ وَلَعَلَّ الصَّحِيحَ عُرْوَةَ بْنُ زَيْدِ الْخَلِيلِ .

عشية ودَّ القوم لو أن بعضهم يُعار جناحى طائر فيطير
إذا برزت منهم إلينا كتيبة أتينا بأخرى كالجبال تمور. الخ

(٥) ولما ذهب عمر إلى الشام ليمتولى بنفسه الصلح مع أهل بيت المقدس —
وكان أُرطَبون قد لحق بمصر مقدم عمر — قال زياد بن حنظلة في هذه الغزوات: —
تذكرتُ حرب الروم لما تطاولت وإذ نحن في عام كثير نزائله
وإذ نحن في أرض الحجاز وبيننا مسيرة شهر بينهن بلابله
وإذ أُرطَبون الروم يحمى بلاده يجاوله قَرَم هناك يساجله
الأبيات (١)

(٦) غزا سعيد بن العاص سنة ثلاثين هجرية أيام عثمان فأتى جرجان
وطبرستان معه عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر وابن الزبير وعبد الله بن
عمرو بن العاص ، وهلك مع سعيد محمد بن أبي الحكم بن أبي عقيل الثقفي جد
يوسف بن عمر فقال يوسف لفقدهم : أتدرى أين مات محمد بن الحكم ؟ قال نعم ،
استشهد مع سعيد بطبرستان ، قال لا ، مات بها وهو مع سعيد ، ثم قفل سعيد
إلى الكوفة فمدحه كعب بن جعيل فقال : —

فنعم الفتى إذ حال جيلان دونه وإذ هبطوا من دسّتي ثم أبهراً
تعلم سعيد الخير أن مطيتي إذا هبطت أشفقت من أن تُعقرأ
كأنك يوم الشعب ليث خفية تحرد من ليث العرين وأصحرا
تسوس الذى ماساس قبلك واحد ثمانين ألفاً دارعين وحسراً (٢)

(٧) وفي سنة ثنتين وثلاثين هجرية سار الأقرع بن حابس إلى الجوزجان ،
بعثه الأحنف بن قيس في جريده خيل إلى بقية بقيت من الزحوف الذين هزمهم
الأحنف فقاتلهم فجال المسلمون جولة فقتل فرسان من فرسانهم ثم أظفر الله
المسلمين بهم فهزموهم وقتلوهم ، فقال كثير النمشلي : —

(١) الطبرى ٢٤١٠ وتجد أمثلة أخرى في ص ٢٤١١ و ٢٥٠٨ و ٢٣٦٥ و ٢٦٢٥
٢٦٥٢ و ٢٧٠٨ كلها لعهد عمر .
(٢) الطبرى ص ٢٨٣٨ .

سقى مُزن السحاب إذا استهلَّتْ مصارعَ فتية بالجوزِ جانِ
إلى القصرين من رُستافِ خوطٍ أقادهم هناك الأقرعان
وهى طويلة ^(١)

والشواهد كثيرة على تلك الحال السياسية التي خضع لها المسلمون أيام عمر
وعثمان سواء في ذلك الحال الداخلية والخارجية في جميع مظاهرها من فتوح وعهود
وآمال وآلام وما توجت به من ظفر وسلطان . وأما الخواص الفنية لهذا الشعر
فموضعها آخر الباب .

* * *

ومن مظاهر السياسة الخارجية لذلك العهد مسألة الولاة الذين ينهضون
بشئون الدولة في أقاليمها المختلفة ويمثلون بذلك سلطان الخلافة مستمدين نفوذهم من
الخليفة المقيم بالمدينة .

ومنذ آخر عهد عمر وأول عهد عثمان ، أى في هذا العهد الذى عقدنا له هذا
الفصل ، كانت الأمصار وولاتها قد تمايزت واستقرت أحوالها .

وكانت سياسة هؤلاء الولاة متأثرة بسياسة الخليفة في المدينة أو هى من
إملائه في أغلب الأحيان ، ولا مجال للقول بأن كانت هناك سياسة إقليمية خاصة
في نواحي هذه الامبراطورية الناشئة لعدة أسباب : منها أن هذه الأقاليم كانت في
دور الفتوح والانضمام إلى الدولة وهذا الطور يعد في تاريخ الأقاليم دور انتقال
واستسلام لهذا النظام الاسلامى الجديد فلم يحن الوقت لتكوين سياسة موضعية
لها ، ومنها أن الخليفة ولا سيما عمر بن الخطاب كان يقظاً لسياسة الأطراف حريصاً
على أن ينفذ فيها أصول الشريعة ويرسم الخطة للحكام والولاة ، ومنها أن لم
تكن هناك أحزاب سياسة يمكن أن تحرف في نظام الحكم في جهة من الجهات
تبعاً لحزبية الوالى أو جماعة السكان ، لذلك لم يكن للشعراء مجال ، مع الولاة ،
في رسم سياسية خاصة أو معارضة الخلافة العامة أغلب هذا العهد ، ففي عهد عمر

كان الغالب أن يسير الشعراء مع القواد الفاتحين يسجلون الملاحم ويعتزون بها
كما سبق في قصة أبي محجن الثقفي ، وكما كان شأن عبدة بن الطبيب في المدائن
مع النعمان بن مقرن ^(١) فقد كان في جيشه وقد ألم بذلك في قصيدته التي
أولها : —

هل جبلٌ خولةٌ بعد الهجر موصولٌ أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغول

وربما كان الوليد بن عقبة والى الكوفة لعثمان بن عفان هو الوالى الذى كان
لسلوكة لون خاص اضطر الخليفة أن يعزله ويولى مكانه سعيد بن العاص .

كان الوليد هذا مستهتراً بالخر يشربها مع ندمائه ومغنييه من أول الليل إلى
الصباح ، ثم يخرج إلى الصلاة فلا يحسن أداءها فيثور عليه الناس ويعتذره
الخطيئة أو يستخر به ويحاول عثمان تخليصه من الحد فينفذه على ^(٢) ثم يتخذ من
الشعراء أصدقاء له يمدحونه كأبي زبيد الطائي ، وابن أرمطة ، ويعين لبيد بن
ربيعة على مروءته .

كان أبو زبيد نديماً للوليد بالكوفة فلما عزل الوليد قال أبو زبيد : —
مَنْ يَرَى الْعَيْرَ لَا بَنَ أَرَوَى عَلَى ظَهْرِ الْمَرُورَى حُدَايَهُنَّ عِجَالُ
مَصْعَدَاتٍ وَالْبَيْتَ بَيْتَ أَبِي وَهَبَ خَلَاءَ تَحَنُّ فِيهِ الشَّمَالُ
إلى أن يقول : —

ولعمر الإله لو كان للسيِّفِ مَصَالٌ أو لِللِّسَانِ مَقَالُ
مَا تَنَاسَيْتُكَ الصَّفَاءَ وَلَا الْوَدَّ م وَلَا حَالُ دُونَكَ الْأَشْغَالُ
وهكذا يظهر لصاحبه الود والوفاء ، ويبكى على عهده ، ويستعد للتضحية
في سبيله . وله فيه شعر غير هذا .

(١) الأغاني ج ١٨ ص ١٦٣ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٤ .

وأما ابن أُرطاة فيقول للوليد وكان ينادمه : —

إصبحُ نديمك من صهباء صافية حتى يروح كريما ناعمَ البالِ
وأشرب هُديت أبا وهب مُجَاهرة واختل فإِنَّك من قوم أولى خالِ
الأبيات (١)

أما قصته مع لبيد وابنته حين أعانه على نذره فهي قصة معروفة (٢) .
معنى ذلك أن الشعر المتصل بالولاية كان مدحاً لهم أو مجازاة لسلوكهم دون
أن يحاول انتهاج خطة خاصة .

ولما كانت السياسة الاقليمية إنما ظهرت بعد مقتل عثمان وقويت في العصر
الأموي ، فإننا نكتفي هنا بالإشارة إليها لنعود إليها في الفصول الآتية .

(١) الأغاني ج ٢ ص ٨٠ بلاق .

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ٩٧ بلاق .

الفصل الثالث

في سبيل الحكومة الإسلامية

- ١ -

يظهر أن خلافة عثمان بن عفان — وهو من الأمويين — قد اتخذت لوناً من العصبية القائمة بين الهاشميين والأمويين منذ الجاهلية ، فقد انتهزها الأمويون ، وأخذوا يحيون نفوذهم القديم ، ويتخذون من حلمه وقرابته وسيلة لما ربهم ، ولا سيما أن علي بن أبي طالب كان ينتظر الخلافة أن تكون له من قبل عثمان ، ولما كانت الثورة على عثمان وقتله اتهم الأمويون علياً بخذل الخليفة على الأقل وعدم مناصرته والدفاع عنه حتى تمكن منه الثأرون ، وكان معاوية بن أبي سفيان الأموي أمير الشام زعيم هذه الأسرة قوى المكانة في إقليمه محبوباً مطاعاً في دمشق ، لطول مدته هناك ، وحسن سياسته ، وسعة حلمه وسخائه ، فنشط ليظفر بالملك الإسلامي دون علي معتمداً على كفايته ، معتزلاً بأنصاره ، متخذاً من المطالبة بشار عثمان حجة لما ينبغي ، وبذلك انتقلت الثورة من وضع إلى آخر ، فكانت على عثمان لما أخذ عليه فاذا بها بين علي ومعاوية في سبيل الظفر بالحكومة أو الخلافة وإذا بها تستحيل حتى تنتهي بانتصار السياسة الأموية على الشجاعة الهاشمية .

ومعنى هذا أن الشعر في هذه الفترة — فترة علي ومعاوية — كان معنياً بتسجيل حروب أهلية داخلية بين الشام والعراق وما حالف كلا من الأقاليم الأخرى .

وهذا غير ما كان في زمن عمر وعثمان ، ويشبه ما كان عصر البعثة من كون المعركة داخلية .

ولنترك الشعر وحده يعرض علينا هذه الحركة السياسية خلال الحوادث ثم نعود بعد ذلك إلى تلخيص مظاهره .

(١) لما قتل عثمان بايع علياً كثرة من الصحابة بالمدينة فيهم طلحة والزبير ، وتحلف الأمويون هاربن إلى مكة أو الشام ، وكذلك جماعة عثمانية كحسان ابن ثابت ، ومسلمة بن مخلد وأبي سعيد الخدري ، ولما بويع علي وخطب خطبته وأراد الذهاب إلى بيته قالت السبئية : —

خذها إليك واحذرْ أبا حسنٍ إنا نمرُّ الأمرَ إمرارَ الرسنِ
صولةً أقوام كأسداد السفنِ بمشرفيات كغدران اللبنِ
ونقطعن الملك بليّن كالشطنِ حتى يُمرّن على غير عَنٍّ (١)

والسبئية اتباع عبد الله بن سبأ الذين خبوا في الفتنة الأولى على عثمان والتحريض على كرهه في الأمصار الاسلامية ، وزعيمهم تردد بين البصرة والكوفة ومصر وبث الدعوة لعلي وصي محمد وأولى الناس بالخلافة بعده وهكذا حتى قويت الفتنة وجرو الثوار على الخليفة ، ونجحت حيلتهم ، وشعرهم هذا ناطق بهذا التآمر الخطير .

(٢) وضربت الركبان إلى الشام بنعي عثمان وتحريض معاوية على الطلب بدمه فبينما معاوية ذات يوم جالس إذ دخل عليه رجل فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال معاوية : وعليك ، من أنت لله أبوك فقد روعتني بتسليمك على بالخلافة قبل أن أناها ؟ ! فقال : أنا الحجاج بن خزيمة بن الصمة ، قال فقيم قدمت ؟ قال : قدمت قاصداً إليك بنعي عثمان ، ثم أنشأ يقول : —

إن بني عمك عبد المطلب هم قتلوا شيخكم غير الكذبِ
وأنت أولى الناس بالوثب فثب وسر مسير الحزئل المتلب

ثم قال له : إنك تقوى بدون ما يقوى به علي ، لأن معك قوماً لا يقولون إذا سكت ، ويسكتون إذا نطقت ، ولا يسألون إذا أمرت ، ومع علي قوم

يقولون إذا قال ، ويسألون إذا سكت ، فقليلك خير من كثيره ، وعلى لا يرضيه إلا سخطك ، ولا يرضى بالعراق دون الشام ، وأنت ترضى بالشام دون العراق ، فضاق معاوية بما أتاه به الحجاج بن خزيمة ذرعاً فقال : —

أتاني أمر فيه للناس غمة وفيه بكاء للعيون طويل
مُصاب أمير المؤمنين وهذه تكاد لها صم الجبال تزول
تداعت عليه بالمدينة عصابة فريقان منهم قاتل وخذول
سألقها حرباً عواناً ملحة وإني بها من عامنا لكفيل
الآيات^(١)

فانظر إلى الشعر يجري في تيارين متناقضين ، فقسم إلى على وقسم إلى معاوية وليس من ورائهما إلا الفرقة والتهالك .

(٣) وأما بنو أمية فقد اجتمعوا بمكة ورحل إليهم طلحة والزبير وأجمعوا أمرهم على المطلب بدم عثمان وقتال السبائية فأمرتهم عائشة بالخروج إلى المدينة واجتمع القوم على البصرة وردّها عن رأيها حتى إذا أتوا البصرة تمثلت عائشة : —

دعى بلاد الظلم إذ صلّحت فيها المياه وسيرى سير مذعور
تخيّر النبت فارعى ثم ظاهرة وبطن وادٍ من الضمّار ممطور^(٢)

(٤) ولكنها وهى في طريقها إلى مكة لتسكون مع الأمويين ، لقيها عند (سرف) عبد بن أم كلاب وهو عبد بن أبي سلمة وحاورها في مقتل عثمان وخلافة على فقالت : قتل ، والله ، عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه ، فقل لها ولم ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلاً فقد كفر ، قالت إنهم استتابوه ثم قتلوه فقال لها ابن أم كلاب : —

منك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر

(١) الأخبار الطوال ص ١٥٦ .

(٢) ص ٣١٠٥ .

الآيات (١)

ثم انصرفت إلى مكة وأذاعت أن عثمان قتل مظلوماً ، واستغل الثائرون موقفها في سبيل مآربهم السياسية أو قل حملوها على هذا الموقف حملاً .

(٥) ومع ذلك فقد أقبل جارية بن قدامة السعدي فقال يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضةً للسلاح ، ثم خرج غلام شاب من بني سعد فلام طلحة والزبير على إخراجهما عائشة دون نساءهما ، ثم اعتزل وقال : —

صَدِّمُ حِلَالَكُمْ وَقُدِّمُ أَمَّكُمْ هَذَا لِعَمْرِكَ قَلَّةُ الْإِنصَافِ
أَمَرْتُ بِحَرْبِ ذِيوَلَهَا فِي بَيْتِهَا فَهَوَتْ تَشَقُّ الْبَيْدَ بِالْإِجَافِ

الآيات (٢)

وهذا شعر جمع بين الشعور الديني والهوى السياسي وكانت عائشة في ذلك مكان اللوم إذ تورطت في نزعات سياسية ، واستغلت لما رب الظالمين في الحكم ، وخرجت من بيتها إلى ميادين القتال غير ملزمة بذلك .

(٦) ولما كانت الهزيمة لأصحاب الجمل مضى الزبير من سننه فسلك وادى السباع وجاء طلحة سهم قاتل فلما ثقل قال لعلامه اردفني وأمسكني وابغني مكاناً أنزل فيه فدخل البصرة وهو يتمثل مثله ومثل الزبير : —

فَإِنْ تَكُنِ الْحَوَادِثُ أَقْصَدْتَنِي وَأَخْطَأْهُنَّ سَهْمِي حِينَ أَرْمِي
فَقَدْ ضَيَّعْتُ حِينَ تَبَعْتُ سَهْمَا سَفَاهَا مَا سَفِهْتُ ، وَضَلَّ رَحْلِي
نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسْعِيِّ لَمَّا شَرَيْتُ رِضَى بَنِي سَهْمٍ بِرَغْمِي
أَطْعَمُهُمْ لِفَرَقَةٍ آلَ لَأَى فَأَلْقَوْا لِلْسَبَاعِ دَرَمِي وَلِحْمِي (٣)

والحق أن طلحة والزبير كانا مضطربى السلوك السياسي فقد بايعا علياً ثم طمعا في الأمر ، واتخذوا من موقف عائشة سنداً لهما ، وصانعا الأمويين على غير بصيرة ، وانتهى الأمر بقتلها جميعاً ، وهذا يستحق الندم .

(١) الطبري ص ٣١١٢ وفي مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٦ منسوبة لعمار بن ياسر .

(٢) ص ٣١٢١ .

(٣) ص ٣١٨٤ . وفي مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٦ وما وليها شعر في وقعة الجمل .

(٧) وبعد وقعة الجمل ترك على البصرة قائلاً لها وشخص إلى الكوفة ونزل الرحبة فقال الشنّي يحرضه على المسير إلى الشام : —
 قل لهذا الإمام قد خبت الحر ب وتمت بذلك النعماء
 وفرغنا من حرب من نكث العهد ، وبالشام حيلة صماء
 تنفث السم ، ما لمن نهشته — فارمها قبل أن تعض — شفاء^(١)
 وناكث العهد هنا طلحة والزبير ، وحية الشام معاوية بن أبي سفيان . وبعد ذلك تكون صفين .

(٨) ولما احتاج معاوية إلى معونة عمرو بن العاص شرط هذا عليه أن تكون له مصر ، فتلكأ عليه معاوية ، فقال له عتبة بن أبي سفيان أما ترى أن تشتري عمراً بمصر إن صفت لك قلميَّتك لا تغلب على الشام ، وقال معاوية لعتبة يت عندنا ليلتك هذه فبات عتبة عنده وأنشد : —
 أيها المانع سيفاً لم يُهز إنما ملت على خزٍ وقز
 إن مصرأ لعل أو لنا يغلب اليوم عليها من عجز
 الأبيات .

فلما كان الصباح بعث معاوية إلى عمرو وأعطاه ما سأل ، وبعد ذلك بفترة كتب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر قد قبضها بالشرط الذي اشترط على معاوية :

« أما بعد فإن سؤال أهل الحجاز وزوار أهل العراق قد كثروا على ، وليس عندي فضل من أعطيات الجنود فأعني بخراج مصر هذه السنة » فكتب إليه عمرو : —

معاوي إن تدركك نفس شحيحة فما ورثتني مصر أمي ولا أبي
 وما نلتها عفواً ولكن شرطتها وقد دارت الحرب العوان على قطب
 ولولا دفاعي الأشعري وصحبه لألفيتها ترغو كراغية السقب
 فلما رجع الجواب إلى معاوية تدمم فلم يعاوده في شيء من أمرها^(٢) .

(١) الأخبار الطوال ص ١٥٤ .

(٢) ص ٢٢٤ .

(٩) وكانت النتيجة أن وقفت العراق مع علي والشام مع معاوية على فرق بين الموقفين إذ كان معاوية مكيناً في الشام بخلاف علي في العراق ، وهنا تدخل الشعر يبين هذا الموقف ، وكان معاوية قد أبى مبايعة علي وكتب إليه بأبيات كعب بن جُعيل : —

أرى الشامَ تكره ملكَ العراقِ وأهلُ العراقِ له كارهونا
وكلُّ لصاحبه مبغض يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا على إمام لنا فقلنا رضينا ابنَ هند رضينا
إلى آخر الأبيات .

فلما قرأ علي ذلك قال للنجاشي أجب فقال : —

دعَنَّ معاويَّ ما لن يكونا فقد حقَّ الله ما تحذرونا
أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا
فإن يكره القوم مُلكَ العراق فقدماً رضينا الذي تكرهونا
إلى آخر ما قال^(١)

(١٠) وفي سنة ست وثلاثين لما هم معاوية بالخروج إلى صفين ، وعلم الوليد

ابن عقبة بخوف معاوية من علي بعث إليه : —

ألا أبلغ معاوية بن حرب فانك من أخى ثقةٍ مُلِمٌ
قطعتَ الدهر كالسديم المعنى تهذر في دمشق فما تريم
وليس أخو البترات بمن توانى ولكن طالب البتر العشوم
ولو كنت القتل وكان حيا لحرّد ، لا ألف ولا سَوم
ولا نكل عن الأوتار حتى يُدبىء بها ، ولا برمّ جثوم
وقومك بالمدينة قد أبيروا فهم صرعى كأنهم الهشيم^(٢)

(١١) وكتب معاوية إلى علي : «أما بعد فإني إنما أقاتلك على دم عثمان ولم

(١) الأخبار الطوال ص ١٦٢ .

(٢) الطبرى ٣٢٥٨ .

أر المداهنة في أمره وإسلام حقه ، فإن أدرك بثأرى فيه فذاك وإلا فالموت على الحق أجمل من الحياة على الضيم ، وإنما مثلى ومثل عثمان كما قال الخارق : —
فهما تسل عن نصرى السيد لا تجد لدى الحرب بيت السيد عندى مذمماً
فكتب إليه على : «أما بعد فاني عارض عليك ماعرض مخارق على بنى فالج
حيث قال : —

يا راكباً إما عرضت فبلغاً بنى فالج حيث استقر قرارها
هلموا إلينا لا تكونوا كأنكم بلاقع أرض طار عنها غبارها
سليم بن منصور أناس أعزة وأرضهم أرض كثير وبارها
فكتب إليه معاوية : «إنالم نزل للحرب قادة ، وإنما مثلى ومثلك ما قال
أوس بن حجر : —

إذا الحرب حلت ساعة الحى أظهرت عيوب رجال يعجبونك فى الأمن
وللحرب أقوام يحامون دونها وكم قد ترى من ذى رواء ولا يغنى» (١)

(١٢) وفى أحد أيام صفين تلاهى كل من عتبة بن أبى سفيان من فريق الشام وجعدة بن هبيرة من العراقيين وعبى كل واحد منهما لصاحبه كتيبة فاقتملوا بين الصفين وأعين الناس إليهم ثم انهزم عتبة ققال له النجاشى : —

ما زلت تنظر فى عطفك أبهة لا يرفع الطرف منك التيه والصلف
لما رأيتهم صبحاً حسبتهم أسد العرين حمى أشبالها الغرف
ناديت خيلك ، إذعض السيوف بها عوجى إلى فما عاجوا وما وقفوا (٢)

(١٣) وممن قتل أيام صفين عميد الله بن عمر بن الخطاب وكان من فرسان العرب وأبطالها ، ونخرج يوماً فى خيل من أهل الشام ، وخرجت إليهم ربيعة فاقتملوا بين الصفين وعميد الله أمامهم يضرب بسيفه فحمل عليه حريث بن جابر الحنفى فطعنه فى لبتة فقتله ، فقال كعب بن جعيل يرثيه : —

(١) الأخبار الطوال ص ١٧٨ .

(٢) نفس المرجع ص ١٧٦ .

ألا إنما تبكي العيونُ لفارسٍ بصفينَ أجلت خيله وهو واقفُ
فأضحى عبيد الله بالقاع مسلماً تمجُّدُما منه العروق النوازف
ينوء وتعلوه سبائب من دم كما لاح في جيب القميص الكفائف
جزى الله قتلانا بصفين ما جزى عباداً له إذ غودروا في المزاحف^(١)

(١٤) وكانت ربيعة في صفين مع علي تنباري في نصرته بزعامه الحصين
ابن المنذر بن الحارث الذهلي فقال في ذلك على : —

لِمن رايةً سوداء يخفق ظلها إذا قيل قدّمها حصّين تقدّمَا
يقدمُها في الموت حتى يُزيرَها حياض المنايا تقطر الموت والدمَا
أدقنا ابن حرب طعننا وضربنا بأسيا فنا حتى تولّى وأحجمَا
الآيات^(٢).

— ٢ —

فاذا رحنا إلى هذا الشعر نتبين منه هذا الموقف السياسي منذ وفاة عثمان إلى
نهاية صفين انتهى بنا إلى أن الأمويين يلصقون مقتل عثمان بالهاشميين إذ لم يدفعوا
عنه الثوار على أضعف الفروض ، وكانت بيعة على معناها احتماله تبعة ثأره وأخذ
قتلته به ، فلم يملوه حتى ثاروا عليه وامتنعوا عن بيعته احتجاجاً بمصرع الخليفة
الثالث ، ورغبة في الملك الاسلامي ، فاعتصم معاوية بالشام وأخذ يجمع حوله
أنصاراً يمينهم الأمانى إذا ظفر بالملك ، ثم اجتمع فريق منهم حول عائشة يثيرون
بأم المؤمنين شعور الناس بقتل عثمان مظلوما ولم يكن يطمئن هؤلاء إلى وجود
طلحة والزبير في جيش عائشة لأطاعهما ، حتى قيل إن طلحة قتل بيد أموية أثناء
المعركة حول جمل عائشة . وكان خروج عائشة واشتراكها في هذا الشعب السياسي
شيئاً منكراً في رأى الناس .

(١) نفس المرجع ص ١٨١ .

(٢) الطبرى ص ٣٣١٦ ومروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٠ .

ولما انتصر على في هذه الموقعة ندم المهزمون كما نطق بذلك طلحة متمثلاً
قبيل وفاته ، وقد قتل ابنه محمد في هذا اليوم وقد قال قاتله : —

وأشعث سجاد بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شككت له بالرمح جيب قميصه نحر صريعاً لليدين وللهم
على غير شيء غير أن ليس تابعا علياً ومن لا يتبع الحق يندم^(١)

وقد مر بصرى بين القتلى يوم الجمل فسمع عمير بن الأهلب الضبي يقول : —
لقد أوردتنا حومة الموت أمناً فلم تنصرف إلا ونحن رواء
أطعنا بني تميم لشقوة جدنا وما تيم إلا أعبد وإماء^(٢)
وأما عن صفين ومعاوية فيرى بعض المؤرخين أن كان الأجدر بعلي الأخذ
برأى المغيرة بن شعبة وإبقاء معاوية على الشام حتى تلزمه طاعة علي ، فاذا
استقرت الأمور رأى فيه رأيه ولكن علياً أبي الأخذ بذلك فانصرف المغيرة
وقال : —

نصحتُ علياً في ابن هند مقالة فردت فلا يسمع لها الدهر ثانية
وقلتُ له : أرسل إليه بعهد علي الشام حتى يستقر معاوية
ويعلم أهل الشام أن قد ملكته وأم ابن هند عند ذلك هاوية
فلم يقبل النصح الذي جئته به وكانت له تلك النصيحة كافية^(٣)

وترى من نصوص الشعر المذكورة قبلاً كيف استعان معاوية بعمر بن
العاص ، فقال له عمرو بن العاص : لا أعينك من ديني حتى أنال من دينك فأجابه
إلى ذلك كما علمت ، وقال في ذلك عمرو بن العاص فيما يروى : —

معاوى لا أعطيك ديني ولم أنل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع
فان تعطيني مصرأ فأرج صفقة أخذت بها شيخاً يضر وينفع^(٤)

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٣ وفيه بقية القصة .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٤٠ .

ثم وقفت الشام والعراق تتحاربان في سبيل الحكومة الإسلامية ؛ لمن تكون ؟ وفي أي الأسترتين الهاشمية والأموية تستقر ؟ وانقسم الشعراء بين الزعيمين أو قل صور الشعر نزعتين سياسيتين تصويراً مباشراً وغير مباشر ، والناس من وراء الزعيمين يدفعونها إلى الحرب ، وكل منهما فرح بمن حوله من الأعوان ، وإن كان عجز ، فقد كان من جيش علي ، ومن نفس معاوية ، حتى هم ليلة الهريز بالفرار لولا أبيات ابن الاطنابة التي ذكرها فثبتت وهي : —

أبت لي عفتي وأني بلائي وإقدامي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالى وأخذى الحمد بالثمن الريح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى^(١)

واشتد القتال صبح هذه الليلة وكاد الأمر يتم لعلى ونادت مشيخة أهل الشام : الله الله في الحرمات والنساء والبنات ، فنال عمرو بن العاص : أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رحمة فكثر في الجيش رفع المصاحف وارتفعت الضجة ونادوا : كتاب الله بيننا وبينكم ، من لشغور الشام بعد أهل الشام ؟ ومن لشغور العراق بعد أهل العراق ؟ ومن لجهاد الروم ؟ ومن للترك ؟ ومن للكفار ؟ ورفع في عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف ، وفي ذلك يقول النجاشي بن الحارث : —

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليها كتاب الله خير قرآن
ونادوا علياً يا ابن عم محمد أما تتقى أن يهلك الثقلان

حتى خدع بذلك أهل العراق وتركوا القتال على الرغم من علي^(٢) وبعدهما كثر القتلى وبرم الناس من هذه البلايا وسمعت امرأة بصفين وقد قتل لها ثلاثة أولاد وهي تقول : —

أعيني جوداً بدمع سرب على فتية من خيار العرب

(١) الطبري ص ٣٣٠٠ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧١ .

وما ضرهم غير حين النفوس بأى أميرى من قریش غلب^(١)
ثم كانت مسألة التحكيم المشهورة.

على أن هذه لم تخل من ختل ودهاء تجده مفصلاً فى كتب التاريخ حتى
إذا انتهى الأمر بها إلى ما هو معروف رأينا الشعر يسجل سخط العلويين على
أبى موسى الأشعرى وندمهم لاختياره ندأ فى الحكومة لعمر بن العاص الداهية ،
فقال أئمن بن خزيم بن فاتك الأسدى من أهل الشام وكان قد اعتزل القوم : —

لو كان للقوم رأى يهتدون به عند الخطوب رموكم بابن عباس
لكن رموكم بشيخ من ذوى يمن لم يدربوا ضرباً خاسراً لأسداس^(٢)

ونحو هذا شعر روى لابن عباس فى لوم أبى موسى ، وآخر فى تأييد خلافة
على^(٣) والواقع أن الشعر السياسى يوحى بهذا الفرق بين وقعتى الجمل وصفين
وهو الفرق الذى ذكره المسعودى فى مروج الذهب^(٤) فقال : « إن أصحاب
الجمل لما انكشفوا لم يكن لهم فئة يرجعون إليها ، وإنما رجع القوم إلى منازلهم
غير محاربين ولا منابذين ولا لأمره — على — مخالفين فرضوا بالكف عنهم
وكان الحكم فيهم رفع السيف ، إذ لم يطلبوا عليه أعواناً . وأهل صفين كانوا
يرجعون إلى فئة مستعدة وإمام منتصب يجمع لهم السلاح ، ويسنى لهم الأعطية ،
ويقسم لهم الأموال ، ويجبر كسيرهم ، ويحمل راجلهم ، ويردهم فيرجعون إلى
الحرب ، وهم إلى إمامته منقادون ولرايه متبعون ولغيره مخالفون ولإمامته — على —
تاركون ولحقه جاحدون » فكانت النتيجة أن ثبت أهل صفين واستعانوا الحيلة
فسندتهم وفر أهل الجمل أمام على وذهبت ريجهم .

ومرت الأيام وكل من الزعيمين معتصم بقطر من الأقطار فى سبيل هذه
الحكومة الاسلامية حتى إذا كانت سنة أربعين هجرية تعاهد ثلاثة من

(١) ص ٢٧٥ .

(٢) ص ٢٧٩ والأخبار الطوال ص ١٩٦ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٤) ج ٢ ص ٢٨٨ .

الخوارج على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص . ولم يتم إلا أمر ابن ملجم الذي قتل علياً وقيل إنه أُرْضِيَ بذلك قطام ابنة عمه وكان على قتل أبائها وأخاها يوم النهروان ، فخطبها على أن يكون مهرها قتل علي وعبداً وقينة وثلاثة آلاف وقال في ذلك : —

ثلاثة آلاف وعبدٌ وقينة وقتل عليّ بالحسام المصمم
فلا مهر أعلى من علي وإن علا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم (١)
ولم يخل الشعر الذي قيل في مصرع علي ونجاة معاوية وعمرو من حزن عليه وشماتة بموته ، نذكر منه ما تمثلت به عائشة لما بلغها الخبر : —
فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قر عينا بالأياب المسافر

وما قال ابن أبي مياس المرادى : —

ونحن خلعنا ملكه من نظامه بضربة سيف إذ علا وتجبّرا (٢)
ثم بويع ابنه الحسن فوجد ألقبل له بمعاوية فنزل له عن الخلافة على أن يكون الأمر بعد معاوية للمسلمين يختارون للخلافة من شاءوا وبذلك تم الأمر لمعاوية .

— ٣ —

ترك الناس صفيين وهم أحزاب ثلاثة : شيعة علي ، وأنصار معاوية ، والخوارج الذي يبعضون علياً ومعاوية ويرغبون في حكومة إسلامية جمهورية أو ديمقراطية تخالف هذه الأرستقراطية القرشية التي يمثل على بها الهاشميين ، ومعاوية الأمويين ، وكلاهما آثم في رأى الخوارج لأنه حكم في دين الله واتخذ حقاً ليس له ، وإنما نترك القول في هذه الأحزاب وشعرائها إلى الباب التالى وحسبنا هنا أن تتم القول في علي ومعاوية إذ كان عهدهما معاً عراكاً في سبيل الحكومة وإقرارها ، ولعلها قرت في البيت الأموى بجهود معاوية .

(١) ص ٢٩٠ .

(٢) الطبرى ص ٣٤٦٦ .

أما على فلزم التخرج في سلوكه الديني والسياسي وأخضع السياسة للمقاييس الخلقية والدينية فلم يظفر بشيء وانصرف عنه الناس حتى إن أخاه عقيلاً طلب منه شيئاً من بيت المال فأبى عليه فهرب إلى معاوية فأكرمه وكذلك شأنه كان مع ولديه الحسن والحسين ، وكان عبد الله بن عباس عامله على البصرة متأثراً بسلوكه على فقد وفد عليه عينية بن مرداس التميمي يسأله عطاء — وكان مرداس هجاء خبيث اللسان — فردّه ابن عباس وحبسّه وهدده بقطع لسانه إن هجأ أحداً ثم أخرجّه عن البصرة فوفد إلى المدينة مقتل على ، فلقى الحسن بن علي وعبد الله ابن جعفر فسألاه عن خبره مع ابن عباس فأخبرهما فاشتريا عرضه بما أرضاه فقتل يمدحهما ويلوم ابن عباس : —

أتيتُ ابن عباس فلم يقض حاجتي ولم يرج معروف ولم يخش مُنكرى
حُذبت فلم أنطق بعذر لحاجة وسد خصاص البيت من كل منظر
القصيدة (١)

وكان على يسأل مصقلة بن هبيرة الشيباني عامله على أرض شيرخرّة مالا عنده فأنكره عليه ولحق بمعاوية ، وكان أخوه نعيم شيعياً مناصحاً لعلي فكتب إليه مصقلة يمينه الأمانى عند معاوية ويستدعيه إلى الشام فوقع الكتاب إلى على فقطع يد حامله ، وكان نصرانياً ، وكتب نعيم إلى أخيه مصقلة هذه الأبيات التي يسفّه بها رأى أخيه — ومسلّكه وتعريضه رجلاً للهلاك ويعلمه بغض الناس له : —

لا ترمين ، هداك الله ، معترضاً بالظن منك ، فما بالي وحلوانا
ذاك الحريص على مانال من طمع وهو البعيد ، فلا يحزنك إذ خانا
ماذا أردت إلى إرساله سفهاً ترجو سقاطاً مرىء لم يُلَفَ وسنانا
عرّضته لعلي إنه أسد يمشي العرّضة من آساد خفانا
قد كنت في منظر عن ذا ومستمع تحمى العراق وتُدعى خير شيبانا

حتى تقحمتَ أمراً كنت تكرهه للراكبين له سراً وإعلاناً
لو كنت أدّيت ما للقوم مضطرباً للحق أحييت أحياناً وموتاناً
لكن لقيت بأهل الشام ملتصيناً بفضل ابن هند ، وذاك الرأي أشجاناً
فاليوم تفرع سن الغرم من ندم ماذا تقول وقد كان الذي كانا
أصبحت تبغضك الأحياء قاطبة لم يرفع الله بالبغضاء إنساناً^(١)

ولما قبل على التحكيم مضطراً ثارت عليه الخوارج وقالت لاحكم إلا لله وكان
عروة بن أدية أول من قالها^(٢) وسرت في القوم ، وعاد على إلى الكوفة فلم يصحبه
إليها الخوارج وأتوا حروراً عليهم شبت بن ربّعي وناقشهم على وابن عباس فلم
يوافقوها جميعاً ثم اجتمعوا بالنهروان بزعامة عبد الله بن وهب الراسبي وأخذوا
يفسدون في الأرض فقتلهم على ، ولما قتل على تزعمهم حيّان بن ظبيان وقصدوا
الكوفة أيام معاوية وعليها المغيرة بن شعبة ، فكان لهم مع معاوية شأن آخر .
أما معاوية فكان سياسياً ليناً واسع الحلم حسن التدبير كريماً ، وقد ظهرت
خلاله هذه مع رعيته ، وخصومه السياسيين ، وتأثر بها ولاته فاستطاع بذلك أن
يمهد الحكومة لنفسه ولأسرته . وقد سجل الشعر ذلك كله ، فلنعرض هنا شيئاً
من شواهد .

(١) لما تزعم حيّان بن ظبيان أمر الخوارج خطب أصحابه يحثهم على
الجهاد والخروج على هؤلاء الولاة الظامة ويقول : —

خليلى ما بى من عزاء ولا صبر ولا إربة بعد المصابين بالنهر
سوى نهضات فى كتائب جمّة إلى الله ما تدعوفى الله ما تفرى
الأبيات^(٣)

وفى السنة الثالثة والأربعين هجرية ، والمغيرة بن شعبة على الكوفة من
قبل معاوية ، همّ الخوارج بالخروج فأنذرهم المغيرة وحذر العشائر أن يحموهم ، ولما

(١) الطبرى ٣٤٤٢ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٣) الطبرى مجلد ٢ ق ١ ص ١٩ طبع أوربة .

كانوا قد نزلوا إحدى دور عبد القيس كره صعصعة بن صوحان مقامهم في عشيرته فلما علم بذلك المستورد بن علفة من زعماء الخوارج عزم على ترك الكوفة بمن معه منهم وقال في ذلك معاذ بن جوين الخارجي : —

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ شري نفسه لله ، أن يترحلا
أقمم بدار الخاطئين جمالة وكل امرئ منكم يُصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فانها إقامتكم للذبح رأياً مضللاً
الآبيات (١)

ولكن المغيرة بعث في قتالهم حتى هدأت ثأرتهم بعدما دوخوا جيوش العراق ، ثم قسا عليهم عبيد الله بن زياد فقتل منهم جماعة بينهم عروة بن أدية فخرج أخوه مرداس في أربعين رجلاً فأرسل إليهم ابن زياد ألفين عليهم ابن حصن التميمي فهزمهم الخوارج وقال شاعرهم في ذلك : —

ألفا مؤمن منكم زعتم ويقتلهم بأسك أربعونا
كدبتم ليس ذاك كما زعتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة يُنصرون (٢)

على أن ابن زياد أرسل إليهم جيشاً آخر هزمهم وقتل أبا بلال مرداساً وذلك في السنة الحادية والستين ، وبقية الكلام على الخوارج في الباب الثالث .

(٢) وأما عن سلوك معاوية مع خصومه ورعيته فالشعر كثير يدل على أناة وحصافة ، واصطناع الحيلة بعكس ما كان عليه ابنه يزيد من صرامة جاهلية تذكرنا بخلال جده أبي سفيان بن حرب .

فقد روى صاحب الأغاني في ترجمة النعمان بن بشير الأنصاري (٣) قال شبيب

عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية فقال : —

رمل هل تذكرين يوم غزال إذ قطعنا مسيرنا بالتمني

(١) نفس المرجع ص ٣٦ .

(٢) ص ١٨٧ .

(٣) الأغاني ج ١٤ ص ١١٩ بلاق .

إذ تقولين عمرَكَ اللهُ هل شيء وإن جل سوف يُسَلِّمَكَ عني
أم هل طمعت يا بن حسان في ذا ك كما قد أراك أطمعت مِني
فقال له معاوية : أين أنت من أختها هند ؟ وأما يزيد فغضب وحمل الأخطل
على هجاء الأنصار فقال : —

وإذا نسبت ابن الفريعة خِلَّتَه كالجحش بين حمارة وحمار
الأيات .

فشكاه النعمان بن بشير إلى معاوية وهدد معاوية فترضاه .

ومرة أخرى وفد الأحنف بن قيس إلى معاوية في جماعة بينهم الحُتَاتُ
الجامشعي ، فأعطى كل رجل مائة ألف وأعطى الحتات سبعين ألفاً ، فرجع إلى
معاوية وقال له : فضحتني في بني تميم ، أما حسبي بصحيح ؟ أو لست ذا رِسْن ؟
أو لست مطاعاً في عشيرتي ؟ فقال معاوية : بلى ، قال فما بالك خسست بي دون
القوم ؟ فقال إني اشتريت من القوم دينهم ووكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان
ابن عفان ، وكان عثمانياً ، فقال : وأنا فاشتر مني ديني ، فأمر له بتمام الجائزة ، فلما
طعن حبس جائزته ، فقال في ذلك الفرزدق : —

أبوك وعمي يا معاويَ أورثا تُراثا فيحتاز التراثَ أقاربهُ
فما بال ميراث الحتات أخذته وميراث حرب جامدٌ لك ذائبه

القصيدة ^(١) وهى شديدة عنيفة لا يحتملها إلا حلم معاوية وسعة صدره
وحكيم سياسته .

وفي السنة الرابعة والأربعين استلحق معاوية زياداً ولقي في هذه السبيل
أذى كثيراً فقد كان ابن مفرغ الحميري مع عباد بن زياد بسجستان فاشتغل عنه
بحرب الترك فاستببطأه ، فأصاب الجند مع عباد ضيق في أعلاف دوابهم فقال
ابن مفرغ : —

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً فنعلفها خيول المسلمين

وكان عباد بن زياد عظيم الاحمية فأنهى شعره إلى عباد ، وقيل ما أراد
غيرك فطلبه عباد فهرب منه وهجاه بقصائد كثيرة فكان مما هجاه به قوله : —
إذا أودى معاوية بن حرب فبشر شعب قعبك بانصداع
فأشهد أن أمك لم تبأشر أباسفيان واضعة القناع
ولكن كان أمراً فيه لبس على وجل شديد وارتياح
وقوله : —

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلفة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زاني
فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان^(١)
فلما مثل أمام معاوية قال له لاتعودن إلى مثلها عفونا عنك ، ونحو ذلك كثير .
(٣) وأما ولاية معاوية فكانوا عوناً له على سياسته ، يسلكون في سبيل
ذلك السماحة والكرم في حينه ، والعنف والقسوة في حينها ، فإذا التجأ من
يطاردونه إلى معاوية وسعه حلمه وعفا عنه ، فهذا فضالة بن شريك يمر بعاصم بن
عمر فلم يقره فيهجوه بقوله : —
ألا أيها الباغي القمري لست واجدا قراك إذا مايت في دار عاصم
الآيات .

فاستعدى عليه عمرو بن سعيد أمير المدينة فهرب فضاله إلى الشام وعاذ
بيزيد بن معاوية فأعاده واستوهبه من عاصم فوهبه له فقال فضالة يمدح يزيد : —
إذا ما قریش فاخرت بقديمها فخرت بمجد يا يزيد تليد
الآيات^(٢)

ووفد النابغة الجعدي على معاوية ، بعدما كان مع علي ، ومدحه فأكرمه ،

(١) نفس المرجع ص ١٩١ .

(٢) الأغاني ج ١ ص ١٧٢ بلاق .

وكذلك وفد الخطيئة على سعيد بن العاص أمير المؤمنين زمن معاوية ومدحه
فأكرمه .

* * *

وخلاصة هذا الفصل أن عهد علي ومعاوية كان عهد الحروب الأهلية حول
الحكومة الإسلامية لمن تكون ؟ وكيف تكون ؟ وأهم حوادث هذا العهد
وقائع الجمل وصفين والنهروان ، إلا أنه وإن انتهت الأوليان باقرار الحكومة
في البيت الأموي ، فإن الثالثة أعقبت نشاط الخوارج الذي لم ينقطع بسرعة ،
وسنرى فيما يلي كيف استجدت حوادث بعثت نشاطاً سياسياً حزبياً وشعراً قوياً
سايره إلى أبعد أماده .

أما في هذه الفترة فقد رأيت أن الشعر كان سجلاً سياسياً شاملاً لكل خطوة
من مقتل عثمان إلى موت معاوية ، تناول السياسة والحرب والنظام الداخلي ،
والنزعات الحزبية أول نشأتها ، والسلوك السياسي عنيفاً صارماً ، أوليناً حازماً .
ونعید هنا ما قلناه من قبل ، ذلك أن بعض نصوص هذا الشعر يبدو سياسة
صريحة مباشرة ، وبعضه يبدو كأنه فنون غنائية خاصة ، ولكن يجب أن يفهم
مثل هذا بدوافعه وغاياته لا بحروفه وجزئياته .

زبانہ دینی
بارہن آئینہ
سفیان



تذييل

في خواص الشعر السياسي صدر الإسلام

نحاول هنا أن نلخص تلك الظواهر التي امتاز بها الشعر السياسي في هذه الفترة التي بدأت بالبعثة المحمدية وانتهت بوفاة معاوية بن أبي سفيان وإقرار الحكومة الإسلامية في هذا البيت الأموي العتيد ، وهي فترة كما رأيت تمثل نشاطاً عاماً في توحيد العرب ، وإقامتهم دولتهم ، وتكوين حكومة إسلامية عامة يرأسها زعيم واحد يرجعون إليه جميعاً في عاصمة واحدة ، وقد تم ذلك كله منذ انتصر معاوية وظفر بالملك ، ثم قضى عهده في إقراره في بيته ، ووضع تقاليدہ الأولى ، والبيعة لابنه يزيد .

وهذه الظواهر مرت متفرقة في غضون هذا الباب ، لذلك نورها هنا مجملة خالية من الشواهد .

وأول ما نلاحظه أن هذا الشعر صار يعمل لغاية عامة تتمثل في جمع القبائل العربية أمة واحدة تخضع لحكومة واحدة ، وتدين بدين واحد يتزعمها حاكم واحد هو الرسول وخلفاؤه بعدما كانت قبائل شتى وإمارات متنازلة .

وقد استحوالت فنونه أيضاً فأخذ الشعر الوثني يزول ، وقام المديح والهجاء والحماسة على معان دينية ونظم سياسية ، وضعف شأن العصبية القبلية ، فقلت المعاني الجاهلية المتصلة بهذه الحمية الممقوتة .

وأخذ الشعور يهذب ويسمو لاتصاله بالأصول الإسلامية والفضائل الخلقية فلا عدوان إلا في سبيل هذا النظام الروحي السامي والزمنى المنظم .

أما عبارات الشعر وصياغته الفنية فقد اضطربت بين القوة والضعف لأن الشعراء الذين شغلوا هذه الفترة مخضرمون أو مغمورون ، والأولون تغير عليهم الجو فلم يستطيعوا مجاراته دائماً ، ومنهم من انصرف عن الشعر إلى القرآن ،

والآخرون قالوه قطعاً في مناسبات شتى ، على أن تأثير القرآن تأخر إلى الجيل الإسلامي الجديد .

وقد خضع الشعر السياسي لأساليب الجدل والمناقضة على أساس الدين ، والحكم ، وشخصيات الولاة ، ومناهجهم السياسية إلى نحو ذلك مما يتصل بالدولة الجديدة .

وقد تغير الشعر السياسي المتصل بالعلاقات الخارجية ، فصار ينشد في وجه جنس أجنبي فارسي أو رومي ، أو مع الجيوش الفاتحة شرقاً وغرباً وقد كان في الجاهلية بين القبائل والإمارات وقاما كان في وجه الأجانب .

وبعد قليل كان الشعر الحزبي فكان بين المهاجرين والأنصار ، ثم بين عثمان ومن ثاروا عليه ، ثم بين علي ومعاوية ، وبين معاوية ومعارضيه ، وكان أساسه عصبية سياسية لم تخل من عصبية قبلية أو نفعية .

وكذلك شغل الشعر بالسياسة الإقليمية في ظل الولاة كزياد بن أبيه وسعيد ابن العاص وعبد الله بن عباس وإن كانت السياسة الإقليمية لم تتضح إلا في زمن الأمويين .

وظهرت فيه العصبية الإقليمية فشعر ينتصر للعراق وآخر للشام وكان هذا أساساً للوطنية فيما بعد .

ويصح أن نقول إن هذه الفترة كان فترة الحضرة السياسية والفنية ، توحدت فيها أمة ، وتكونت دولة ، وأُسست حكومة ، ونشأت أحزاب ، واستجد شعر ، واستقر دين ، وكانت بذلك تمهيداً لنظام ملكي وراثي جديد .

الباب الثالث

في العصر الأموي

تمهيد

رأينا أن المسلمين صاروا في أعقاب (صفين) أحزاباً ثلاثة : الخوارج والشيعة والأمويين أو الجماعة ، وبعد ذلك بقليل تنازل الحسن بن علي لمعاوية عن الخلافة جمعاً للكلمة ودرءاً للشر ، فصار معاوية بذلك ، وبما جاهد ، خليفة المسلمين أو ملكهم الحاكم ، ومن هذه اللحظة عمل على توطيد ملكه ، ثم إقراره في بيته . والحيولة بين الهاشميين وبينه ، وقد جدّ في ذلك ، وسلك له سبل الترغيب والترهيب حتى ظفر بذلك وتوجه بالبيعة لابنه يزيد كما هو معلوم ، وبهذا استقرت الحكومة أموية وأخذت في التاريخ الإسلامي السياسي لوناً جديداً هو هذه الملكية الهرقلية كم لحظ ذلك عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقال فيه عبد الله بن همام السلولي : —

فان تأتوا برملة أو بهند نبأعنا أميرة مؤمنينا
إذا مات كسرى قام كسرى نعد ثلاثة مناسقينا
الآيات (١)

وقد استطاع معاوية مع ذلك أن يهرب الخوارج ويسكت الشيعة ، وينهض بشيء من الفتوح الخارجية ، ولكن بيعة يزيد كانت خرقاً لعهد معاوية مع الحسن بن علي ، وإقامة أرستقراطية أموية ، وانتصاراً للشام على سائر الأقطار الإسلامية ، مما أثار حفيظة عبد الله بن الزبير ، فأخذ يستعد للمعارضة وتكوين حزب جديد ظهر عملياً على أثر وفاة معاوية ، ذلك إلى أن سياسة الأمويين عامة

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٢٩ ورملة وهند بنتا معاوية بن أبي سفيان .

كانت عربية أثارت في نفوس الموالى سخطاً عليهم وتربصاً بهم حتى ساعدوا
اليمينية على إسقاط الأمويين . وهذا معناه أننا أمام عهد جديد في التاريخ الاسلامى
السياسى يمتاز بالأوضاع الآتية : —

أولاً : استقرار الحكومة الاسلامية فى أسرة واحدة هى الأسرة الأموية
يتوارث أفرادها الحكم بعدما كانت حكومة شورية أو تشبه ذلك دون اعتبار
العصبية ، وهذا معناه أن سياسة الدولة تخضع لتقدير هؤلاء الخلفاء وخدمهم ملاحظين
فيها صالحهم حتى لا يذهب عنهم السلطان ، فاحتاجوا بهذا إلى تأييد يسند سياستهم
وأعدوا لذلك الجيوش والعصبيات والمال وحسن الخيلة وقوة الشعر .

ثانياً : كان من لوازم ذلك ولاية العهد ، وهى مسألة ذات حدين ، تفيد فى
عدم الاضطراب عند موت كل خليفة لاختلاف الآراء فيمن يلى شئون الدولة ،
وتضرب فيما بعثت من تنافس حول المرشحين لها ، وتعددهم أحياناً ، وكيد بعضهم
لبعض مما آذى الحكومة نفسها ، وقد تورط فيها من الشعراء وغيرهم مسكين
الدرايمى وجريير والحجاج وقتيبة بن مسلم الباهلى ، إلا أنها عنصر سياسى ظهر أثره
فى الشعر السياسى .

ثالثاً : مسألة الولاة الذين يحكمون الأقاليم الاسلامية باسم الخلفاء ، والقواد
الذين يتزعمون الجيوش الفاتحة شرقاً وغرباً ، كزياد والحجاج وبشر بن مروان
وسعيد بن العاص وآل المهلب وقتيبة بن مسلم الباهلى ، إذ نجد لكثير منهم سياسة
خاصة بعثت شعراً سياسياً ممتازاً ، فالفرزدق ثائر على بعض حكام العراق ،
وجريير يحتمى بالحجاج فيصبح قيسياً ، وآل المهلب يشغلون التاريخ السياسى
والشعرى بقدر ، وقتيبة يصصره سلوكه السياسى ويشير مناقضة بين جريير والفرزدق ،
وكان هذا الشعر سجلاً لسياسة الدولة فى القبائل ، ولمواقف القبائل معاً .

رابعاً : هذه الأحزاب السياسية ذات المناهج النظرية أو العملية أيضاً ، فقد
أخذت تناضل عن آرائها بالسيف واللسان ، وكان منها الشيعة أتباع على والأموية
أنصار معاوية وأسرته ، والزبيرون مشايخ عبد الله بن الزبير والخوارج الذين
ينكرون على أولئك نزعهم الأرستقراطية ويدعون لنظام جمهورى وغيرهم ،

وكل له شعره السياسى ، وشعراؤه الممتازون ، وطابعه الأدبى الخاص .

خامساً : السياسة الخارجية التى تصل هذه الدولة بالروم والترك والفرنجة ما بين الصين والأندلس ، وقد شغلت هذه السياسة فن الشعر إلى حد كبير .

سادساً : هناك عدا ذلك القبائل العربية ومواقفها من الخلفاء والأحزاب ، ثم أولئك الموالى الذين ذكروا دولتهم السالفة وحقهم فى المساواة الاسلامية ، وكانت لهم حجج وآراء دار حولها الشعر المولى السياسى .

وإذا كان لابد من ملاحظة عامة هنا قبل الدخول فى التفاصيل فانا نرى أن الجدل أيام البعثة كان قائماً حول دين أو نظام يبلّغ ويوضع ، ولكنه هنا حول دين ونظام يفسر ويطبّق ، كان هناك بين الجاهلية والاسلام ، وكان هنا بين الأحزاب الاسلامية كيف تكون الحكومة ، وأين تكون ، ومن هذا الحاكم ، وكان الخلاف يبدو إما خالصاً للمذهب والرأى ، وإما متصلاً بالمصالح المادية والعصبية القبلية ، وكان الشعر صفحة ذلك وأداته ، وكان الأمويون أحرص الناس على الملك فبرروا فى سبيله كل وسيلة ، وكان منهم دهاقين السياسة وأساطينها ، وكان الخوارج أصدق الجميع عقيدة وأفناهم فى سبيلها وأقواهم إرادة وأدباً ، أما الشيعة فكانوا وسطاً بين الاثنين ، يحرصون على رأيهم ، ولكنهم لم يُبلوا فى سبيله كالخوارج وربما كان الصواب أنهم أودوا فى سبيله أكثر مما تحمّسوا له حتى استغلهم العباسيون والموالى فأقاموا الدولة العباسية .

ولم يقصر الزبيريون فى جهادهم كما لم يحاول الموالى والمرجئة والمعتزلة محاولة مادية تعتمد على السيف . وكان الشعر حقاً مشتركاً بين الجميع وجدوا فيه متنفساً ووسيلة قوية جميلة ، ولناخذ فى عرض هذه المناحى السياسية فيما صورها الشعر ملتزمين خطة الإجمال .

الفصل الأول

في الخوارج أو في سبيل الجمهورية

— ١ —

ليس من خطتنا هنا أن نفصل القول في تاريخ الخوارج وآرائهم وفرقهم الكثيرة ، فذلك له كتبه^(١) ومواطنه ، وحسبنا أن نشير إلى بعض الملاحظات العامة والاتجاهات التي كانت أبعد أثراً في شعرهم السياسي : موضوعه ومعانيه ، وصياغته الفنية .

يُسَمَّون الخوارج لخروجهم على علي بن أبي طالب حين قُبل التحكيم بينه وبين معاوية فيمن يلى أمر المسلمين ، أو من الخروج اعتماداً على قوله تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله »^(٢) ويسمَّون المحكَّمة لقولهم : « لاحكم إلا الله » أو الحرورية نسبة إلى (حروراء) قرية خرجوا إليها أول الأمر ، وقد يسمون الشُّراة من شَرى بمعنى غضب^(٣) أو لأنهم شروا أنفسهم — أى باعوها — لله تعالى أخذاً من الآية الكريمة « ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله »^(٤) لأن طابع نشاطهم كان الجهاد في سبيل الله وقتال الذين حكموا الرجال في أمر الله ، فحكموا بغير ما في كتاب الله ولا في سنة نبي الله ، فكفروا لذلك وصدّوا عن سواء السبيل^(٥) فالمسلمون في نظرهم كفار ، كما سماهم المسلمون كفاراً أيضاً^(٦) .

(١) راجع في أخبار الخوارج الكامل للمبرد ج ٢ وتاريخ الطبرى ، وابن الأثير ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ، وتراجم شعرائهم في الأغاني .

(٢) سورة النساء آية ١٠٠ .

(٣) القاموس المحيط .

(٤) سورة البقرة آية ٢٠٧ .

(٥) الاخبار الطوال ص ٢٠٦ .

(٦) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٦٢ و ٢٣٧ .

وكثرة الخوارج من الأزد اليمانية ومن تميم المضربية ، وانضم إليهم بعض
الموالى رغبة في مذهبهم القائم على المساواة بين المسلمين ، وألا فضل لعربي على
عجمي إلا بالتقوى وأن الحكومة تكون لكفائها من الرجال دون مراعاة
جنس أو طبقة . نشأوا أول أمرهم حول البصرة وامتازوا ببساطة العيش ، وثقافة
الدين ، لم تقسدهم الحضارة فكانوا مثال الشجاعة ، وصدق العقيدة ، والإخلاص
في الدين ، يرى الأزارقة منهم أن القعود عن القتال إثم ، لا يخافون في الحق
لوماً أو هلاكاً^(١) « وكان في جملة الخوارج لَدَدٌ واحتجاج على كثرة خطبائهم
وشعرائهم ونفاذ بصيرتهم وتوطين أنفسهم على الموت ، فمنهم الذي طعن فأنفذه
الرمح فجعل يسعى به إلى قاتله وهو يقول : وعجلت إليك رب لترضى »^(٢) فإذا
شعروا أن الجدل يؤذى عقيدتهم انصرفوا عنه كارهين^(٣) ، وقد راع عبد الملك
ابن مروان ما رآه عند بعضهم من قوة عارضة كادت تحيله خارجياً^(٤) ، ومنهم
خطباء مصاقع ، وشعراء ممتازون ، وعلماء معدودون .

والخوارج طوائف شتى أشهرها أربعة^(٥) الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق
الحنفي ، ثم النجيدات أصحاب نجدة بن عامر الحنفي ، والاباضية أصحاب عبد الله
ابن إياض التميمي ، ثم الصفورية أتباع زياد بن الأصفر ، وهذا التعدد أساسه
اختلاف في بعض التفاصيل الدينية^(٦) فالنجيدات يقولون بعذر المجتهد إن خطأ ،
وصُلب الدين معرفة الله ورسوله ، والاباضية أهل تسامح ولين مع من خالفهم
من المسلمين ، ولعل الأزارقة أشدهم تحرجاً وإعناتاً لمن خالفهم ، فقد كفروا جميع
المسلمين وأحلوا قتل أطفالهم وحرّموا أكل ذبائحهم ، والاصهار إليهم ، والأخذ
بالتقية ، وكفروا القعدة الذين يقعدون عن القتال ، فلما قال معدان الأيادي : —

(١) نفس المرجع ص ١٢٨ .

(٢) فجر الاسلام ص ٣٠٩ .

(٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢٠ و ١٢٨ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٥٥ .

(٤) المرجع السابق ص ١٥٢ .

(٥) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٧٢ .

(٦) راجع فجر الاسلام لأحمد أمين ص ٣٠٥ .

سلامٌ على من بايعَ اللهَ شارياً وليس على الحزب المقيم سلامٌ
برئت منه الصُّفريّة ، وقالوا : خالفت لأنك برئت من القعد^(١) وتجد في
كامل المبرد^(٢) حواراً بين الأزارقة والنجدية وآخر بين نافع بن الأزرق وعبد الله
ابن الزبير حين دعاه نافع إليه ، تعرف منه قدراً من اختلاف وجوه النظر بين
الجميع . ومع ذلك فكثرة الخوارج على البراءة من الكاذب ، ومن صاحب
المعصية الظاهرة ، والحرص على الجمع بين العقيدة الصحيحة ، والعمل الصالح ،
والتصوف في سبيل ما يعتقدون .

ذلك طرف من تعاليمهم الدينية ، وأما تعاليمهم السياسية فقائمة على أن الخلافة
حق مشترك بين المسلمين يتولاه الصالح للنهوض به من أى جنس أو طبقة ولو كان
قنّاً فليس بلازم أن يكون عربياً ولا قرشياً كما يقول الزبيرون ، ولا هاشمياً كما
تقول الشيعة ، ولا أمويّاً كما يحرص الأمويون ، هم في ذلك على عكس هذه
الارستقراطية الجنسية أو القبلية أو العائلية ، فكانوا دعاة المساواة الإسلامية التي
تمثلها الآية الكريمة : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » التي ضمنها عمران بن
حطان قوله : —

فنحنُ بنو الاسلام واللهُ ربنا وأولى عبادِ الله بالله من شكر^(٣)
ويجب أن يكون الخليفة متمسكاً بهذا الروح الاسلامي وإلاّ عُزل ، وهم
لذلك يصححون خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب وصدر خلافة عثمان ، فلما حمى
الحمى ، وآوى الطريد ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه ، وأوطأ آل أبي
مُعيط رقاب الناس ، وآثرهم بنىء المسلمين^(٤) صار كافراً ، وأما على فكان على
حق منذ بويع حتى حكم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم
فهو بذلك كافر وكذا شأن طلحة والزبير اللذين بايعا عليّاً وهو إمام عادل مرضى

(١) السكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢٠ .

(٢) ج ٢ ص ١٧٦ — ١٨٠ .

(٣) اقرأ ما علق به المبرد على ذلك ج ٢ ص ١٢٧ .

(٤) نفس المرجع ص ١٧٣ .

لم يظهر منه كفر ثم نكثنا بعرض من أعراض الدنيا ، وأخرجنا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرنَ في بيوتهن وكذا معاوية الذي اغتصب ما ليس من حقه ، بل وجميع المسلمين ماعدا الخوارج .

أما عن شعر الخوارج فالقول الفصل فيه أنه كان أصدق صورة أدبية لمذهب ديني سياسي ، لا يشاركه في هذا الوصف شعر آخر لذلك كان أدبهم هو الأدب الاسلامي القوي الجديد على ما ن فصله هنا .

(١) قلنا إن الخوارج احتفظوا بطبعهم البدوي المذهب لم تفسدهم تقاليد الحضارة المترفة ، ولا نزعاتها الفاسدة ، فبقوا صافي الطبع ، سليمي الخلق ، لا تعوزهم الجراة الصارمة ، ولا الصراحة النقيّة ، ثم أضافوا إلى ذلك عقيدة دينية قوية خالصة لا تعرف الهوادة ولا الدنيا ، ولا تعدّ التقيّة شرعة أصيلة ، تدارى بها الجبن والاستكانة ، معنى ذلك أن اجتمع لهم صدق الشعور ، وقوة العقيدة ، وسلامة الخلق والطبع ، وذلك هو الأساس الأول لقوة الشعر وجماله ووضوحه ، وهي الصفات المثالية لأي فن أدبي ^(١) وقد جمعوا إلى ذلك بلاغة القرآن فهم من هذا الجيل الجديد الذي نشأ في ظل الاسلام ، وأخذ بأدابه ، ودرس قرآنه ، واهتدى بسنته ، فصار جيلا إسلامياً جديداً في ثقافته ، ودينه ، ولغته ، وأدبه ، ومنهجه السياسي ، وثمره هذا أن يكون الشعر الخارجي شعراً إسلامياً ، قوياً ، جديداً .

(٢) وشيء آخر هو أن شعراء الخوارج كانوا هم الزعماء أصحاب المذهب ، وهم المجاهدون حملة السيف ، وهم أنفسهم الشعراء ذوو الموهبة والالسان فكان شعرهم يصدر مباشرة عن نفوس صادقة ، مسالمة ، عاملة ، فصيحة ، لذلك كان شعرهم حراً خالصاً بخلاف غيرهم فكان الغالب عندهم أن يكون هناك زعماء

(١) أحمد الشايب : الأسلوب ص ١٧٥ الطبعة الأولى وأصول النقد الأدبي ص ٢٥٤ الطبعة الثانية .

المذهب وشعراء غيرهم يقولون في مذهبهم مخلصين أو ماجورين ، فلم يظفروا في فقههم بما ظفر به شعراء الخوارج عامة من قوة الأسلوب وجماله .

(٣) وهناك أيضاً أن الخوارج الشعراء فرغوا في الغالب لفقههم السياسى هذا ، فلم يرتزقوا بالشعر ، ولم يتناولوا فنوناً أخرى إلا نادراً ، فحولوا جهودهم إلى عقيدتهم وأحالوا المدح ، والهجاء ، والرثاء ، والنسيب والوصف فنوناً سياسية خارجية ، لا يُعنون بما كان يعنى به سائر الشعراء ، إذ كان قولهم نتيجة لعقائدهم ، يستوحونها ليقولوا ويأخذون مما أمامهم في الحياة مادة لفقههم غير محتاجين إلى تقليد السابقين أو مجارة اللاحقين ، ولكنك ترى أن شعراء الشيعة لم يفرغوا لمذهبهم فاشتغلوا بغيره من المدائح والأهاجى والتكسب بالشعر حتى تحوّل الكمية أموياً يدعى الأخذ بالتقية ، وابن الرقيات شاعر الزبيريين ترضى عبد الملك بحجة أنه قرشى وكانت كثرة الأمويين مرتزقة تجرى وراء المال وتضع فيها لكل طالب أو كل مشتر .

(٤) على أننا إتماماً لما سبق ، نجد شعراء الخوارج قد فنت عصبيتهم القبلية والجنسية في عقيدتهم المذهبية ، فكان بنو تميم والأزد يقاتلون ويهجون بنى قرابتهم في جيوش الحكومة الأموية ، والشاعر الخارجى من الموالى — وهو عمرو بن الحصين — نسي فارسيته وشعوبيته في سبيل مذهبه الخارجى ، فلم تر أثر الجنسية في أصل عقيدته ووجهة نظره وإن ظهرت آثارها في فنه الشعري من حيث الصياغة . وأما شعراء الأحزاب الأخرى فلم ينسوا في الغالب أنفسهم ، ولا أصولهم الجنسية أو القبلية كقرشية ابن قيس الرقيات وفارسية ابن يسار .

(٥) وشعراء الخوارج بعد ذلك كله ، أو بسبب ذلك كله ، لم يكونوا من الفحول غالباً ، فالشعر لم يكن عندهم حرفة تجوّد وتُصنع لذاتها ، أو للبراعة الفنية والسبق في مضمار الشعراء المادى ، وإنما كان شعرهم وسيلة لخدمة مذهبهم وثمرتها ، فكان لذلك مقطوعات في أغلب الأحيان ، أو قصائد قصيرة ، وكان ينشأ عند الحاجة إليه كأنه خطابة ترتجل ، فلم يتركوا لنا دواوين خاصة لكل شاعر ، كالكميت ، والأخطل ، وكثير ، وابن الرقيات ، وأما الطرمّاح بن حكيم الخارجى

فديوانه جمع بين شعره الخارجى وفنون أخرى لاتبعد عند كثيرأ .

(٦) وللخوارج أثر آخر فى الشعر السياسى فقد حملوا غيرهم على قول الشعر هجاء لهم ومناقضة ، أو فى سبيل حربهم ومناهضتهم إلى نحو ذلك مما كان صورة حية لاصطدام العواطف ، واختلاف السياسة والرأى ، نذكر من ذلك مثلاً واحداً هنا ونحيلك على المراجع ترى فيها كثيراً جداً^(١) ذلك هو قول الراعى فى لاميته يخاطب عبد الملك بن مروان ويتبرأ من ابن الزبير والخوارج النجدات : —

إِنِّى حَلَفْتُ عَلَى يَمِينِ بَرَّةٍ لَا أَكْذِبُ الْيَوْمَ الْخَلِيفَةَ قِيلاً
مَا إِنْ أَتَيْتُ أَبَا خُبَيْبٍ وَافِداً يَوْمًا أُرِيدُ لِبَيْعَتِي تَبْدِيلاً
وَلَا أَتَيْتُ نُجَيْدَةَ بْنَ عُوَيْرٍ أَبْغَى الْهَدَى فَيَزِيدُنِى تَضْلِيلًا^(٢)

(٧) ومن يقرأ شعر الخوارج يلاحظ أنهم أيدوا مذهبهم بأسلوب (١) خطابى أحياناً (٢) وتقريرى أحياناً أخرى (٣) واحتجاجاً مرة (٤) وثورة مرات . . هاجين أو مادحين أو راثنين أو ناسبين أو واصفين ، وكانوا فى كل ذلك يدورون حول إنكار النظام السياسى ، والتهاون الدينى ، والفساد الاجتماعى وإن ذهب من شعرهم كثير .

أما عن الشعر الخارجى نفسه فيمكن إجمال خواصه الأخرى فى النقاط الآتية: —

(١) شعر الخوارج جديد فى موضوعه فهو شعر مذهب حديث أوجده الإسلام من أساسه وغذاه بأصوله السياسية والدينية كما علمت مما ذكرناه آنفاً ، وهو جديد فى معانيه إذ كانت الآراء والبراهين إسلامية جديدة من القرآن أو السنة لا تمت إلى الجاهلية بسبب ، وإنما كانت إنكاراً لرجعتها فى أكثر الأحيان ، وهو جديد فى غايته إذ كان جهادا فى سبيل الحكم الصالح ، والنظام السليم من الفساد ، ودفع الظلم عن الناس ، وكان جديداً فى خلق رجاله وعواظهم المهذبة الرقيقة القوية سواء فى الجهاد ، والتحاب ، والاخلاص ، وجديداً فى أساليبه

(١) راجع الكامل للمبرد ج٢ أخبار الخوارج وبخاصة الصفحات ١٣٠ — ١٤٠ و ٢١٣ و

٢١٠ و ١٦٤ و ١٨٨ و ٢٠٤ و ٢٢٠ — ٢٣٧ .

(٢) نفس المرجع ص ١٣٢ وجمهرة أشعار العرب .

الرقية ، السلسلة الجزلة التي تعتمد على القرآن في الصياغة حتى إن كثيراً من أبياته ليست إلا تضميناً لآي القرآن الحكيم كما رأينا قبلاً لعمران بن حطان حين قال : —

فنحنُ بنو الإسلام واللهُ ربُّنا وأولى عبادِ الله بالله من شكرٍ
مضمناً قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ^(١) وقول عيسى بن فاتك الحبطي : —

همُ الفئةُ القليلةُ غيرَ شكٍّ على الفئةِ الكثيرةِ يُنصرونَا
فهو معنى قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين » ^(٢) .

(٢) رجدة الشعر هذه أبعدته عن تقليد القدامى أو المعاصرين في الديباجة الغزلية والتخميل وتعدد الفنون في القصيدة الواحدة ، وإذا وجدت الديباجة التقليدية استحالَت إلى صورة تلائم هذا المذهب الخارجى ، فالنسيب ينتهى إلى الفخر بالجهاد ، وحزن عمرو بن الحصين في مطلع قصيدته حوار ينتهى إلى حرصه على الاستشهاد والأسف ألا يموت كأصحابه الشُّراة ^(٣) والنغمة الحماسية تسود القصيدة كلها مهما تختلف فيها الفنون أو المعانى .

(٣) لما كان شعر الخوارج مقطوعات ، تحققت فيها الوحدة الفنية إلى حد بعيد : فالموضوع واحد ، والمعانى من واد واحد ، والصور متشابهة حماسية ، ولم يفرغ شعراء الخوارج للصنعة والافتنان ، وليس لهم قصائد خارجية مطولة إلا قصيدة لعمر بن الحصين في يوم (قديد) سنة ثلاثين ومائة هجرية ، وأخرى في رثاء أبى حمزة الخارجى وعبد الله بن يحيى الكندى طالب الحق ، وكلتاها في صميم المذهب الخارجى تمثل حياة الخوارج وسلوكهم وجهادهم واستشهادهم ، تمثيلاً قوياً صادقاً .

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) البقرة آية ٢٤٩ .

(٣) الأغاني ج ٢٠ ص ١٠٢ .

(٤) ومع ذلك فقد بقي من عمرو بن الحُصَيْن هذا (المولى) الشاعر سمات فنية في شعره ، هي الطول النسبي ، وحسن التنسيق ، وكال الاستقصاء ، وبراعة القصص ، فإن تلك على وجودها في الشعر العربي الخالص لم توجد مجتمعة واضحة كما تتراءى عند عمرو هذا ، فكانت رمزاً لأصله الفارسي ومنهجه الفني الأصيل .

(٥) يلاحظ أن الشخصيات الفنية لشعراء الخوارج متشابهة لا تجد بينها فرقاً كبيراً في الصياغة ، فإذا نسب شعر أحدهم إلى الآخر جاز على كثير من القراء ، وقد وقع الأقدمون في ذلك ^(١) . ولعل سببه هو فناء الشعراء في عقيدتهم وتشبههم بها فخصعوا لسلطانها راضين مغتبطين ، لم يشتغلوا بسواها عنها فاتحد معيّنهم الأول ، وكانت مدرستهم الفنية واحدة هي القرآن الكريم ، وتأثروا بشعور مشترك ، وحوادث واحدة ، فساعد ذلك على قوة المشابهة الفنية دون التماثل التام .

أما تاريخهم السياسي فقد بدأ عقب صفين حين أنكروا التحكيم وانحازوا إلى (حروراء) وأبوا دخول الكوفة مع علي ، فحاول إقناعهم غير مرة فلم يقتنع أكثرهم واجتمعوا (بالنهروان) واستخلفوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي وأخذوا يفسدون في الأرض فذهب إليهم على وقتلهم حتى أبادهم هناك ، وصارت وقعة النهروان عند الخوارج أشبه بوقعة كربلاء عند الشيعة ، كلتاها مبعث الحزن والأسى ، ودافع إلى الثورة والانتقام ، وفي عهد معاوية خرج جماعة منهم بزعامة فروة بن نوفل الأشجعي إلى الكوفة وهزموا جيش الشام ، ثم غلبهم الكوفيون ، وخرج فريق آخر برئاسة حيّان بن ظبيان السامي ودخلوا الكوفة ، ولكن المغيرة بن شعبه نكّل بهم وأخرجهم منها وتبعهم بجيوشه حتى أهلكهم عند (ساباط) فلما تولى زياد العراق قسا عليهم هو وابنه عبيد الله بعده حتى قتل هذا

(١) راجع الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢١ ومهذب الأغاني ج ٣ ص ٢٥٣ تر اختلافاً في نسبة الشعر إلى قطري وأبي خالد القناني وعيسى الخطبي وعمران بن حطان .

عروة بن أدية من زعمائهم فغضب لقتله أخوه أبو بلال مرداس بن أدية وخرج إلى الأهواز في أربعين رجلاً من الخوارج ، فأرسل إليهم ابن زياد ألفين برياسة ابن حصن التميمي ^(١) فهزمت الخوارج فقال في ذلك عيسى بن فاتك الحبطي في كلمة له : —

ألفاً مؤمنٍ فيما زعتم ويهزمهم (بأسك) أربعونا
كذبتهم ليس ذاك كما زعتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة يُنصرون

ولكن عبيد الله بن زياد عاد فأرسل إليهم جيشاً هزمهم سنة إحدى وستين هجرية .

وفي أيام عبد الملك بن مروان كان نافع بن الأزرق الحنفي زعيم الأزارقة قد انتهى من دخول البصرة وغلبة أهلها وإخراج من في السجون من الشراة ثم قتل هو أخيراً .

فلما تولى المهلب بن أبي صفرة حربهم ، وسنده الحجاج الثقفي بالمدد من العراق نشطت الحرب وأبلى فيها الفريقان ، وظهر قطري بن الفجاءة ، وصالح بن مسرح التميمي زعيم الصفرية واستعان الحجاج بجيوش الشام حتى استطاع بعد لأي أن يكسر شوكتهم ولو إلى حين ، فسكنوا حتى إذا استخلف عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك خرج شوذب اليشكري فساله الأول ، وهزمه الثاني سنة إحدى ومائة هجرية فلما كان زمن مروان بن محمد خرج الضحاك بن قيس الشيباني على الأمويين وزحف على الكوفة سنة سبع وعشرين ومائة هجرية وكثرت جيوشه واعتصم (بنصيبين) فهزمته جيوش مروان الثاني ، وأخيراً ظهر زعيم خارجي جديد هو أبو حمزة الخارجي وضم إليه عبد الله بن يحيى طالب الحق وذهب به إلى حضرموت وبايعه بالخلافة وحمله على قتال آخر خلفاء الأمويين ، ثم تزعم أبو حمزة سنة ١٢٩ هـ جيشاً قصد به مكة والمدينة وحدثت بينه وبين

(١) في الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٦٢ أن القائد كان عبيد الله أسلم بن زرعة .

جيش الأمويين موقعة (قديد) انتصر فيها أبو حمزة واحتل المدينة ثلاثة أشهر أحسن فيها السيرة ثم قصد إلى الشام فقابلته جيوش مروان في وادي القرى فهزمته وقتلته ثم سارت إلى اليمن ففعلت بعبد الله بن يحيى ما فعلت بصاحبه ، وكانت هذه آخر نشاط للخوارج في عهد الأمويين ، وقد رأيتهم كانوا شوكة في جانب الدولة لم تسترح منهم كثيراً وكانت من عوامل ضعفهم وزوال ملكهم آخر الأمر .

وفي عصر العباسيين توالى خروجهم من عهد السفاح فالمنصور والمهدي والرشيد وآخر العهد بهم خروج ربيعة المعروف بفروان فأدخل على المقتدر بالله ، ومثله أبو شعيب^(١) ولكن عصرهم الذهبي في الشعر كان زمن الأمويين .

— ٤ —

نتقدم الآن إلى الإلمام بشيء من نصوص الشعر الخارجي والتعريف ببعض شعرائهم من الجانب السياسي لا غير ، وعلى القارئ الرجوع إلى كتب الطبقات والدواوين لعله يظفر بما يرضى رغبته هناك ، وحسبنا هنا الإشارة السريعة ، والتمثيل الموجز .

(١) من شعراء الخوارج عمران بن حطان^(٢) الذهلي من ذهل بن ثعلبة ثم من بكر بن وائل من دعاة الشراة ومقدميهم في المذهب ، رأس القعدة من الصفرية لضعفه بالهرم ، ولكنه كان قبل ذلك نشيطاً كثير التنقل والتفكر ، طلبه الحجاج فلحق بالشام ونزل بروج بن زباع الجذامي وانتسب له أزدياً فلما بدت حقيقته انصرف وترك لابن زباع رُقعة فيها : —

يَا رَوْحُ كَمْ مِنْ أَخِي مَثْوَى نَزَلْتُ بِهِ قَدْ ظَنُّ ظَنُكَ مِنْ لَحْمٍ وَغَسَّانٍ
حَتَّى إِذَا خَفْتُهُ فَارَقْتُ مَنْزِلَهُ مِنْ بَعْدِ مَا قِيلَ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانٍ
قَدْ كُنْتُ ضَيْفَكَ حَوْلًا لَا تَرَوُّعَنِي فِيهِ الطَّوَارِقُ مِنْ إِنْسٍ وَمِنْ جَانٍ

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٣ .

(٢) راجع سائر شعره وأخباره في السكامل المبرد ج ٢ ص ١٢١ و ١٢٣ و ١٢٤ .

و ١٥٥ والأغاني ج ٧ ص ٣ و ج ١٢ ص ١١٤ و ج ١٦ ص ١٥٢ — ١٥٧ .

حتى أردتَ بي العُظمى فأوحشني ما أوحش الناسَ من خوف ابن مروان
الأيّيات .

ثم أتى زُفر بن الحارث الكلابي (بقر قيسية) وانتسب له أوزاعياً ولكن
زُفر عرفه وقال له : أردى مرةً وأوزاعى أخرى ؟ فتركه وهو يقول : —

إن التي أصبحتَ يعيا بها زُفرُ أعيتَ عِماءَ على رَوح بن زِنباعِ
ما زال يسألني حولاً لأخبره والناسُ من بين مخدوع وخدّاع
حتى إذا انجذمت مني حبالُهُ كَفَّ السَّوَالِ ولم يُولعَ باهلاع
فاكفُفْ كما كَفَّ رَوحُ إنني رجلُ إما صميمٌ وإما فُتْعَةُ القاعِ
إلى آخر القصيدة .

وهكذا عاش مطارداً في سبيل مذهبه مدة ما ينكر حقيقة خوف السلطان ،
ويحكى ذلك في شعره كما رأيت أدباً جزلاً ، وخلقاً كريماً ، وكان قد كتب إلى
الحجاج لما طلبه — وكان الحجاج قد عجز عن غزاة الحرورية : —

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعمة ربداءُ تجفل من صغير الصافر
هلاً برزتَ إلى (غزاة) في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعتْ غزاةُ قلبه بفوارسٍ تركت مدابره كأمس الدابر

وينسب إليه هذه الأبيات الدالة على احتقار الحياة والرغبة في الاستشهاد
مثل زميله أبي بلال مرداس بن أدية التميمي : —

لقد زادَ الحياةَ إلى بُغْضاً وحبّاً للخروج أبو بلالِ
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذُرا العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى كحتف أبي بلال لم أبالِ
فمن يكُ همّه الدنيا فانى لها ، والله رب البيت ، قالِ

وقد مرَّ يوماً على الفرزدق وهو ينشد والناس حوله فوقف عليه وقال : —

أيها المادحُ العبادَ ليعطى إن الله ما بأيدي العبادِ
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارحُ فضلَ المقسّم العوادِ

لا تقل في الجواد ما ليس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد^(١)
 فقال الفرزدق : « لولا أن الله شغل عنا هذا برأيه للقينا منه شراً » ، وهذا
 حق لجرأة شاعرنا وقوة فنه ، وقد لقي الفرزدق الشرفلا ولكن من شاعر خارجي
 آخر هو الطير مّاح استطاع أن يقف للفرزدق ويناقضة حاجياً كما يلي . وربما
 حمل على عمران هذا أبيات ، ومن العجب أن عمران هذا تزوج حمزة ابنة عمه
 ليردها عن مذهب الشراة فإذا بها تذهب به إلى رأيهم فجعل يقول فيها الشعر ،
 ومن ذلك قوله : —

يا حمز إني على ما كان من خلقي مثنى بخلات صدق ، كلها فيك
 الله يعلم أنني لم أقول كذباً فيما علمت وأنى لا أزكّيك
 فكان حريصاً على الصدق حتى لا يتورط فيما نهى عنه الفرزدق منذ حين .

* * *

(ب) ومنهم قطري بن الفجاءة^(٢) الشاعر الخطيب من قادة الخوارج
 وبلغائهم دعا لنفسه بالخلافة عشرين سنة حتى قُتل (بطبرستان) سنة تسع
 وسبعين هجرية ، وقد قال في يوم (دُولاب) بين الخوارج وأهل البصرة : —
 لعمرك إني في الحياة لزاهد وفي العيش ما لم ألق أمّ حكيم
 إلى أن يقول : —

ولو شهدتني يوم دُولاب أبصرت
 غداة طفت علماء بكر بن وائل
 وظلّت شيوخ الأزد في خومة الوغى
 فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً
 وطعان فتى في الحرب غير ذميم
 وعُجنا صُدور الخيل نحو تميم
 تعوم وظلنا في الجلال نعوم
 يمجّ دماً من فائظ وكليم
 أغرّ نجيب الأمهات كريم
 وضاربة خدّاً كريماً على فتى

(١) رويت هذه القصة للسيد الحميري مع بشار : راجع ترجمة السيد الحميري في الأغاني

ج ٧ ص ٢٢٩ .

(٢) السكامل للمبرد ج ٢ ص ١٨٢ .

أُصِيبَ بدولابٍ ولم تك موطنًا له أرضُ دولابٍ ودَيْرٍ حميمٍ
 فلو شهدتُنا يوم ذاك وخيلُنا تبيح من الكفار كلَّ حريمٍ
 رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجناتٍ عدنٍ عنده ونعيمٍ
 يجمع قطرى بين رقة النفس ، وحماسة العقيدة ، فاتخذ النسيب وسيلة فنية
 لأداء رأيه ، وتصوير موقفه ، مع حسرة الغربة ، وجلال الشهادة ، في وجه هؤلاء
 الكفار ، وإنما يريد المسلمين .

* * *

(ج) والطَّرِ مَّاح بن حكيم الطائي^(١) شامى النشأة ورد الكوفة في جيوش
 الشام واتصل بأحد الشُّرَاة الأزارقة فدعاه إلى مذهبه حتى اعتقده أشد اعتقاد
 وأصحّه ومات عليه سنة مائة هجرية ، ويمتاز فنه الخارجى بتصوير حياة الشُّرَاة
 في الحرب والسلام كما فعل أبو حمزة الخارجى في خطبته بالمدينة^(٢) ، من ذلك قوله : —

لله در الشُّرَاة إنهم
 يُرجعون الحنّين آونة
 خوفًا ، تبيت القلوب واجفة
 كيف أرجى الحياة بعدهم
 قوم شجاع على اعتقادهم
 وكذلك قوله : —

وإني لمقتاد جوادى وقاذفٌ
 لأكسبَ مالا أو أوول إلى غنى
 فيارب إن حانت وفاتى فلا تكن
 ولكن قبرى بطن نسر مقيله

به وبنفسى العام إحدى المقاذفِ
 من الله يكفينى عداتِ الخلائفِ
 على شرجعٍ يعلى بخضر المطارفِ
 بجو السماء فى نُسورٍ عوا كفِ

(١) الأغاني ج ١٠ ص ١٥٦ — ١٦٠ بلاق والديوان طبع أوربة والشعر والشعراء

طبع مصر ص ٢٢٩ .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ١٣٨ .

وأُمسى شهيداً ثاوياً في عصابة يُصَابون في فج من الأرض جائف
فوارس من شيبان ألف بينهم تقى الله نزالون عند التزاحف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف
والطرماح يجيد المدح والفخر ، له مع الفرزدق مناقضة^(١) ثم هجاء^(٢) ومدح
خالد بن عبد الله القسرى^(٣) ويزيد بن المهلب^(٤) ورثى قتيبة بن مسلم الباهلي^(٥)
ويمتاز شعره السياسى بقوة ووضوح ، وروح إسلامى مذهب ، ورقة وحنين إلى
الاستشهاد شأن إخوانه الشراة .



(د) أما عمرو بن الحصين فكان مولى تميم وشعره الخارجى المأثور متصل
بوقعة قديد^(٦) بين الخوارج أتباع أبى حمزة وبين جيش الدولة برياسة عبد الواحد
ابن سليمان بن عبد الملك قرب المدينة وكانت موقعة عظيمة استشهد فيها كثير من
قريش والأنصار والقبائل والموالى ودخل الشراة المدينة على أثرها دون قتال ،
وبعد أشهر خرج أبو حمزة إلى مكة فداهمته جنود الدولة فقتلته وقهرت أتباعه ،
ثم أقبل من صنعاء طالب الحق عبد الله بن يحيى شيخ أبى حمزة فهزم وقتل أيضاً ،
فقال عمرو بن الحصين يرثيه وأبا حمزة : —

هبت قبيل تباشج الفجر هند تقول ودمعها يجرى
أن أبصرت عيني مدامعها ينهل واكفها على الفجر
ويخلص من ذلك إلى أصحابه ويتمنى أن يسلك سبيلهم فى الشهادة ويصف
سلوكهم على طريقة الطرماح وأبى حمزة : —
متأوهون كأن جمر غضى للخوف بين ضلوعهم يسرى

(١) ديوان الفرزدق ١٣٢ وديوان الطرماح ١٢٩ .

(٢) الديوان ١٤٢ . (٣) ص ١٤٩ .

(٤) ص ١٦٠ . (٥) ص ١٤٧ .

(٦) راجع الأغاني ج ٢٠ ص ١٠٢ و١١١ و١١٣ .

تلقاهم ألا كأنهم خشوعهم صَدَرُوا عن الحشر
 وهم مساعِر في الوغى رجُح وخيار من يمشي على العفر
 حتى وفوا لله حيث لقوا بعهود لا كذب ولا غدر
 وهكذا يستمر ذا كراً أعلام الشُّرَاة من شيعته في قصيدة بلغت خمسة وخمسين
 بيتاً وهو عدد لم نره في قصيدة لغيره من الشُّرَاة ، وكأنه ينظم في بعضها خطبة
 أبي حمزة ويتأثر الشعراء الشُّرَاة ولا سيما الطُّرماح أستاذَه في هذا الفن . والقصيدة
 فيها استقصاء وقصص ، ومزاج فارسي واضح .
 ولعمرو بن الحصين قصيدة أخرى طويلة في هذا المذهب تمتاز بهذه الديباجة
 التي استحالت عنده من هذا الأسلوب التقليدي إلى ذكر الهم مخافة الموت
 قبل الجهاد : —

ما بال همك ليس عنك بعازب يمرى سوابق دمعك المتساكب
 وتبيت تكتلى النجوم بمقلة عبرى تسرّ بكل نجم دائب
 حذر المنية أن تجيء بداهة لم أقض من تبع الشُّرَاة ما ربي
 ويدكر في حماسة أمانيه في الجهاد ، وإيثاره الموت شهيداً لا بين أكف آله :
 في فتيّة صُبر تألفهم به لف القِداح يد المفيض الضارب
 فندير نحن وهم فيما بيننا كأس المنون ؛ تقول هل من شارب
 ويصف حياة الشُّرَاة من ثقى وعبادة وتلاوة وجهاد .
 ومبرئين من المعايب أحرزوا خصل المكارم أتقياء أطايب
 عدّوا صوارم للجلاد وباشروا حدّ الظُّبَاة بآنف وحواجب
 ثم يقص معركة قُديد وبلاء الشُّرَاة فيها : —

سائل بيوم (قُديد) عن وقعاتها تخبرك عن وقعاتها بعجائب
 يمتاز عمرو هذا بطول النفس ، والاستقصاء ، والقصص ، واكتمال عناصر
 القصيدة ، والجزالة في التعبير وهو يلتقي بالطرماح في الوصف وثالثهما أبو حمزة
 في ذلك .

(هـ) ومن شعراء الشُّمُرة عيسى بن فاتك الحبلى^(١) وهو القائل في يوم
(آسك) أبياتاً منها : —

ألفاً مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بآسك أربعونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة يُنصرون
ثم رثى مرداس بن أدية وصحبه لما قتلهم زياد وصلبت رؤوسهم : —
مضوا قتلاً وتمزيقاً وصلباً تحوم عليهم طير وقوع
الأبيات .

* * *

(و) ثم يزيد بن جبناء^(٢) والصلت بن مرة^(٣) وابن المنجب السدوسي^(٤)
والرهين المرادي^(٥) ومرداس بن أدية وغيرهم من المقلين .
والخلاصة أن الخوارج حزب سياسى له رأى خاص في نظام الحكومة
الإسلامية جاهد في سبيله ، وأقلق رجال الدولة الأموية طول عهدها . وقد نشط
شعراؤهم فسجلوا جهاد هؤلاء الشرارة وصوروا حياتهم وآمالهم بشعر إسلامى ،
قوى ، جديد .

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٦٢ .

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ١٠٧ والكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٢٧ .

(٥) ج ٢ ص ١٦٧ .

الفصل الثاني

في الشيعة أو في سبيل الهاشمية

— ١ —

ترجع نشأة هذا الحزب إلى ذلك الفريق من الصحابة الذين رأوا عند وفاة الرسول أن علي بن أبي طالب أحق الناس بخلافته في رئاسة هذه الدولة الإسلامية ، ذلك لقراية على من الرسول ، وإصهاره إليه ، وحسن بلائه في نصرة الدين ، وكفايته الخاصة ، ثم وصاية الرسول له بالخلافة كما ادعوا بعد ، فصار على وارث الرسول في ذلك ولو من الناحية الأدبية حتى إن الأمويين منافسي الهاشمين منذ الجاهلية وعصر البعثة لم يجروا على المطالبة بهذا المنصب الجليل ، بل أخذوا يدفعون إليه بني هاشم على هذا الأساس الأدبي إذا صح ما روى عن أبي سفيان ابن حرب في هذه السبيل^(١) حين قال عقب مبايعة الناس أبا بكر : —

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلا فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن على

ولولا مكانة علي في ذلك ، وتخلف أبي سفيان في الإسلام ، لنظر إليه الأمويون مبكرين ودفعوا عنه أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ولكن علياً مع شعوره أنه أولى بهذه الخلافة ، بايع الخلفاء الثلاثة الأولين بعد تلك نزولا على إرادة المسلمين ، أو خضوعاً لنتائج النظام الانتخابي الذي تمت به مبايعة أصحابه ، ولم نعرف أن عبد الله بن عباس تطلع إلى الخلافة إذ ذاك ولكننا نعرف أنه لما مرض الرسول وأشرف على الموت قال ابن عباس لعلي : أنت والله عبدُ العصا بعد ثلاث .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٦ ص ٧ .

بقي على في عهد أصحابه مستشاراً لهم يرجعون إليه في كثير من أمور الدولة ، فلما استقر الأمر لعثمان ورأى فيه الأمويون استعادة لمجدهم القديم ، قويت فكرة الهاشمية أو العقيدة الشيعية ، حتى إذا قتل عثمان تقابلت الفسكتان في واقعتي (الجمل وصفين) وانتهى الأمر بغلبة الأمويين واستحالة الخلافة ملكاً وراثياً . من ذلك الحين عاش الشيعة حزباً معارضاً للحكومة شأن الخوارج أيضاً ، وصرنا نرى نظاماً دُولياً ينطوى على تأييد ومعارضة ويستتبع سياسة يقضى حازمة حكيمة من جانب الحكام ، وأخرى عنيفة ثائرة أو مهادنة متربصة من جانب المعارضين .

أساس التشيع يدور حول الخليفة مَنْ يكون ، وعند رجاله أن علياً أحق بخلافة الرسول ^(١) ثم بنوه من بعده بطريق التسلسل الوراثي ، ولا حق فيها لغير العلويين . والمسألة إذاً ، هي حبس الحكومة الإسلامية في بيت واحد هو بيت علي من الهاشميين وهذا يخالف رأي الأمويين الذين حبسوها في أسرهم رعاية للكفاية ، واستمراراً لخلافة عثمان ، واستغلالاً لنتيجة التحكيم كما يقولون ، وقد بلغ الأمر بأنصارهم أن يحلفوا للسفاح أنهم ماعلموا الرسول الله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليّ العباسيون الخلافة ^(٢) .

ويخالف أيضاً رأي الزبيريين الذين يرونها لقريش عامة دون الناس جميعاً ودون أن تحبس في بيت قرشي خاص ، ومن يدرى فلعل ابن الزبير كان يقفها على بيته لو تم له الأمر وامتدت به أيام الملك .

ويخالف رأي الخوارج الذين وسّعوا أفقها إلى أبعد مدى وجعلوها حقاً لكل فرد مسلم كفء للنهوض بأعبائها يختاره المسامون ، فالحكومة عندهم جمهورية لاتعرف أرستقراطية الأسرة ولا القبيلة ولا الجنس .

فاذا كان حزب الخوارج كما صوّرنا من قبل ، قد نشأ بين المساميين في أعقاب

(١) راجع المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٧ .

(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٣٣٤ .

صفيين ، فان التشيع أقدم منه ، وكانت مظاهر التشيع ضائلة أول الأمر ولكنها عند الخوارج بدأت عملية قوية علمية صريحة لا تعرف التقية ولا السرية التي غلبت على الشيعة ، نعم إن الخوارج أضفوا مذهبهم على الماضي حين أنكروا قصر الحكومة على قريش أو العرب وحدهم ، وحين أنكروا على عثمان سياسته بعد السنين الستة الأولى من خلافته ، وحين أنكروا من على قبوله التحكيم بعدما بويع بيعة صحيحة ، وكان منهم من رضى بها معه . وإذا كان الخوارج علميين ديمقراطيين شجعاناً فكان أدبهم قوياً ، فان الشيعة كثيراً ما كانوا نظريين يخفون نشاطهم السياسى خوفاً واتقاء للهلكة أو انتهازاً للفرص ، فكان أدبهم حزيناً يبكى هذا الحق المغتصب والملك الضائع .

وكل من الشيعة والخوارج يبغض الأمويين لاغتصابهم حقاً ليس لهم هو حق الهاشميين عند الشيعة ، وحق المسلمين عند الخوارج ، فكانا معاً جبهة المعارضة السياسية ، وإن لم يكونا على وفاق معاً ، بل لم يكونا على صفاء مع ابن الزبير الذى حاربهما ونكّل باتباعهما فى العراق خاصة ، فكان هذا العصر فترة صراع سياسى عام حول الحكومة الإسلامية ونظامها ، وهو صراع أضى الأمويين وذهب بسلاطنتهم آخر الأمر .

وكما أن الخوارج كانوا فرقاً شتى اختلفت فى التعاليم والآراء كما بينا فى الفصل الماضى ، فكذلك كان الشيعة كثيرى الشعب بناء على التعاليم والآراء من وجه ، وعلى تعيين الإمام أو الأئمة من وجه آخر^(١) وأشهر الفرق الشيعية اثنتان : الإمامية والزيدية ، والأولون ينسبون إلى الإمام — أو الخليفة — لأن أكثر تعاليمهم دارت حوله فهو على بطريق النص من الرسول عليه السلام ، وبنوه من فاطمة الزهراء هم الأئمة واحداً بعد واحد ، وأن أبا بكر وعمر اغتصبا حق على فكانا ظالمين يجب التبرؤ منهما . وأما الزيدية فينسبون إلى زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وهؤلاء أقل تشدداً من الأولين فقد حصروا الإمامة فى أولاد فاطمة ، ولم يجيزوها لغيرهم — كمحمد بن الحنفية زوج على وكانت

(١) راجع ما كتبه أحمد أمين عن الشيعة فى كتابيه : فجر الاسلام وضعى الاسلام ج ٣ .

من بنى حنيفة — وإن أشاعوها بين الفواطم الأكفاء من أولاد الحسن أو الحسين ، وجوزوا إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وعلى هذا صححوا خلافة أبي بكر وعمر ، ومن الإمامية فرقة الكيسانية أصحاب كيسان مولى على أو تلميذ محمد بن الحنفية من على بن أبي طالب ، يزعمون أن محمداً هذا حتى لم يمت وأنه مقيم بجبل (رضوى) قرب المدينة يعيش محروساً مرزوقاً حتى يخرج آخر الزمان ليملأ العالم عدلاً كما ملأ ظمأً ، وعلى هذا كان كثير عزة والسيد الحميري من الشعراء .

ومن تعاليم الشيعة التي تتصل بالخلافة الإسلامية أو نظام الحكم في هذه الدولة قولهم بالعصمة ، والتقية ، والرجعة ، والمهدية ^(١) فالأئمة عندهم معصومون من الخطأ ولعلها فكرة فارسية أدخلها الفرس الذين درجوا على أرستقراطية الملوك وتقديسهم لذلك سماها العرب نزعة كسروية ، وأنكرها معتدلو الشيعة وأتمتها الأولون لخالفها الطبيعة الإنسانية ولا سيما في هذه البيئة العربية التي لا تعرف إلا الديمقراطية .

كذلك هناك المهدى المنتظر ، وهو إمام يأتي ليملا الأرض عدلاً بعد موته أو غيبته الطويلة ، أضفاها كيسان على ابن الحنفية كما مر ثم اشتغلها الشيعة ليبدشروا الناس بعودة الخلافة إليهم ، واستردادها من الأمويين ، حتى لا يغمرهم اليأس ، وينسوا الهاشميين ، فتضيع منهم آمالهم أيضاً أو ما يدلون به على الناس من سلطان ديني واجتماعي .

وكانت الرجعة اتساعاً في عقيدة المهدى ، يؤمن بها كثير من الإمامية ويرون أن الرسول وعلماء والحسن والحسين وسائر الأئمة يرجعون إلى الدنيا وكذلك خصومهم كأبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد ابنه ، ويعذب هؤلاء الخصوم الذين اعتدوا على الأئمة ، وغصبوا حقوقهم ، أو قتلوا ثم يموتون جميعاً .

وأما التقية فكانت عند الشيعة من تمام تعاليمهم أو هي وسيلة يسترون بها

ضعفهم ، أو أساليبهم في الدعوة السياسية ، مخافة التنكيل بهم وانقطاع آمالهم وآمال الناس فيهم ، فاعتمدوا عليها انتهازاً للفرص وفسروا بها كثيراً من سلوك أئمتهم ، وبعض آي القرآن الكريم ، وقد علمت أن الخوارج يخالفونهم في ذلك « فالخارجي يعلن الخروج على الإمام في صراحة ولو كان وحده ، ويحاربه ولو كان في نفر قليل مهما يبلغ عدوه من العدد ، ولا يدارى ولا يمارى ، والشيعة يدارى ويحارى ، ويتستر ويتكتم حتى يظن أن الفرصة أمكنته فيظهر » (١) .

— ٣ —

ولنأخذ الآن في نشاطهم السياسى إذ كان مقترناً بقسط وافر من شعرهم السياسى وعاملاً على طبعه بطابعه التأثير الحزين ، والأصل العام لهذا النشاط أن الشيعة يسعون لاسترداد الخلافة من الأمويين إذ كانت حقهم المملوك ، والأمويون يرصدونهم سراً وعلناً ، وينكّلون بهم أشد تنكيل ، وكأن الأمويين رأوا في ثورة الشيعة خروجاً على نظام مستقر ، وحكومة شرعية ، فلا يستحق الثوار إلا القمع حفظاً لكيان الدولة وإقراراً للأمن والنظام ، كانت هناك نزعتان مختلفتان تماماً : نزعة أمية السياسية الخالصة التى تقوم على الواقع والظفر بالسلطان بأية وسيلة ونزعة الشيعة المشربة بروح الحق الإلهى ، والدلّ على الناس بقرابة الرسول ، فكانت نفوس الأمويين قاسية عملية ، وكانت نفوس الشيعة آسية خيالية ، ولولا أن استعان الموالي بمكانتهم من الرسول ما عاد السلطان الهاشمى .

منذ اختلف على ومعاوية استقر الشيعة بالعراق ، فلما قتل علي وتم الأمر لمعاوية سكتوا على مَضَض ثم أثارهم مادأب عليه ولاية العراق من سبّ علي وآله على المنابر فتار لذلك حُجّر بن عدى بالكوفة فأخذه زياد بن أبيه وأرسله إلى معاوية فقتله ، وفي عهد يزيد بن معاوية كان خروج الحسين بن علي فقتله يزيد في كربلاء التى تعد نظيرة النهروان عند الخوارج ، وقد بعثت نكبة كربلاء كثيراً من الأسى للعلويين ، وأثارت شعراً حزيناً ، وقصصاً طويلاً ، وفي أيام

عبد الملك بن مروان كانت حركة التوَّابين للأخذ بشار الحسين يتزعمها سليمان بن صُرد^(١) ولكنهم هزموا في (عين الوردية) سنة خمس وستين هجرية وقتل زعيمهم ، فاستغل ذلك المختار الثقفي وادعى أنه أمين محمد بن الحنفية ووزيره وقام على فلول التوَّابين وجماعة من الموالي المتشيعين ، واستطاع أن يهزم عامل ابن الزبير على الكوفة ويقتل ابن زياد ، ولكن مصعب بن الزبير قتله سنة ست وسبعين هجرية . وفي زمن هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) خرج زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي يريد الخلافة فقتل وصلب وأحرقت جثته^(٢) وقد لقي ابنه يحيى مالتى أبوه .

وقد لقي سليمان بن عبد الملك أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية فراعه ذكاؤه ودهاؤه فبعث إليه من سمه في طريقه ، فعهد هذا بالأمر من بعده — فيما يقال — إلى واحد من آل البيت العباسي الهاشمي أيضاً هو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وبذلك تحول أمر الخلافة من بيت علي إلى البيت العباسي . ولما مات محمد هذا سنة ١٢٤ هـ أوصى بالأمر لابنه ابراهيم فاستعمل ابراهيم أبا مسلم الخراساني رئيساً للدعوة العباسية ولكن مروان بن محمد قتله ، وقبل قتله عهد بالأمر من بعده إلى أخيه السفاح رأس الدولة العباسية .

ولما تم الأمر للعباسيين غضب عليهم العلويون وكونوا جبهة معارضة لهم إذ قد استغلوا اسمهم ضد الأمويين ثم اغتصبوا الخلافة دونهم ، وكانت بين الفريقين أحداث لقي منها العلويون بلاء تمنوا منه عودة أيام الأمويين حتى قال شاعرهم : —

يَا لَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عَادَلَنَا يَا لَيْتَ عَدَلَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ
وهنا تبدل الموقف ، فكان العلويون يحتجون بقرابتهم للرسول ، ولما جاء العباسيون نازعوه هذه الحجة نفسها وقالوا إنهم أشد منهم قرابة للرسول ، فالعباسيون يرجعون إلى العباس عم النبي ، والعلويون ينتسبون إلى علي ابن

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٧ — ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ص ١٤٠ .

عم النبي ، والعم أقرب من ابن العم ، وناقش المأمون يوماً على بن موسى الرضا فسأله : بم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة عليّ من النبي ، وبقرابة فاطمة رضى الله عنها ، فقال المأمون : إن لم يكن ها هنا شيء إلا القرابة ففي خلف رسول الله من أهل بيته من هو أقرب إليه من عليّ ومن هو في القرابة مثله ، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعليّ في هذا الأمر حق وهما حيّان ، وإذا كان الأمر كذلك فإن علياً قد ابتزها جميعاً وهما حيّان واستولى عليّ على ما لا يجب له ، فما أحرار عليّ بن موسى نطقاً^(١) ، هذا من الناحية النظرية . وأما الناحية العملية ، فقد خرج محمد بن عبد الله النفس الزكية أيام المنصور واستولى على المدينة فقتله المنصور ، ثم خرج أخوه إبراهيم بن عبد الله بالبصرة فقتل في قرية قريبة من الكوفة يقال لها (باخمرى) وقتل في هذه المعارك كثير من البيت العلوي ، وقبض على عدد منهم حبسهم المنصور في سرداب على شاطئ الفرات بالقرب من الكوفة لا يصل إليهم ضوء حتى ماتوا . وكان من أثر العلويين ظهور فرقة (الراوندية) شيعة العباسيين ، وكان منهم غلاة ألّوا المنصور .

ثم استمر النزاع بين العلويين والعباسيين أيام المهدي والهادي والرشيد ، وحاول المأمون فيما بعد إنهاء هذا النزاع فعهد بالأمر من بعده لعليّ بن موسى الرضا من العلويين فثار العباسيون لذلك ثم مات عليّ قبل المأمون وسارت الأمور في سبيلها الأصيل .

قلنا إن نشاط العلويين السياسي مقترن بنشاطهم الشعري ، والواقع أن كلا منهما ظاهرة لعقيدة أصيلة هي أنهم أصحاب هذا الملك الذي اغتصبه منهم الأمويون أولاً ثم العباسيون آخراً ، وهذه العقيدة أثارت جدلاً واحتجاجاً بين العلويين وخصوصهم في العهدين جميعاً ، وكان النثر شريكاً للشعر في هذا الجانب العقلي ،

ثم كان هذا النشاط ظاهرة لشعور السخط على هؤلاء الغاصبين ، والحزن على هؤلاء المغضوبين المشردين الذين لا يملكون قوة مادية كالتى يملكها خصومهم ولا يجترئون على الحق كما اجترأ خصومهم فعاشوا يرون الدنيا عليهم وينقمون من السياسة مجافاتها للمقاييس الدينية والخلقية ، وأطلقوا هم وشعراؤهم السنة ساخطة حزينة أثمرت شعراً غلب عليه الحزن حتى فى أبواب الاحتجاج .

ويمكن أن نجمل هنا خواص الشعر الشيعى الذى أدوا به آراءهم وصوروا شعورهم السياسى إلى درجة مقبولة .

✕ (١) كان الشعر الشيعى يجمع بين الاحتجاج والتصوير ، وكان الكميت الأسدى يتزعم ناحية الاحتجاج فى « هاشمياته » وقد لحظ الأقدمون ذلك وعلى رأسهم الجاحظ . فقالوا إن الكميت وطأاً للشيعية ، وفتح لهم باب الاحتجاج لمذهبهم ، وأعلن ما أضمره الناس ، وكان الأصل العام لاحتجاجه هو وغيره قرابة الهاشميين من الرسول لذلك كانوا مظلومين ، ولعل دعبل الخزاعى فى مقدمة الذين نهضوا بالجانب التصويرى المؤثر فى تأنيته التى قصد بها على بن موسى الرضا بخراسان والتى مطلعها : —

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزَلُ وَحْيٍ مَقْفَرُ الْعَرَاصَاتِ (١)
إذ كانت صورة لما ابتلى به العلويون من نكال وهوان .

(٢) كان شعرهم السياسى يظهر فى فنون شتى ، فهو احتجاج وتصوير ، ومديح ورتاء وابتهاال إلى الله ، ثم هجاء لأعدائهم من الأمويين والزيديين والعباسيين ، ولكن هذه الفنون تختصر كلها فى أصل واحد هو الجهاد الأدبى فى سبيل الخلافة العلوية أو حكومة آل الرسول وأوصيائه ذوى الحق الالهى المقدس عند هذا الحزب السياسى .

(٣) والأسلوب مرة هادىء رزين حين يسلك سبيل التقرير والاحتجاج العقلى أو الدينى ومرة ثائر قوى حين يغضب على سلوك الخصوم وينقم منهم ،

وقد يكون رقيقاً حين يبكي آلام العلويين ويصف هوانهم الشديد ، وهو حزين في كل هذه الحالات ، لا يبلغ في القوة أسلوب الخوارج .

(٤) يعد شعر الشيعة أدباً جديداً في موضوعاته ومعانيه وأساليبه ، وإن لم يبلغ طابع الشعر الخارجي نصاعة وحرية . فموضوعه سياسى مذهبي ومعانيه مشتقة من هذه الحقوق المدعاة ، وأساليبه جزلة لاصنعة فيها ، تعتمد على القرآن كثيراً ، وقد لحظ ذلك عبد الملك بن مروان حين قال : يامعشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأجر ومرة بالجبل الأوعر ، ومرة بالبحر الأجاج ، ألا قلتم كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم : —

نهاركم مكابدة وصوم وليلكم صلاة واقترأ
الآيات^(١)

(٥) يختلف شعراء الشيعة عن شعراء الخوارج في بعض الخواص : منها أن شعراء الشيعة لم يختصوا بمذهبهم اختصاص الخوارج ، بل شغلوا بفنون أخرى وغايات نفعية فمدحوا وهجوا وتكسبوا بالشعر وذهبوا به مذاهب عامة أو عادية فالكميت مدح الأمويين وأخذ جوائزهم مدعياً التقية ، وكثير فعل ذلك أيضاً وعرف بالنسيب . ومنها أن شعراء الشيعة نظريون لم يجاهدوا كشعراء الخوارج الذي عدوا أنفسهم شهداء ، ولم يكونوا في الورع والتقى مثل نظرائهم ، فالشيعة ربما زهدوا في زعمائهم أو أئمتهم إشفاقاً عليهم ، ولكنهم طمعوا في غيرهم من ممدوحهم بخلاف الخوارج الذين احتقروا الدنيا وازدروا المال وربما عدوه فتنة وشرأ ، ولهذا الظاهرة النفسية أثرها في قوة الشعر لأنها قوة نفسية في مصدرها . كذلك تتشابه شخصيات الخوارج الفنية لما قدمنا بخلاف شعراء الشيعة فكل نزعته الخاصة الأصيلة ، والتشيع جزء مكمل لها ، ولعل تعلق الخوارج بعقيدتهم كان أقوى فلم يأخذوا بالتقية ، ومهما نقل في حب الشعراء العلويين لزعمائهم فانهم كانوا دون الخوارج على كل حال . وأخيراً نلاحظ أن شعر الشيعة أكثر ، وفيهم شعراء كبار كالكميت وكثير والسيد الحميري ودعبل الخزاعي من

السابقين الأولين ، بخلاف الخوارج فلعل قسما من شعرهم قد ضاع أو أضيع ، ولم يبلغ شعراؤهم مبلغ الآخرين في الشهرة والظهور .

(٦) على أن شعراء الشيعة أفادوا الأدب بما حملوا خصومهم على مناهضتهم وباستمرار عهدهم إلى مدى أطول ، وبمثل هذا الديوان الشيعي الخاص وهو الهاشميات للكميت .

— ٥ —

وكذلك نعرض هنا شيئا من نصوص الشعر السياسي للعلويين خلسال التعريف الموجز ببعض شعرائهم من الجانب السياسي فقط إتماما لهذا الفصل .
(١) فالكميت الأسدي^(١) مضرى شيعي خطيب عالم بآيام العرب وأنسابها ومثالبها متشيع للعلويين احتج لهم بشعره ودافع عنهم ولقى في سبيلهم الأذى حتى سجنه هشام بن عبد الملك لزمه بنى أمية ومدحه بنى هاشم ، ولكنه فر من السجن واستعفى هشاماً فأمنه ، وقد مرَّ بك في (التمهيد) درسنا لهذه الأبيات في الاحتجاج للشيعة : —

يقولون : لم يُورث ولولا ثرائه . لقد شركت فيه بكيل وأرحب

وقد اضطهد في سبيل تشيعه فكان يقول : —

ما أبالي إذا حُفظت أبا القا سم فيهم ملاممة اللوام
فهم شيعتي وقسمي من الأمة ، حمبي من سائر الأقسام
إن أمت لا أمت ونفسي نفسا ن من الشك في عمي أو تعامى

فلما خرج زيد بن علي أيام هشام كتب إلى الكميت اخرج معنا ، ألت القائل : ما أبالي . . البيت ؟ فكتب إليه الكميت : —

تجودُ لكم نفسي بما دون وثبة تظلُّ لها الغربان حولى تحجلُ

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١١٣ وخزانة الأدب ج ١ ص ٦٧ والشعر والشعراء ص ١٣٩

وهذا يدل على أن تشييعه كان محدوداً من الناحية العملية ، وما أشبهه في هذا بحسان بن ثابت الذي كان شجاعاً بلسانه لا بجنانته شأن كثير من الشعراء ^(١) ومع ذلك فقد هجا أمية ودعا عليهم ، وتمنى حاكماً هاشمياً مكانهم حيث يقول : —
 فقلْ لِبْنِي أُمِيَّةٍ حَيْثُ حَلُّوا وَإِنْ خَفَتِ الْمَهْنَدُ وَالْقَطِيعَا
 أَجَاعَ اللَّهُ مَنْ أَشْبَعْتُمُوهُ وَأَشْبَعُ مِنْ بِجَوْرِكُمْ أَجِيعَا
 بِمَرْضَى السِّيَاسَةِ هَاشِمِي يَكُونُ حَيًّا لِأُمَّتِهِ رَبِيعَا
 أنشأ قصائده « الهاشميات » في الاحتجاج لبني هاشم على خصومهم وعرض أولها على الفرزدق فأشار عليه باذاعتها : —

طربتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطربُ ولا لعباً مني وذو الشيبِ يلعب
 ولم يُلْهِني دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يتطربني بَنَاتُ مُحْضَبٍ
 ثم يقول بعد هذه الديباجة القديمة في شكلها دون موضوعها : —
 إلى النفرِ البيضِ الذين بحبهم إلى الله فيما نابني أتقربُ
 بني هاشم رهطِ النبي فأنى بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
 وكان الكميت يصطنع التقية فقد دخل على أبي جعفر محمد بن علي فقال :
 يا كميته ؛ أنت القائل : —

فَالآنَ صِرْتُ إِلَى أُمِّيَّةٍ وَالْأُمُورُ إِلَى مَصَايِرُ
 قال نعم ، قد قلتُ ، ولا والله ما أردت به إلا الدنيا ولقد عرفت فضلكم ،
 قال : إن قلت ذلك إن التقية لتحل .

ومن خير هاشمياته قوله : —

أَلَا هَلْ عَمَّ فِي رَأْيِهِ مُتَأَمِّلُ وَهَلْ مُدْبِرٌ بَعْدَ الْإِسَاءَةِ مُقْبِلُ
 وَهَلْ أُمَّةٌ مُسْتَيْقِنُونَ لِرُشْدِهِمْ فَيَكْشِفُ عَنْهُ النِّعْسَةَ الْمُتَزَمِّلُ
 إلى آخرها .

وهي تمثل مذهباً تقريرياً وعظيماً مع نغمة شاكية حزينة هي طابع الشعر السياسي الشيعي .

لما غضب خالد القسرى والى الكوفة على الكميت لهجائه اليمن احتال خالد فأبلغ هشاماً قصائد الكميت الهاشميات فكتب إليه الخليفة بقطع لسان الكميت فهرب هذا إلى الشام مستجيراً فأحضره هشام وقال له : يا كميـت أنت القائل : —

وإلاَّ تقولوا غيرها تتعرفوا نواصيها تردى بنا وهي شربُ
فأخذ الكميـت يعتذر خطيباً وشاعراً ويقول : —

أبني أمية إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتي لكل ملة وعشيرتي دون العشائر
فقال له هشام : أنت القائل : —

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها ويا حاطباً في غير حبلك تحطب
فقال : بل أنا القائل : —

إلى بيت أبي مالك مناخ هو الأرحب الأسهل
الأبيات .

فقال له هشام : أنت القائل : —

فقل لبني أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعة
الأبيات .

فقال له لا تريب يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تمحو عني قولي الكاذب ،
قال : بماذا ؟ قال بقولي الصادق : —

أورثته الحصان أم هشام حسباً ثاقباً ووجهاً نضيراً
إلى آخر ما مدحه ، فرضى عنه هشام وصرف عنه خالد القسرى .

الكميت شاعر الشيعة الأول أيام الأمويين ، مدح الهاشميين واحتج لهم ،

وهجا اليمن في سبيلهم ، ثم أخذ بالتقية فمدح أمية بعد هجائهم وأخذ جوائزهم وكان تشيعه مزيجاً من المحبة لهم والاشفاق عليهم ، وقد مال أسلوبه إلى التقرير ، ولعل شعره في فنونه الأخرى أجمل فكان ذا مذهبين فنيين مع غريب في لغته وإلمام بتاريخ العرب وشعرهم القديم .

* * *

(ب) أما كثير عزة^(١) فأزدى متشيع كيسانى يؤمن بالرجعة والتناسخ ، عرفت أمية مذهبه واحترموه لمكانته ، دعا صديق له بالموسم للعلو بين ققتله الناس فرثاة كثير رثاء حراً صادقاً فيه وفاء ، منه قوله : —

أصادرة حجاج كعب ومالك على كل عجلي ضامر البطن محنق
بمرتية فيها ثناء محبر لأزهر من أولاد مرة معرق
ينال رجالاً نفعه وهو منهم بعيد كعيق الثريا المعلق
ولما حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية في سجن (عارم) قال كثير

لابن الزبير : —

تخبّر من لا قيت أنك عائد بل العائد المظلوم في سجن عارم
وقال كثير في محمد بن الحنفية على مذهبه الكيسانى الذى ذكرناه قبلاً : —
ألا إن الأئمة من قريش ولأه الحق أربعة سواء
على والثلثة من بنيهم هم الأسباط ليس لهم خفاء
فسيب سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

وله شعر آخر في مذهبه هذا ، وكان يرى أن الزبيريين والأمويين عصاة وقود النار . ولما مدح كثير عمر بن عبد العزيز لم يسلم شعره فيه من التشيع بالإشارة إلى نهى عمر عن سب علي : —

وليتَ فلم تشتم عليّاً ولم تُخفَ
وقلتَ فصدّقتَ الذي قلتَ بالذي
بريّاً ولم تتّبع مقالة مجرم
فعلتَ فأضحى راضياً كلُّ مسلم

اشترك كثير والكमितُ في التشيع ومدح الهاشميين ، وكلاهما أخذ بالتقية
ومدح الأمويين إلا أن الكमित مدحهم متأخراً مرغماً ، وكثيراً مدحهم راعباً
محترماً ، والكमित هجا أمية ولا نعرف ذلك لكثير وإن لم يكن راضياً عن
منهجهم السياسي ، وكان الكमित أوضح احتجاجاً وأكثر شعراً مذهبياً ، ولم
يفرق كثير في فنه بين شخصيته السياسية والاجتماعية .



(ج) أيمن بن خريم الأسدي^(١) من أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس
من مضر كان يتشيع وكان أبوه قد اعتزل حرب الجمل وصفين وما بعدها من
الأحداث فلم يحضرها ، وهو الذي أعجب بشعره عبد الملك بن مروان لجدة معانيه
وصوره وملاءمتها لمذهبه السياسي وذلك حيث يقول أيمن في الهاشميين : —

نهـاركُم	مكابدة	وصومٌ	وليئـلكُم	صلاة	واقترأُ
وكيـتم	بالقُرآن	وبالتزكى	فأسرعَ	فيكُم	ذاك البلاء
بكي نجدُ	غداة غدٍ	عليكُم	ومكةُ	والمدينة	والجِواء
وحق لكل	أرض فارقوها	عليكُم	لا أبالكُم	، البكاء	
أجعلكُم	وأقواماً	سواءً	وبيـنكُم	وبيـنهم	الهـواء
وهم أرض	لأرجلكُم	وأنتم	لأرؤسهم	وأعينهم	سمـاء

وقد مدح الأمويين ، واتصل بعبد الملك ، ودخل مصر مع نصيب على
عبد العزيز بن مروان ومدحه ثم تركه غاضباً إلى بشر بن مروان بالكوفة ومدحه
معرضاً بعبد العزيز : —

ركبتُ من المقطم في جُمادى إلى بشر بن مروان البريدا
الأيات .

قال له عبد الملك خذ هذا المال وانطلق فقاتل ابن الزبير فإن أباك كانت له حجة ، فأبى وقال : —

ولستُ بقاتل رجلا يصلّى على سلطان آخر من قریش
له سلطانة وعلى وزرى معاذ الله من سفه وطيش
أقتل مسلماً وأعيش حياً فليس بنافعى مادمت عيشى
أعین إذاً ، كان شیعياً بقلبه ، مؤمناً بمكانة الهاشميين ، مفضلاً لهم على
سواهم ، وكان أمویاً بعقله ينتفع بصلته بهم ويسالمونه ويترضونه ، ولكنه مع
ذلك مسلم ، متخرج ، محاید ، يفرق بين الدين والسياسة فلا يبيع دينه فى سبيلها ،
ولا شأن له فيما تقتتل عليه الأحزاب من سلطان ، وظاهر أنه كان كأبيه ، يكره
الفتن والقتال ويحرص على المال : —

إن للفتنة ميطاً بيننا فرويد الميط منها تعتدل
فاذا كان عطاء فارتهم وإذا كان قتال فاعتزل
إنما يسعرها جاهلها حطب النار فدعها تشتعل

* * *

فلما كان العصر العباسى لم ينقطع التشيع وإن تغيرت بعض أوضاعه ، ولم
ينقطع شعره السياسى أيضاً . وذلك أن الهاشميين الذين كانوا جبهة المعارضة أيام
الأمويين انقسموا هنا شعبتين : عباسيين بيدهم الملك وعلويين هم المعارضة لأن
الملك حقهم المغصوب ، وبذلك كان الشعراء السياسيون هنا فريقين أيضاً ،
علويين ، وعباسيين ، وسلكوا جميعاً مسلك السابقين من احتجاج وتصوير وبلغوا
فى ذلك مدى بعيداً . فمن العلويين : —

(١) السيد الحميرى^(١) وهو شاعر مطبوع ، كثير الشعر ، كيسانى المذهب ،
جمع بين التعصب للعلويين تديناً ، ومدح العباسيين تكسباً ، وهجاء أصحاب

الرسول كآبى بكر وعمر فى سبيل تشيعه وأكثر فى كل ذلك وبالغ فيه ، فلما استقام الأمر لبني العباس قام السيد إلى السفاح حين نزل عن المنبر فقال :

دُونَكُمْوَهَا يَا بَنِي هَاشِمٍ فَجَدُّوْا مِنْ عَهْدِهَا الدَّارِسَا
دُونَكُمْوَهَا فَالْبَسُوا تَاجَهَا لَا تَعْدَمُوا مِنْكُمْ لَهَا لَابِسَا
لَوْ خَيْرُ الْمَنْبَرِ فِرْسَانَهُ مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسَا
قَدْ سَاسَهَا قَبْلَكُمْ سَاسَةً لَمْ يَتْرَكُوا رَطْبَهَا وَلَا يَابِسَا

فهو هنا هاشمى يتنفس فى ذلك الأفق الواسع الذى يشمل العلويين والعباسيين أو هو عباسى على أساس التقية أو النفعية ، ولكنه هو القائل : —

أَمْرٌ عَلَى جَدَّتِ الْحُسَيْنِ فَقُلْ لِأَعْظَمِهِ الزَّكِيَّةُ
أَعْظَمًا لَا زَلَّ مِنْ وَطْفَاءٍ سَاكِبَةٍ رَوِيَّةُ
وَإِذَا مَرَرْتَ بِقَبْرِهِ فَأُطِّلْ بِهِ وَقِفْ الْمَطِيَّةُ
وَابْكِ الْمَطْهَرُ الْمَطْهَرُ وَالْمَطْهَرَةُ النَّقِيَّةُ
كَبْكَاءُ مُعَوَّلَةٍ أَتَتْ يَوْمًا لِوَاحِدِهَا الْمَنِيَّةُ

وينسب إليه فى ابن الحنفية قصيدة فيها أبيات كثير السابقة ، ومع ذلك فإن آخر قصائد السيد الحميرى ناطقة بكيسانته أيضا . وهى نظم لما سمعه من أن النبى قال لعلى عليه السلام : إنه سيولد لك بعدى ولد وقد نخلته اسمى وكنتى فقال من قصيدة : —

أَلَمْ تَرَ أَنَّ خَوْلَةَ سَوْفَ تَأْتِي بَوَارِي الزَّنْدِ صَافِي الْحَمِيمِ نَجْدِ
يَفُوزُ بِكَنِيَّتِي وَاسْمِي لِأَنِّي نَخَلْتُهُمَا ، هُوَ الْمَهْدَى بَعْدِي
يَغِيَّبُ عَنْهُمْ حَتَّى يَقُولُوا تَضَمَّنَهُ بِطِيْبَةِ بَطْنِ لَحْدِ ..

القصيدة . وقد حرّض المهديّ على حرمان آل عمر بن الخطاب من العطاء بقوله : —

قُلْ لِبَنِي عَبَّاسٍ سَمَّى مُحَمَّدٍ لَا تَعْطِيْنَ بَنِي عَدَى دَرَهَا
إِنْ تَعْطِيَهُمْ لَا يَشْكُرُوا لَكَ نِعْمَةً وَيَكْفُتُوكَ بِأَنْ تُدَمَّ وَتَشْتَمَا

ولئن منعهمو لقد بدءوكم بالمنع إذ ملكوا وكانوا أظلماء
ونظم السيد الحميري حادثة (غدير خم) وهى ما تزعمه الشيعة من أن النبي
عليه السلام قال لعل ذلك اليوم : من كنت مولاه فعلى مولاه ، فقال : —
عجبت من قوم أتوا أحدا بخطاة ليس لها موضع
قالوا له لو شئت أعلمتكم إلى من الغاية والمضرع
إلى أن يقول : —

من كنت مولاه فهذا له مولى فلم يرضوا ولم يقنعوا

* * *

(ب) دعبل الخزاعى^(١) — هجاء متشيع غلا فى الرفض وأنكر على الرشيد
ما كان يتناول به العلويين من الحبس والأذى حتى أنساه معروفه فهجاه ومن
بعده من الخلفاء والوزراء والكتاب والقواد ، فعاش لذلك مشردا طريدا
يقول : أنا أحمل خشيتى على كتفى منذ خمسين سنة لست أجد أحدا يصلبنى
عليها . مدح العلويين وندب قتلاهم ورثى موتاهم تقربا وزلفى إلى الله ، مدح على
ابن موسى الرضا بخراسان بقصيدة مطلعها :

مدارسُ آياتِ خلت من تلاوة	ومنزل وحى مقفَرُ العرصاتِ
لآل رسول الله بالخيف من منى	وبالركن والتعريف والجمراتِ
ألم تر أنى من ثلاثين حجة	أروح وأغدو دائم الحسراتِ
أرى فيئهم فى غيرهم متقسما	وأيدىهم من فيئهم صفيراتِ
فآل رسول الله نحف جسومهم	وآل زياد حفل القصراتِ
بنات زياد فى القصور مصونة	وآل رسول الله فى الفلواتِ
إلى آخرها .	

وبكى الحسين فى رثاء طويل يقول فيه : —

رأسُ ابنِ بنتِ محمد ووصيِّه يا للرجال على قناة تُرفعُ

والمسلمون بمنظر وبسمع لاجازع^١ من ذا ولا متخشع
أيقظت أجفانا وكنت لها كرى وأتمت عينا لم تكن بك تهجع

* * *

كذلك وجد شعراء آخرون انتصروا للعباسيين على الطالبيين ، نذكر منهم :
مروان بن أبي حفصة^(١) ، جده مولى فارسي لعثمان بن عفان وهبه لمروان بن
الحكم . نشأ آخر الدولة الأموية ، واشتهر شعره في خلفاء بني العباس فأثروه
وأسنوا له الجوائز لرده على العلويين الطامعين في الخلافة ، وذلك قوله من قصيدة
يمدح بها المهدي عند ما عقد البيعة لابنه الهادي : —

يا بنَ الذي ورثَ النبي محمداً دونَ الأقارب من ذوى الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم قطع الخصام فلات حين خصام
أني يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثته الأعمام
القصيدة ، فكان البيت الأخير هذا صاعقة على العلويين ولكنه أهلك
مروان . وقد ذكرنا ذلك من قبل . وهناك أبان بن عبد الحميد^(٢) الذي قلد مروان
في اصطناع التشيع جرياً وراء المال ، ولكنه لم يبلغ مبلغه .

* * *

وإخلاصة أن الشيعة حاولوا إقامة حكومة في البيت الهاشمي يصفون عليها
قداسة دينية ، ويسندونها بقرابتهم للرسول وجدوا في ذلك معارضين بني أمية
فلم يفوزوا بها إلا بعد آلام وضحايا حتى إذا ظفروا بها انقسموا على أنفسهم فقام
العلويون بمعارضة العباسيين وقام الشعر السياسي يسجل هذا النشاط فكان هاشمياً
في العهد الأول وعلوياً في العهد الثاني ، وإن كان المعروف أن الثورة في العهدين
كانت تهب باسم علي وبنيه ، وكانت مناهضتهم أمويةً أولاً ثم عباسية أخيراً .
فكسب الأدب من ذلك كله شعراً جديداً قوياً حزيناً .

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٧١ دار الكتب .

(٢) الأغاني ج ٢٠ ص ٧٣ — ٧٨ بلاق .

الفصل الثالث

الزُّبَيْرِيُّونَ أَوْ فِي سَبِيلِ الْأَرِسْتَقْرَاطِيَّةِ

— ١ —

ينسب هذا الحزب إلى عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى من قريش ، أبوه الزبير بن العوام حوارى رسول الله وأحد رجال الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليكون من بينهم خليفة المسلمين بعده ، وإحدى جداته صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول عليه السلام ، والأخرى خديجة بنت خويلد زوج النبي ، وأمه أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة أم المؤمنين ، ولد عبد الله بعد الهجرة بعشرين شهرا وقيل : هو أول مولود بالمدينة في الإسلام ^(١) وقد نشأ في ظل الإسلام وناصره مخلصا مجدا واشترك في أحداثه ، وآخر ما نراه من ذلك أن ولاء عثمان بن عفان على الدار يوم الدار ^(٢) ولعله استأنس بذلك فيما بعد حين طلب الخلافة لنفسه أيام يزيد بن معاوية . وربما استأنس بما سبق ذلك من اختيار أبيه بين رجال الشورى وقول عمر لهم : « لا يكون هذا الأمر إلا فيكم » . ثم رأيناه أيام عليّ يعارضه ويسفد خروج عائشة — خالته — ومعها أبوه الزبير ، وطلحة بن عبيد الله ، وبعض الأمويين ، حتى كانت حريصة على إسناد الخلافة إليه حين قالت لمروان بن الحكم : « فليصل بالناس ابن أختي » ، ولعلها استأنست في ذلك بما فعل الرسول عليه السلام مع أبي بكر حين قدمه للصلاة فكان ذلك من مؤهلاته للخلافة .

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٩٦ — ٩٩ .

(٢) دار عثمان بن عفان التي لزمها لما قامت الفتنة عليه فحصره الثوار فيها حتى قتلوه

فسمى يوم الدار .

ويظهر أن هزيمة عائشة يوم الجمل ، وهلاك أبيه في أعقابه ، جعله يستكن ، فلما تم الأمر لمعاوية استطاع معاوية أن يترضى ابن الزبير ، ويسايره حذرا ، بما يغدق عليه من عطاء . ويشركه في حرب الروم سنة خمسين هجرية تحت إمرة يزيد بن معاوية . ولما عقد معاوية البيعة لابنه يزيد كان ابن الزبير من الذين خالفوا عن بيعته ، وقالوا لمعاوية إما أن تترك الأمر للمسلمين كما فعل الرسول ، وإما تعهد إلى رجل من قاصية قریش ليس من نبيك كما فعل أبو بكر وإما أن تجعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولدك كما فعل عمر ، ولكن معاوية أتم البيعة لابنه ، وأحال الخلافة ملكا وراثيا ، وحذر يزيد ، قبيل وفاته ، من ابن الزبير .

— ٢ —

فلما تولى يزيد الخلافة اعتصم ابن الزبير بمكة ودعا لنفسه بالخلافة سنة ثلاث وستين هجرية وبخاصة بعد مقتل الحسن والحسين ، ولكن محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وجماعة من بنى هاشم أبوا بيعته ، فحبس محمد بن الحنفية وجماعة من الهاشميين في سجن (عارم) ، وكان ابن الزبير يدعى (العائد) لأنه عاذ بالبيت المحرم بمكة ، فقال كثير في ذلك : —

تَجَبَّرَ مَنْ لَاقَيْتَ أَنَّكَ عَائِدٌ بَلِ الْعَائِدُ الْمَظْلُومُ فِي سَجْنِ عَارِمٍ
سَمِيَ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى وَابْنُ عَمِّهِ وَفَكَكَ أَغْلَالُ وَقَاضَى مَغَارِمِ
وكان أيضا يسمى (المحل) لإحلاله القتال في الحرم ، وفي ذلك يقول رجل من الشعراء في رملة بنت الزبير : —

أَلَا مَنْ لِقَبْلِ مُعْنَى غَزَلٍ بِذِكْرِ الْحُمْلَةِ أَخْتِ الْحَلِّ (١)
ولكن المختار التقى وجه رجالا من الشيعة فكسروا باب السجن وأخرجوا

منه بنى هاشم وساروا بهم إلى مأمنهم . ولذلك كان ابن الزبير يكره بنى هاشم وجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر وأسقط ذكر النبي من خطبته ، فلما عوتب في ذلك قال : رأيت هذا الحى من بنى هاشم إذا سمعوا ذكركم اشترأت قلوبهم ، وأبغضُ الأشياء إلى مايسرهم ، ثم قال لهم لتبايعنَّ أولاً حرقنكم^(١) ، معنى هذا أنه كان يكره الأمويين والهاشميين ، فكلاهما كان حريصاً على الملك لنفسه ، ولكن ابن الزبير كان مثلهم في ذلك ، بل لعله كان أشد منهم حرصاً على هذه الدنيا ، كذلك قال عبد الله بن عمر بن الخطاب حين دعتة إلى مبايعته زوجه صفية بنت أبي عبيد ، قال لها : « أما رأيتِ بَغَلَاتِ معاوية اللواتي كان يحج عليهن الشُّهْبَ ، فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن »^(٢) وقد تم الأمر له في الحجاز واليمن ومصر والعراق وكاد يتم له في الشام لولا تدارك الأمويين في (مرج راهط) ولكنه بقي خليفة تسع سنين يولى الولاية ويجبى الخراج وكان مصعب أخوه سنده الأول فلما ذهب إلى الكوفة خطب خطبته المعروفة التي اقتبسها من القرآن الكريم في تحدى الأمويين^(٣) فلما تولى عبد الملك بن مروان ذهب بنفسه إلى العراق وحارب مصعباً فهزم جيشه وقتله عند (باخمري)^(٤) بعدما اختل أصحابه وذلك سنة إحدى وسبعين ، ثم وجه الحجاج إلى مكة فقاتل ابن الزبير وقتله أيضاً سنة ثلاث وسبعين وبذلك انتهى حزب الزبيريين وانتهت معه زعامة الحجاز إذ ذاك .

ويمكن تصوير الروح العام لحزب الزبيريين في النقاط الآتية : —

أولاً : يدعى ابن الزبير أن معاوية خرج على نظام الشورى الإسلامى وولى ابنه يزيد العهد وهذا خطأ أو سنة هرقلية غريبة لا تتفق وحرية الإسلام ، كذلك كان يمت الهاشميين لتشبههم بالخلافة ولو نظرياً ، لأن ذلك يعطل نشاطه

(١) نفس المرجع .

(٢) الأغاني ج ١ ص ٢٣ طبعة دار الكتب .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ١٣٥ .

(٤) بين واسط والكوفة .

وقد حدث ذلك حين أعرض عنه ابن الحنفية ، واعتمد على ذلك المختار الثقفي وثار على ابن الزبير باسم الكيسانية وإن هُزم آخر الأمر ، على أن ابن الزبير نفسه لم يحصل على خلافته إلا بشكل خطابي ، فلم يكن ممتازاً فيه بشيء^(١) .

ثانياً : يفهم من سلوكه أنه كان يكره انتقال الحكومة إلى الشام ويؤثر بقاءها في الحجاز مسيطرة لعهد الخلفاء السابقين ، ولعله كره الشام لمكانة الأمويين هناك وكره العراق لأنه مستقر الشيعة ، لذلك اعتصم بمكة وطرد الأمويين من المدينة وسمى نفسه العائد كما سبق ، ولعل في هذا روح القرشية أيضاً كما هو منهج شاعره عبيد الله بن قيس الرقيات^(٢) .

ثالثاً : كان ابن الزبير يحرص على هذه الأرستقراطية القرشية فلتكن الحكومة في قريش ، وليسند لها في ذلك المضربة ، وكان هذا منه معارضة للأمويين الذين استأثروا وحدهم بالملك واستعانوا اليمنية وذلك بإصهار معاوية إلى بني كلب منهم فصاروا أحوال يزيد أبنه — أمه ميسون بنت بحدل الكلبية — وقبله أصهر إليهم عثمان بن عفان بزواجه نائلة بنت الفرافصة . ولكن في أي قريش تكون الحكومة ؟!

رابعاً : كان ابن الزبير مناهضاً للأمويين والهاشميين كما رأيت ، وكان مناهضاً للخوارج الذين انصرفوا عنه لما أبى متابعتهم فيما يذهبون إليه من هذا النظام الجمهوري العام وقد حاربهم في هذه السبيل ، لذلك ترى أن الأمر كان منافسة بين يموتات قريش في الظفر بالسلطان ، هي أرستقراطية خاصة داخل أرستقراطية عامة .

خامساً : لم يطل الوقت با بن الزبير ورهطه لتظهر بشكل عملي نواياه في مسألة أخلافه في هذا السلطان ، فقد قضى مدته في تأسيس وحروب ، ثم قضى وتبعه حزبه دون تفكير في استمراره ، كذلك لم يترك لنا دعاة ينهضون بإقرار

(١) الأغاني ج ١ ص ٢٣ .

(٢) راجع مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢ و ٢٣ تجد شعراً يمثل رأى الموالى وغيرهم في

ابن الزبير .

تظريته والسير على سنتها ولو جدلاً ، كما فعلت الأحزاب الأخرى ، فكان حزبه أشبه بثورة طارئة ، وبقي الأمر بعد ذلك صراعاً بين هذين البيتين المتنافسين منذ الجاهلية — بيتي أمية وهاشم — وبين ذلك الحزب الاسلامي الجديد وهو حزب الخوارج . . إلى أمد بعيد .

سادساً : أما عن الشعر السياسي الزبيرى فهو شعر عبید الله بن قيس الرقيات ، ذلك الشاعر القرشي الذي اختص هذا الحزب بقسط كبير من نتاجه الأدبي ، وهناك شعراء آخرون وفدوا على آل الزبير ومدحهم ، ولكن لم يكن أحدهم معبراً عن رأى هذا الحزب ، بل لعلمهم كانوا مرتزقة أو منافقين يؤمنون بمذاهب أخرى كالموالى .

ولذلك ستكون دراسة الجانب السياسي لابن الرقيات هي دراسة الشعر السياسي لحزب الزبيريين .

— ٣ —

عُبید الله بن قيس الرقيات^(١) من قریش ، لُقّب الرقيات لأنه شَبَّ بثلاث نسوة سُمين جميعاً رُقية ، وكان هواه في رقية بنت عبد الواحد بالرقّة ، وفيه يقول ابن قيس : —

ما خیرُ عیشٍ بالجزيرة بعدما عثر الزمانُ ومات عبد الواحد
ويُعد من شعراء قریش المقدمين يُقرن بابن أبي ربيعة ، وبعض السابقين يقدمه عليه ، شاعر سياسي غزل يجيد المدح ، وهو زبيرى الهوى ، خرج مع مصعب ابن الزبير على عبد الملك بن مروان ولزمه حتى قتل مصعب وقتل عبد الله ثم هرب ولجأ إلى أم البنين وإلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فسألا عبد الملك في أمره فأمنه .

وواضح أن ابن قيس هذا كان يلزم مصعب بن الزبير أكثر من أخيه ،

(١) الأغاني ج ٥ ص ٧٣ دار الكتب ، والديوان طبع ثينا ، وحديث الأرباء ج ٢ .

ولعل هذا لبخل عبد الله وانصرافه عن لهُو الشعراء مع سخاء مصعب ، وعطفه على ابن قيس ، ومحبتة له حتى إنه لما شعر مصعب بأنه هالك أعطى الشاعرَ مالا كثيراً وأشار عليه بالهرب فأبى ابن قيس إلا ملازمته .

وشعر ابن قيس وسلوكه يدلان على أنه قرشي خالص في آماله وآلامه جميعاً ، فالخلافة يجب أن تكون في قريش ومعها المضربة ، وعلى قريش أن تجتمع حول هذه الخلافة تحوطها وترعاها معرضة عن هذه الفرقة التي قسمتها شيعاً وأحزاباً يضرب بعضها بعضاً ، كان حريصاً على وحدة هذه القبيلة ذات المجد القديم منذ الجاهلية ، والظريف بظهور الإسلام وقيام دولته فيها ، ولعله بذلك كان أوسع أفقاً من الزبيريين أنفسهم ، ومن الهاشميين والأمويين ، ولعله بذلك كان أوسع أفقاً ، وهنا تظهر أرستقراطيته السياسية فالخلافة من حق قريش دون غيرها من العرب أو المسلمين . وكم فخر بقريش ، وبكى أيام وحدتها ، وخاف عليها العوادي ، ودعاها إلى لمّ شعبتها قبل أن تشمت الأعداء ، وكان في فنه الشعري أرستقراطياً كذلك ، فلم يسف ولم يهيج كما أقذع غيره ، بل كان جزل الأسلوب ، رقيق الشعور ، مهذب النفس ، نقي الضمير ، عف اللسان ، لم يتأذ أحد بنسيبه ، عنده رقة الحضر وجزالة البادية ، ولكنها البادية الحجازية بوجه خاص . ومن الطبعي إذاً ، ألا يروقه الخوارج أنصار الجمهورية الإسلامية ، ولا الأمويون الذين يعتزون بالينية ، ولا الموالي الذين يدعون للكسروية ، ومع هذا فهو مطمئن مادامت الحكومة في قريش ، ومستعد أن يقف بجانبها زيرية كانت أم أموية أم هاشمية ، فالجميع قرشيون وأولو قرباه ، ولا غرابة إذا اتصل بعد الزبيرين بالأمويين والهاشميين دون أن يجد في ذلك غضاظة وإن وجد الأمويون في ذلك غضاظة ، ثم العباسيون بعد ذلك حين كانوا يسمعون شعره في مدح الأمويين .

وعلى ذلك نستطيع أن نشير بإيجاز شديد إلى بعض آثاره الشعرية المتأثرة بالسياسة قبل أن نفرغ لأجمال مذهبه العام .

(١) قال يمدح مصعب بن الزبير ويفتخر بقريش ويذكر وحدتها

السابقة الكريمة : —

أَقْعَرْتُ بَعْدَ عَيْدِ شَمْسِ كِدَاءُ فَكُدِي فَا لَرَكْنُ فَا لِبَطْحَاءُ
فَمِنِّي ، فَالْجِمَارُ مِنْ عَيْدِ شَمْسٍ مُقْفَرَاتٍ فَبَلَدَحٍ فَخِرَاءُ
حَبْدًا الْعَيْشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعٌ لَمْ تَفَرِّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مُلْكِ قَرِيشٍ وَتَشْمَتَ الْأَعْدَاءُ
أَيُّهَا الْمَشْتَهَى فَنَاءُ قَرِيشٍ بِيَدِ اللَّهِ عَمْرُهَا وَالْفَنَاءُ
إِنَّمَا مُصْعَبُ شَهَابٍ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبَرِيَاءُ

ثُمَّ يَعُودُ إِلَى بَكَاءِ قَرِيشٍ ، وَالسَّخَطِ عَلَى أُمِيَّةٍ لِمَصْرَعِ الْحُسَيْنِ فَيَقُولُ : —
عَيْنُ فَا بَكِي عَلَى قَرِيشٍ وَهَلْ يَرِ جَعُ مَافَاتٍ إِنْ بَكَيْتَ الْبَكَاءُ
مَعَشَرَ حَتْفُهُمْ سَيُوفُ بَنِي الْعَالَمَاتِ يَخْشُونَ أَنْ يَضِيعَ اللُّوَاءُ
كَيْفَ نَوْمِي عَلَى الْفَرَّاشِ وَلَمَّا تَشْمَلُ الشَّامَ غَارَةُ شَعْوَاءُ
تَذْهَلُ الشَّيْخُ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدَى عَنْ بُرَاهَا الْعَقِيلَةُ الْعِذْرَاءُ
أَنَا عَنْكُمْ بَنِي أُمِيَّةٍ مَزُو رٌ ، وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِي الْأَعْدَاءُ
إِنْ قَتَلِي بِالطَّفِّ قَدْ أَوْجَعْتَنِي كَانَ مِنْكُمْ لَنْ قُتِلْتُمْ شَفَاءُ (١)

(٢) وَمِنْ قَوْلِهِ فِي وَقْعَةِ (الْحَرَّةِ) أَيَّامَ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ حِينَ اسْتَبِيحَتْ
الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَنُكِّلَ بِأَهْلِهَا وَفِيهِمْ نَفَرٌ مِنْ أَصْدِقَائِهِ : —

ذَهَبَ الصَّبَا وَتَرَكْتَ غَيْثِيَّةً وَرَأَى الْغَوَانِي شَيْبَ لِمَنِيَّةٍ
إِنْ الْحَوَادِثَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ أَوْجَعْنِي وَقَرَعَن مَرْوَتِيَّةً
وَجِبْدَنِي حَبَّ السَّنَامِ فَلَمْ يَتَرَكَنَّ رِيشًا فِي مَنَاكِبِيَّةٍ
وَاللَّهُ أَبْرَحَ فِي مَقْدَمَةِ أَهْدَى الْجِيُوشِ عَلَى شِكْنِيَّةٍ
حَتَّى أَفْجَعَهُمْ بِأَخْوَتِهِمْ وَأَسُوقَ نِسْوَتِهِمْ بِنِسْوَتِيَّةٍ

(٣) وبجانب ذلك كان يمدح آل الزبير على هذا الأساس السياسى الذى ذكرناه ، فيقول فى عبد الله بن الزبير : —

وابنُ أسماء خيرُ مَنْ مسح الر كَنَ فعَلا وخيرُهم بنيانا
وإذا قيلَ مَنْ هِجانَ قريش كَنتَ أنتَ الفتى وكنتَ الهِجانا
وأما شعره فى مصعب فكثير ، فقد بايعه كما لحظ ذلك عبد الملك فيما بعد : —

على بيعةِ الإسلامَ بايعنَ مصعبا كراديسَ من خيل وجمعا مباركا
تدارك أخرانا وتمضى أماننا وتتبع ميمونَ النقيبة ناسكا
إذا فرغت أظفارُه من كتيبة أُمال على أخرى السيوفَ الواتكا

(٤) وقد اتخذ النسيبَ وسيلةَ سياسية يغيظ بها خصومه من الأمويين وفتح باب ذلك لمثل العرجى الذى شَبَّ بِجِداء أم محمد بن هشام وجبرة زوجه ليغيظه ، وربما سبقهما إلى هذا الفن عبد الرحمن بن حسان حين شبَّ برملة بنت معاوية فأحق عليه يزيد بن معاوية وأباه .

وأما قصة ابن قيس فهى أنه تغزل بأُم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مروان فأغاظ عبد الملك وابنه الوليد وأخاه عبد العزيز وجميع الأمويين خصومه السياسيين ، واحتال حتى لا تتأذى أُم البنين بل حتى تطمئن إلى شعره وتعجب به وقد وفق فى ذلك فذكر قصته معها ثم قال إنها رؤيا منامية ، فجمع بين إرضائها وإغضاب أهلها ، واشتفاء نفسه ، وبلوغ هدفه السياسى حتى أهدر الأمويون دمه ، ومن العجب أن القصيدة فى مدح مصعب بن الزبير : —

ألا هزأت بنا قرشية يهترُ موكبها
رأت بي شبيهةً فى الرأ س منى ما أغيبها
فدع هذا ولكن حا جةٌ قد كنتُ أطلبها
إلى أمِّ البنين متى يقربها مقربها
أنتنى فى المنام فقلت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحتُ بها ومال على أعذبها

شربتُ بريقها حتى نهلتُ وبّتْ أشربها
القصيدة (١).

(٥) ولما قتل مصعب بن الزبير سنة سبعين هجرية رثاه ابن قيس وسجل
قعود مضر عن نصرته على ربيعة التي قتلتها لتنصر أمية ولتدرك ثاراتها القديمة
عند مضر العراق : —

إن الرزية يوم مَسَكِنَ والمصيبة والفجيعة
بابن الحواريّ الذي لم يعد له أهل الوقعة
غدرتْ به مضرُ العرا قِ وأمكنت منه ربيعة
فأصبتِ وتركِ يا ربيع — وكنتِ سامعةً مطيعة
الأبيات .

ثم رثاه بشعر آخر جيد يدور على خذلان العراقيين له (٢).

(٦) ولما هرب عقب قتل مصعب اختفى في الكوفة عند امرأة تدعى
(كثيرة) أكرمته وآوته نحو سنة وهي التي ذكرها في شعره مشيداً بها وبكرمها
وكرامتها وجعلها موضوعاً لنسيبه في ديباجته الشعرية ولما خاف الطلب تركها مكرماً
إلى المدينة مستجيراً بعبد الله بن جعفر الهاشمي فأجاره ثم استعان أم البنين
فأعانتته ، لذلك نجده يمدح عبد الملك مدحاً جيداً بمثل قوله : —

عادَ لَهُ من كثيرة الطربُ فعينه بالدموع تنسكبُ
ما نقيموا من بني أمية إلا أنهم يخلّمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب
إن الأغر الذي أبوه أبو العاصي عليه الوقار والحجبُ
خليفةُ الله فوق منبره جفت بذاك الأقلام والكتب
يعتدلُ التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهبُ

(١) الديوان ص ٢٦١ .

(٢) راجع مروج الذهب ج ٣ ص ٥٢ .

(٧) ومدح عبد الله بن جعفر مدحاً رائعاً كقوله فيه : —

تقدّت بي الشهباء نحو ابن جعفر سواء عليها ليلها ونهارها
تزرور امرأ قد يعلم الله أنه تجود له كف قليل غرارها
الآيات ، وقوله : —

إذا زرت عبد الله ، نفسى فداؤه رجعتُ بفضل من نداه ونائل
وإن غبتُ عنه كان للودّ حافظاً ولم يكُ عنى فى المغيّب بغافل

(٨) ولم يسكت ابن قيس عند هذا الحد بل تدخل فى (ولاية العهد)
وأنكر عليه عبد الملك ذلك حين أراد أن يبايع لابنه الوليد بعد أخيه عبد العزيز
ابن مروان أمير مصر فأبى عبد العزيز فكف عبد الملك ، وقال شاعرنا هذا يؤيد
عبد العزيز : —

يخلقك البيضُ من بنيك كما يخلف عود النضار فى شعبه
إلى آخره .

فقال عبد الملك لقد دخل ابن قيس الرقيات مدخلا ضيقاً ، وتهدده وشمته
وقال : أليس هو القائل : —

علىبيعة الإسلام بايعن مصعبا . . . الخ ؟ !

— ٤ —

ويمكن تلخيص مذهب ابن قيس فى شعره السياسى فى النقاط الآتية : —

- (١) لم يسلك الرقيات مسلك البرهنة والاحتجاج كما فعل الكميت فى هاشمياته ، فكان صاحبنا أشبه بالخطيب أو الكاتب ، لذلك كان أسلوبه جزلاً بوجه عام ، يشبه الحوارج من هذا الوجه ، الذى تغلب فيه العقيدة على رأى .
- (٢) وبجانب ذلك تسود شعره السياسى عاطفة حزينة تشبه عاطفة الشيعة ولكنها لا تماثلها إذ كان حزنه على قومه وعصبته العامة ، وكان حزنهم على أنفسهم

وعصبتهم الخاصة ، كان قرشياً وكانوا هاشميين ، وكان حزينا خوف شماتة الأعداء ، وهؤلاء الأعداء ربما كانوا سائر العرب أو الموالي أو الخوارج ، بل ربما كانوا الشيعة الذين احتضنهم الموالي .

(٣) وهناك شعور السخط على الأمويين الذين خذلوا الحجاز موطن قريش المقدس الأصيل ، وتركوا قريشاً ، واعتمدوا على اليمنية الذين حموا الأمويين وسندوا الخوارج أيضاً .

(٤) اعتمد ابن قيس في سبيل هدفه السياسى عدة فنون : هذا النسب الذى أغاظ به خصومه وأرضى به أصدقاءه مثل كثيرة وأم البنين ، ومنها المديح الذى أفاضه على الزبيريين والشيعة والأمويين ، ومنها الرثاء وقد كان فى مصعب وعبد الله بن جعفر ، ومنها الفخر بقريش وبأسرته وبأمية ، ثم استخدم الوعيد فى مسألة ولاية العهد كما مر .

(٥) يمتاز أسلوبه بالجزالة فلم يكن رذلاً ولا سفسافاً على الرغم من إقامته بتكرير ومن طعن اللغويين على شعره ورفضهم الاحتجاج به .

(٦) وخلاصة ذلك أن ابن قيس الرقيات كان يمثل الأرستقراطية فى مذهبه السياسى القرشى ، وفى شعره الجزل الرقيق السامى ، وفى خلقه النبيل وسلوكه الكريم . ولست أرى أن وجهة نظره السياسية تتفق تماماً مع الزبيريين الذين مثلوا بنشاطهم السياسى فريقاً آخر طامعاً فى الملك أمام الأحزاب الأخرى .

الفصل الرابع

الموالى او فى سبيل الكسروية

- ١ -

نحن الآن أمام نزعة سياسية جديدة ، تعتمد على مقومات أجنبية قديمة ، يمثلها جماعة من شعراء الفرس الذين دخلوا فى الإسلام ، فلم يجدوا فى سياسة الأمويين هذه المساواة التى أقرها الاسلام ، وجعلها روحه الدينية والاجتماعية ، وتشبث بها أعلامه الأولون ؛ فأنكروا هذه السياسة ، وكرهوا العرب بسببها ، وذكروا دولتهم الزائلة ، ومفاخرهم العتيدة ، وتمنوا لو عاشوا فى ظل الأكاسرة الفارسيين بدل هؤلاء الملوك الأمويين أولئك هم الموالى .

والموالى جمع مولى ، وله فى اللغة معان كثيرة ترجع فى جملتها إلى أصل واحد هو القرب ، من الولى ، فالمولى المالك والعبد والمعتق والمعتق والصاحب والقريب والجار والحليف والابن والعم والنزيل والشريك والرب والناصر والتابع ، إلى نحو ذلك .

وموالى الرجل فى الجاهلية حلفاؤه وورثته من بنى عمه وإخوته وسائر عصبته ، وعلى ذلك قوله تعالى : « ولكل جعلنا موالى » فالموالى العصبه ، فلما دخلت العجم على العرب بحثوا لهم عن اسم يطلقونه عليهم فوجدوه فى قوله تعالى : « فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » ^(١) فأطلقوا عليهم لفظة (الموالى) .

ولكن الذين نريدهم هنا جماعة من الأعاجم كانوا يعيشون مع المسلمين ويتصلون بهم اتصال (الولاء) وهو ثمرة العتق ^(٢) فيكون للرجل رقيق : عبد

(١) سورة الأحزاب آية ٥ .

(٢) راجع ضحى الاسلام لأحمد أمين ج ١ ص ٧٩ وتاريخ التمدن الاسلامى ج ٤ ص ٤٦ .

أو أمة فيرد إليه حريته بالعتق ، ولكن تبقى هناك صلة بينهما تسمى (الولاء) ويظل المعتق ينسب إلى من أعتقه فيقولون : زيد بن حارثة مولى الرسول أى عتيقه وإن كانت أنثى فهي مولاته والجمع موال ، وإذا كان المعتق من قبيلة فقد يفسبون المولى إلى هذه القبيلة فيقولون مولى بنى هاشم أو مولى ثقيف ، وأحياناً يعبرون عن ذلك بقولهم الهاشمى بالولاء أو الأموى بالولاء وهكذا .

وهناك نوع آخر من الولاء لا ينشأ عن العتق ، وإنما مرده أن يسلم رجل على يد رجل آخر ويتعاقد معه فيكون الذى أسلم مولى للآخر وبينهما هذا الولاء ، وقد يطلق لفظ المولى بمعنى أوسع من ذلك ، فان كثيراً من كتب الأدب والتاريخ تطلقه على كل من دخل فى الاسلام من غير العرب سواء أكان رقيقاً أم لا .

واستعملت كتب الفقه هذا المعنى أيضاً ، « وسمى العجم موالى لأن بلادهم فتحت عنوة بأيدي العرب ، وكان للعرب استرقاقهم ، فاذا تركوهم أحراراً فكأنهم أعتقوهم والموالى المعتقون » (١) .

كان الموالى من شعوب شتى ، من الفرس والروم والمصريين والنوبيين والخراسانيين وغيرهم ، ولكن كثرتهم كانت من البلاد الشرقية ، للقضاء على فارس تماماً ولا امتداد الفتوح فى هذه النواحي ، ولا قرار الحكم الإسلامى هناك ، وكان من هذه الفتوح ، ومن نظرية تسوية الاسلام بين الأجناس ، وحاجة العرب إلى الحياة فى تلك الأصقاع أن انساحوا فى الأرض واختلطوا بغيرهم وأخذ يتكون من الجميع شعب إسلامى عام له دينه ولغته ومقوماته وإن لم تمح مطلقاً هذه الفروق الجنسية كلها التى تميز كل شعب من سواه .

— ٢ —

كانت الحكومة الأموية عربية خالصة من حيث أشخاص الخلفاء ، وولاتهم ، وقوادهم ، ومن حيث التقاليد الاجتماعية ، وما يتصل بها من الشؤون

الدينية لقرب الدولة من البداوة الأولى ، فالزى عربى ، ونظام الطعام والشراب عربى مع شىء من التهذيب ، والنزعات الخلقية والأدبية عربية ، والحياة العقلية والعلمية لم تتقدم كثيراً ، وهكذا كانت الدولة أو الحكومة الأموية عربية إسلامية غير خاضعة لطغيان الفارسية أو الرومية وربما كانت مظاهر الجاهلية فيها أوضح وأبعد أثراً . وكان من ذلك أن وجد فى نفوس العرب — ومنهم الشعراء — تياران متناقضان : أحدهما قديم من بقايا الجاهلية ، وهو العصبية القبلية التى بعثتها السياسة الأموية واعتمدت عليها لحفظ كيان الحكومة ، وهى التى نشأ عنها فن النقائض والمهاجاة كما هو مقرر معروف . والثانى إسلامى جديد هو هذه العصبية الجنسية ، فقد وحد الإسلام القبائل وكوّن منها أمة عربية واحدة بعد أن كانت قبائل شتى ، وشعر العربى بجنسيته وأمته بعد ما كان يحيا قبل الإسلام فى حدود قبيلته ولا يتجاوز أفعها إلا نادراً ، فبعد أن كنا نسمع قول الشاعلى الجاهلى : — وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت ، وإن ترشد غزيرة أرشد صرنا نسمع فى الاسلام من يقول : —

إنا من النفر الذين جياذهم طلعت على عادٍ بريح صرصر
وسلبن تاجى مُلكٍ قيصر بالقنا واجتزن باب الدرب لابن الأصفر

وهاتان النزعتان تصارعتا فى نفوس العرب ، وكان لذلك الصراع آثاره الدينية والاجتماعية والسياسية ولا سيما حين قويت النزعة الجاهلية فذهبت بالأمويين . لما اعتز العرب بعريتهم التليدة بخلقها وبيانها ، والطريقة بالاسلام وهداه ودولته الغالبة ، ثم استطالوا بذلك على الموالى واحتقروهم ، واعتبروهم دونهم دماً ، وجنساً ، ولغة ، وأدبا ، وشجاعة وخلقاً ، تولد فى نفوس الموالى تيار عكسى تقموا به على العرب أولاً خروجهم على أصول الاسلام الذى يسوى بين أهله ولا يعرف جنساً ولا طبقة ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وقالوا حينذاك بالتسوية مادام الاسلام عاماً والناس أمامه سواء ، ثم أخذوا يعتزون بمجدهم التليد ودولتهم الزاهية ذات الحضارة الراقية ، والآثار الباقية ، والسلطان العظيم ، والغنى العريض

في حين أن العرب كانوا فقراء جهلاء يثدون بناتهم خوف الاملاق أو العار ، ويشركون الحيوان في شرب الماء الآسن ويضربون في الصحارى ضالين سفهاء يستخدمهم الفرس حراساً ، ويحتقرون بلادهم أن تفتحها جيوش كسرى ، وهكذا نشأت أصول الشعوبية التي أثارت جدلاً شديداً في الدولة العباسية .

مثل الشعر هذه العصبية الجنسية بين العرب والموالى من الناحيتين العربية والفارسية خاصة ، وإن لم تبلغ في قسوتها ما بلغت في ظل العباسيين ، فقد نزل جرير بقوم من بني العنبر فلم يضيِّقوه حتى اشترى منهم القرى فانصرف وهو يقول : —

يامالك بن طريف إن بيعكم رَفَدَ القرى مُفسد للدين والحسب
قالوا نبيعُكَ بيعاً فقلت لهم يبيعوا الموالى واستحيوا من العرب^(١)

فأنفت الموالى من هذا البيت الأخير لأنه حطهم ووضعهم ورأى أن الاساءة إليهم لاتعد عيباً . وخطب رجل من الموالى بنتاً من بنى سليم وتزوجها فركب محمد ابن بشير الخارجى إلى المدينة وواليا يومئذ ابراهيم بن هشام بن اسماعيل فشكا إليه ، فأرسل الوالى إلى هذا المولى ففرق بينه وبين زوجته وضربه مائتى سوط وحلق رأسه وحاجبيه فقال محمد بن بشير :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد
حمى حدباً لحوم بنات قوم وهم تحت التراب ، أبو الوليد
وفي المائتين للمولى نكال وفي سلب الحواجب والحدود
إذا كافاتهم بينات كسرى فهل يجد الموالى من مزيد
فأى الحق أنصف للموالى من اصهار العبيد إلى العبيد

وهو القائل : —

إذا افتقر المولى سعى لك جاهداً لترضى وإن نال الغنى عنك أدبرا^(٢)

كذلك نهض شعراء الموالى يتغنون بمجد الفرس ، يردّون بذلك على العرب وينقمون منهم سياسة الدولة ، وتقاليد الشعب ، ويرون في دولة الأكاسرة

فردوسهم المفقود فهذا اسماعيل بن يسار يدخل على هشام بن عبد الملك أيام خلافته ،
 فيستنشد الخليفة ظناً منه أنه يمدحه ، فيقول إسماعيل مفتخراً بالفرس : —

إني وجدك ماعودي بذي خور	عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلى كريم ومجدي لا يقاس به	ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب	من كل قرم بتاج الملك معوم
ججاج سادة بكنج مرازية	جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا	والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا	وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يمشون فى حلق الماذى سابعة	مشى الضراغمة الأسد اللهايم
هناك إن تسألئى تُنبئى بأن لنا	جرثومة قهرت عز الجرائم (١)

فغضب هشام ، وقال : أعلئى تفتخر ، وإياى تنشء قصيدة تمدح بها نفسك
 وأعلاج قومك ؟ عطفوه فى الماء ، فعطفوه فى البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر
 بإخراجه وهو يشرب ، ونفاه من وقته إلى الحجاز .

حاول الفرس الخلاص من الأمويين أولاً وإرجاع دولتهم بطريقة ما ثانياً ،
 فاحتضنوا الهاشميين واعتمدوا على الدعوة لهم سرأ حتى إذا ظفروا بالحكم كان
 للفرس نفوذ كبير يستريحون فى ظله ، ويتمنون إعادة سلطانهم ، وقد تم لهم ذلك
 على الرغم من فطنة العرب لهذه السياسة ودعوتهم إلى لم شعثهم فى وجه هذا العدو
 الناهض ، فقد قال نصر بن سيار مخاطب الفزارية والمنية : —

أبلغ ربيعة فى (مرو) وإخوتهم	فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا	حرباً يعررق فى حافاتى الخطب
مابالكم تلقحون الحرب بينكم	كان أهل الحجاج عن رأيكم عزب
وتتركون عدوا قد أظلكم	مما تأشّب ، لادين ولا حسب
قديماً يدينون ديننا ما سمعت به	عن الرسول ، ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهمو	فان دينهمو أن تقتل العرب (٢)

وحاولت عرب خراسان أن تتوابع على وضع الحرب بينها والاجتماع على قتال أبي مسلم الخراساني ، ولكنه احتال وأفسد بينهم وضم إليه اليمن وربيعة حتى بلغ ما أراد .

(١) فإذا تقدمنا إلى الشعر السياسي للموالى وجدناه ينتهي إلى غاية واحدة هي الكسروية أو دولتهم التي أضاعها العرب يتمنون عودتها مكان هذه الدولة التي تظلم ولا توفر لهم ما جاء به الاسلام من حق المساواة ، والانصاف ، والعدالة الاجتماعية بوجه خاص ، لذلك نقموا على العرب ، وأخذت هذه النقمة تنمو وتتسع حتى شملت فيما بعد الدين ، واللغة ، والجنس ، والحكومة ، والأدب ؛ وصارت المسألة بحاجة وأدت إلى شعوبية غالية حَقَّرت شأن العرب ، ونطق بها الشعر المولوى ، وساعد على إعادة الكسروية في حياة المسلمين أولاً ثم إقامة الدولة الفارسية أخيراً . هذا من حيث موضوع الشعر العام وغايته .

(٢) وأما من حيث مادته فقد استطاع الشعراء الموالى أن يجمعوا في شعرهم إلى حدٍّ ما ، بين ثقافتهم العربية في هذا الفن وبين شيء من وراثتهم ومواهبهم الفارسية التي تلمحها في مثل القصص ، والرفق بالحيوان ، وطول النفس ، والخطأ النحوى أحياناً كقول زياد الأعجم : —

إذا قلت قد أقبلت أدبرت كمن ليس غادي ولا رائج
وكان ينبغي أن يقول غاديا ولا رائحاً ، وكقوله في حمامة سجدت بجانبه : —
تَعْنَى أَنْتِ فِي ذِمِّي وَعَهْدِي وَذِمَّةِ وَالِدِي أَنْ لَمْ تُطَارِي
الآيات ، وظهر من حدِّبه على الحيوان مسحة ربما كانت مانوية ^(١)

(٣) كان من ظواهر الشعر المولوى حسن التنسيق ثم الاستقصاء أحياناً كشعر عمرو بن الحصين وغيره ، وكذلك رقة الأسلوب وقصر الوزن غالباً ، ثم تشبيه السطوة والقوة بما كان للأكامرة .

(٤) وزع الشعراء الموالى أنفسهم بين الأحزاب السياسية ، فكان في

الخوارج عمرو بن الحصين ، وكان في الشيعة ابن المولى ، ومع الزبير بن اسماعيل ابن يسار . ويزيد بن ضبة مع الأمويين هو ونصيب والحسين بن مطير وغيرهم ، وهذا التوزيع كان في الغالب احتواء وانتفاعا ، ومع ذلك لم يفرغ أكثرهم لحزب من الأحزاب ، وأما حزبهم الحقيقي الذى ينتمون إليه مخلصين فهو الفارسية أو الكسروية كما قدمنا .

(٥) كانت هذه النزعة الكسروية ناشئة في هذا العصر ، لم تبلغ مابلغته فيما بعد العصر الأموى ، فلم تكن تائفة ولا عامة ، لكبت الأمويين هذه النزعة ومحاربتها ، وربما كان أبو العباس الأعشى أقل الموالى في هذه النزعة .

(٦) هناك ملاحظة أخرى هي أن النوبيين من هؤلاء الموالى ، كنصيب في الاسلام ، وعبد ياليل في الجاهلية ، لم ينزعوا نزعة أعجمية ، ولعل ذلك ، إن صح ، لقلتهم وضعفهم ، ولعدم وجود ماض لهم بخلاف الفرس الذين شغلوا هذا الجانب . وأما الروم فانهم فضلا عن قلتهم النسبية لم يختلطوا بالعرب اختلاطاً أدياً كثيراً كما فعل الفرس الذين توافر لهم هذا الاختلاط بحكم الجيرة القوية ، والخضوع التام للعرب ، وزوال مقوماتهم الثقافية والسياسية بخلاف الروم في كل ذلك كما وكيفاً .

(٧) وإذا لم يفرغ الموالى لنزعتهم السياسية ، وإنما كانت عندهم أصلاً مشتركاً بينهم ، وهم بعد يعيشون بالمدح والتردد بين الخلفاء والأمراء والرؤساء قصد الانتفاع ، فلم يتخصصوا في السياسة أو أنهم جعلوا اتصالهم بأولى الأمر جزءاً من سياستهم الخفية الإدارية ، وكان أولو الأمر يترضونهم ويدارونهم بدافع سياسى أيضاً ، فالمهلب بن أبى صفرة ينتصر لزياد الأعجم على ابنه ترضية له وهكذا كانت المسألة استغلالاً من الجانبين لمصلحة السياسة .

(٨) كان من الموالى بعض الأسر الشاعرة كما كان الشأن عند العرب ، فاسماعيل بن يسار المولى شاعر ومحمد بن يسار وابراهيم بن اسماعيل هذا .

(٩) وحدث أن بعضهم ، كيزيد بن ضبة ، تدخل بين الأقارب من حزب

واحد لصالحه هو السياسى ، فيزيد هذا احتمى بالوليد بن عبد الملك وتحدى هشاماً الخليفة ، وقال شعراً يفتخر بدولته الفارسية وماضيها المجيد دون أن ينكر الوليد عليه ذلك .

(١٠) وكان الموالى يكتون فى شعرهم عن العرب بكلمات مثل هند وجمل وأمامة ونحوها حين يفخرون عليهم ، يقصدون بذلك الجنس جميعه .

(١١) هذا غير ما دفعت العصبية الجنسية حماداً الرواية إلى إفساد تاريخ الشعر العربى بما كان يصنعه منه ويحمله على الجاهليين خاصة ، ساعده على ذلك معرفته التامة بمذاهب الشعراء ، وقدرته الفنية على التقليد ، وقد نبه الأقدمون على ذلك .

(١٢) كذلك صنع الموالى شعراً فى ذم القبائل العربية وأنطقوا به جارية عامرية ، نزل بحيا رجل من تنوخ ، فقالت : ممن أنت ؟ قال من تميم ، فذكرت له أبياتاً فى ذم تميم ، فقال لها : لست من تميم بل أنا من قبيلة عجل ، ففعلت ذلك ، وما زال الرجل يذكر القبائل قبيلة قبيلة وهى تروى الأبيات فى ذمها حتى نالت جملة قبائل ، ولما انتسب إلى بنى هاشم قالت : أتعرف الذى يقول : —

بَنى هاشم عُودُوا إِلَى نَخْلَاتِكُمْ فَقَدْ صَارَ هَذَا التَّمْرُ صَاعاً بِدَرِّهِمْ
قَاتِنَ قَلْتَمُو : رَهْطَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ فَإِنَّ النَّصَارَى رَهْطَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ (١)

وما أشبه هذا بكتب المثالب التى وضعها الفرس للحط من شأن الأمة العربية .

— ٤ —

ثم نتقدم إلى التعريف الموجز جداً ببعض الشعراء الموالى متوخين جانبهم السياسى لاغير .

(١) إسماعيل بن يسار النسائى (٢) مولى بنى تميم بن مرة ، تميم قریش ، كان

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٢٠٠ — ٢٠٨ .

(٢) الأغانى ج ٤ ص ٤٠٨ دار الكتب .

منقطعاً إلى آل الزبير فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان وفد إليه مع عروة بن الزبير ومدحه ومدح الخلفاء من ولده بعده وعاش عمراً طويلاً إلى أن أدرك آخر سلطان بني أمية ولم يدرك الدولة العباسية ، كان شعوبياً شديداً التعصب للعجم وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم ، أنشد يوماً في مجلس فيه أشعبُ قوله : —

إِذْ نُرْبِي بِنَاتِنَا وَتَدَسُّوْنَ سَفَاها بِنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ
فقال له أشعب : صدقت والله يا أبا فائد ، أراد القوم بناتهم لغير ما أردتموهن له ، قال : وما ذاك ؟ قال : دَفَن القوم بِنَاتِهِنَّ خوفاً من العار ، وريتموهن لتتكحوهن ، قال : فضحك القوم حتى استغربوا وخجل اسماعيل حتى لو قدر أن يسيخ في الأرض لفعل .

وهذا البيت من قصيدة له يفخر فيها بالعجم على العرب نذكر هنا بعضها : —

مَا عَلَّمِي رَسْمَ مَنْزِلِ الْجَنْبِ لَوْ أَبَانَ الْقَدَاةَ رَجَعَ الْجَوَابِ
رُبَّ خَالٍ مُتَوَجِّحٍ لِي وَعَمَّ مَاجِدٍ مُجْتَدِي كَرِيمِ النِّصَابِ
إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ بِالْفَرِّ مِنْ مِضَاهَاةِ رِفْعَةِ الْأَنْسَابِ
فَاتَرَكِي الْفَخْرَ يَا أُمَامَ عَلَيْنَا وَاتَرَكِي الْجَوْرَ وَانْطِقِي بِالصَّوَابِ
وَاسْأَلِي إِنْ جِئْتِ عَنَا وَعَنْكُمْ كَيْفَ كُنَّا فِي سَالِفِ الْأَحْقَابِ
إِذْ رَبِّي بِنَاتِنَا وَتَدَسُّوْنَ سَفَاهاً بِنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ

ولما مات محمد بن يسار دخل اسماعيل على هشام بن عروة فجلس عنده وحدثه بمصيبته ووفاة أخيه ثم أنشد يرثيه : —

عَيْلَ الْعِزَاءِ وَخَانِي صَبْرِي لِمَا نَعَى النَّاعِي أَبَا بَكْرٍ
القصيدة . وكان بحضرة هشام رجل من آل الزبير فقال له : أحسنت وأسرفت في القول ، فلو قلت هذا في رجل من سادات قریش لكان كثيراً فزجره هشام ، وقال : بئس والله ما واجهت به جليساك ، فشكره اسماعيل وجزاه خيراً .

استأذن اسماعيل بن يسار النيسائي على الغمر بن يزيد بن عبد الملك يوماً فحجبه ساعة ، ثم أذن له فدخل يبكي ، فقال له الغمر : مالك يا أبا فائد تبكي ؟ قال : وكيف لا أبكي وأنا على مروانيتي ومروانية أبي أحجب عنك ؟! فجعل الغمر يعتذر إليه وهو يبكي ، فمأسكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر ، وخرج من عنده فاحقه رجل فقال له : أخبرني ويحك يا اسماعيل : أي مروانية كانت لك ولأبيك ؟ قال : بغضنا إياهم ، امرأته طالق إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح وإن لم يكن أبوه حضره الموت فليل له : قل لا إله إلا الله ، فقال : لعن الله مروان تقرباً بذلك إلى الله تعالى وإيدالاً له من التوحيد وإقامة له مقامه . وقد قدمنا قصته مع هشام بن عبد الملك ، فاسماعيل يوافق الأمويين أو يتحداهم بكسرويته ، في هذا الشعر الجزل الذي لم يسلم من نفحات فارسية في موضوعه ومعانيه .

* * *

(ب) يزيد بن ضبّة^(١) مولى لثقيف ، كان منقطعاً إلى الوليد بن يزيد في حياة أبيه متصلاً به لا يفارقه فلما أفضت الخلافة إلى هشام ذهب يزيد لمدحه فأعرض عنه وقال : عليك بالوليد فامدحه وأنشده ، وأمر باخراجه فأكرمه الوليد وأرسله إلى الطائف يعيش هناك من مال الوليد وليكون آمناً من هشام ، فخرج إلى الطائف وقال يذكر ما فعله هشام به : —

أَرَى سَلْمَى تَصَدَّ وَمَا صَدَدْنَا وَغَيْرَ صُدُودِهَا كُنَّا أَرَدْنَا
لَقَدْ بَخَلْتُ بَنَائِلَهَا عَلَيْنَا وَلَوْ جَادَتْ بَنَائِلُهَا حَمِدَنَا

ولعلّ سلمى هنا رمز لهشام أو لحاله في هذه الحكومة الإسلامية ، ثم ينتقل إلى الفخر بعشيرته فيقول : —

أَلَمْ تَرِ أُنْثَى لَمَّا وَلَيْنَا أُمُوراً خُرِّقَتْ فَوَهَتْ سَدَدُنَا
رَأَيْنَا الْفَتْقَ حِينَ وَهَى عَلَيْهِم وَكَمْ مِنْ مِثْلِهِ صَدَعَ رِفَانَا

ويعتب على هشام بقوله : —

ألا مَنْ مُبْلَغ عني هِشاماً
ألم يك بالبلاء لنا جزاء
فما منا البلاء وما بعدنا
فنجزي بالحاسن أم حسدنا
ثم يقول : —

ولينا الناس أزماناً طوالاً
ألم تر مَنْ ولدنا كيف أشي
وسُسنهم ودسّسناهم وقُدنا
وأشيينا ، وما بهم قعدنا
مما يكون فخراً بالفرس أو بشيعته على الأمويين ، ولم يزل مقياً بالطائف
إلى أن ولى الوليد بن يزيد الخلافة فأكرمه وقرّبه ثم أنشده الشاعر هذه
القصيدة المشهورة : —

سُليمي تلك في العيرِ قفي أسالكِ أو سـيـرى
فأعطاه لكل بيت ألف درهم .

* * *

(ح) وهناك شعراء آخرون من الموالى أيام الأمويين لم تظهر عصبياتهم في
الشعر ظهورها في هذين ذكرنا منهم عمرو بن الحصين الخارجي ، ونذكر منهم
زياداً الأعجم^(١) وابن المولى^(٢) والحسين بن مطير^(٣) وداود بن سلم^(٤) وموسى
شهوأت وغيرهم^(٥) .

* * *

فاذا تركنا العصر الأموي إلى العصر العباسي رأينا الموالى أعلى مكانة ،
وأقوى نفوذاً ، وأرفع صوتاً لما ساعدوا في إقامة هذه الدولة الهاشمية ، وظفروا في
ظلمها بحرية تامة ، وسلطان عريض زاحوا به العرب وغلبوهم ونهض الشعر يفخر
على العرب ، ويفضل عليهم الفرس صريحاً قوياً ، ويحتقر العرب ويتبرأ منهم

(١) ج ١٤ ص ١٠٢ بلاق .
(٢) ج ٣ ص ٢٨٦ .
(٣) ج ١٤ ص ١١٤ بلاق .
(٤) ج ٦ ص ١٠ دار الكتب .
(٥) ج ٣ ص ٣٥١ .

في زراية وأنفة ، هذا بشار بن برد^(١) من زعماء هذا المذهب قال له أعرابي :
ما للموالى والشعر ؟! فقال في العرب جميعاً : —

أحينَ كُسيِتَ — بعد العُرى — خزا
تُفاخر يا بن راعي — وراع
تُرِيغُ بخطبة كَسَرَ الموالى
وكنت إذا ظممت إلى قراح
وتغدو للقنافذ تدرِيها
وتتشمع الشمال للابسِيها
ونادمت الكرام على العُقار
بني الأحرار ، حسبك من خسار
ويُنسيك المكارم صيدُ فارٍ
شركت الكلب في ولع الإطار
ولم تعقل بدراج الديار
وترعى الضأن بالبلد القِفار
ويقول آخر : —

فلستُ ببارك إيوان كسرى
وضبّ في الفلا ساع ، وذئبٍ
وهناك الخريمي^(٢) الشاعر المشهور ، مولى ابن خريم ، كان من أكثر الناس
اعتزازاً بنسبه وهو القائل : —

إني امرؤ من سِراة الصُغد ألبسني
عرق الأعاجم جلدًا طيِّب الخبر
وله من قصيدة : —

أيا الصغد بأسٌ إذ تعيّرني جُمْلُ
فان تفخرى يا جمل أو تتجمل
أرى الناس شرعاً في الحياة ولا يرى
وما ضرّني أن لم تلدني يُحابر
إذا أنت لم تحم القديم بمحدث
ويقول من أخرى : —

وإن أبي ساسانُ كسرى بنُ هرمز
ملكنا رقابَ الناس في الشرك ، كلُّهم
نسومكمو خسفاً ، ونقضى عليكم
وخاقانُ لي لو تعلمين نسيبُ
لنا تابع طوع القياد جنيب
بما شاء منا مخطيء ومصيب

والمتوكلى^(١) كان من ندماء المتوكل العباسى يقول من قصيدة : —
 أنا ابن الأكارم من نسل جَمٍّ وحائز إرث ملوك العجم^(٢)
 ومُحيى الذى باد من عزهم وعفى عليه طول القِدم
 وطالب أوتارهم جَهرة فمن نام عن حقهم لم أنم
 معى علم الكابيان الذى به أرتجى أن أسود الأمم^(٣)
 فقل لبنى هاشم أجمعين هلمو إلى الخلع قبل الندم
 ملكناكم عنوة بالرما ح طعناً ، وضرباً بسيف حذم
 وأولاكم الملك آباؤنا فما إن وفيتم بشكر النعم
 فعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضباب ورعى الغنم
 فاني سأعلو سرير الملوك بحد الحسام وحرف القلم
 وأما ثورة أبى نواس على تقاليد الشعر العربى والزراية بها ، والجنوح إلى
 شارات الفرس وسماتهم الاجتماعية ، فأمر مشهورة معروفة .

* * *

وخلاصة القول فى هذا الفصل أن الدولة الفارسية التى أزالتها الاسلام بقيت
 فى نفوس هؤلاء الموالى صورة جليلة ، وأملا حافزاً ، قرب تحقيقه ماسلكه العرب
 فى حكوماتهم ، من أخذ بالأرستقراطية الجنسية ، ومجانبة لأصول الدعوة
 الاسلامية ، وقد عمل الشعراء السياسيون من الموالى على إذكاء هذا الأمل ،
 ونهض أعيان الفرس فى سبيله حتى تم لهم أمره .
 وبالموازنة بين مواقف الشعراء السياسيين فى هذه الفترة نرى أن الشعراء
 السابقين كانوا ينادون باصلاح الحكومة الاسلامية ، ولكن الموالى كانوا يريدون
 قتلها ، كان الأولون يعملون فى سبيل العرب ، والآخرون فى سبيل الفرس ، افتخر
 العرب بالحاضر القائم ، والموالى بالماضى الزائل ، اجتمع الموالى حين تفرق العرب ،
 وأحسن الفرس السياسة لما غفل الهاشميون ، فعادت الكسروية وتقلصت
 الهاشمية ، وهانحن أولاء نرقب ماتأتى به الأيام .

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ٣٢٢ مرجليوث . (٢) جم : جمشيد ملك الفرس .
 (٣) الكابيان حداد فارسى رفع علم الثورة .

الفصل الخامس

الأمويون أو في سبيل الملكية

— ١ —

أقدم ما يروى من أخبار مكة أنها كانت موئل جماعة من العماليق استقروا فيها مدة ، ثم غلبتهم عليها جرهم وهى القبيلة التى أصهر إليها اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام ، إذ تزوج رَعلة بنت مُضاض الجرهمى فولدت له اثني عشر رجلاً أكبرهم قيذار ونابت ، ثم ورد ابراهيم على ابنه وأقاما الكعبة لتكون مثابة للناس وأمنًا يحجون إليها من أقطار الأرض ^(١) ثم ضعفت جرهم فغلبتها خُزاعة عليها يتوارث بنوها شئون البيت الحرام حتى نهض قُصَيَّ بن كلاب فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، بمن معه من قريش قومه وقاتل خزاعة على ولاية الكعبة فهزمها وآلت إليه رياسة البيت ومكة أيضاً ^(٢) ومن ذلك الحين عدَّ قُصَيَّ بن كلاب زعيم قريش ومؤسس نظام مكة الاجتماعى إذ أمر قريشاً أن يقيموا بيوتهم حول الكعبة ، وبُنِى دار الندوة حياها لتكون نادى قريش ومكان تدبير شئونهم ، وصارت إليه وظائف مكة من حِجَابة ، وسِقَاية ، ورفادة ، وندوة ، ولواء ، فحاز شرف مكة جميعه « وقطع مكة رباعاً بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها » ^(٣) ولما كبرت سنه ووهن عظمه ، نظر فى بنيه ، فاذا عبد مناف قد شرف فى زمان أبيه وذهب كل مذهب ، فعهد بهذه الوظائف إلى عبد الدار من بنيه ، وبعد هلاك قُصَيَّ بعهد نفس بنو عبد مناف — عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل — على بنى عبد الدار استئثارهم

(١) سورة البقرة آى ١٢٥ — ١٢٧ وآل عمران آيتا ٩٦ و ٩٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣٠ .

(٣) نفس المرجع ١٣٢ .

بشرف هذه الوظائف وأجمعوا على أن يأخذوها لهم ، وهنا تفرقت قريش وانحازت طائفة مع بني عبد مناف وأخرى مع بني عبد الدار ونشأ من ذلك الأحلاف وحلف المطيبين^(١) فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار ، ثم تفرعت هذه الوظائف وتوزعت بطون قريش فكانت في عشرة رهط من عشرة أبطن^(٢) . ويعني هنا بيتان من بني قصي بن كلاب ثم من بني عبد مناف بن قصي هما بيت أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وبيت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وهما اللذان عرفا فيما بعد ببيتي الهاشميين والأمويين ، وقد ظفر كل منهما في الجاهلية بقسط من الشرف عظيم ، حتى جاء الإسلام ، والسقاية في بني هاشم واللواء في بني أمية ، ولم تخل حياتهما من تنافس في الشرف ، وتسابق إلى أسباب المجد والنباهة .

هاتان الأسرتان ، على ما كان بينهما من تنافس في سيادة قريش ، امتازت كل منهما بطابع غلب عليها منذ الجاهلية ، وظهر في سلوكها السياسي في ظل الإسلام ، فالأمويون أهل حصافة وتديير ، والهاشميون رجال الخير والقوة ، مع قلة رجال الهاشميين وغناهم ، وكثرة أبناء الأمويين وفقرهم ، وقد قال معاوية في ذلك : « إذا لم يكن الأموي مصلحاً لما له حليماً لم يشبه من هو منه ، وإذا لم يكن الهاشمي سخياً جواداً لم يشبه من هو منه ، ولا يعدمك من الهاشمي اللسان والسخاء والشجاعة »^(٣) .

فلما جاء الإسلام في بني هاشم نفس ذلك عليهم الأمويون أوزعماؤهم خاصة كابي سفيان بن حرب وعتبة بن ربيعة بن حرب جد معاوية لأمه ، ورأوا في رسالته نباهة هاشمية فمثلوا معارضته بزعامة أبي سفيان ومن لف لفهم وأخذت الحوادث تتوالى في مكة والمدينة ، والهاشميون بين عاملين : هذه العصبية القريية

(١) المرجع السابق ص ١٣٨ و ١٣٩ .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٣١ المطبعة الشرقية .

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ق ١ ص ٢٠٨ طبع أوربة .

لِلرَّسُولِ وَالْإِبْقَاءِ عَلَى جَاهِهِمُ الدِّينِي وَالْاجْتِمَاعِي الَّذِي أَنْكَرَ الْإِسْلَامُ مَا فِيهِ مِنْ
آثَامٍ وَانْحِطَاطٍ ، وَلَكِنَّ الرَّسُولَ مَضَى فِي سَبِيلِهِ وَالْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ مَعَهُ يُوَحِّدُ
بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَيُؤَلِّفُ بَيْنَهَا فِي ظِلِّ الْإِسْلَامِ ، وَيُجَهِّزُ عَلَى الْوَثْنِيَّةِ جَاهِدًا
حَتَّى كَانَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ فَيَسْلُمُ أَبُو سَفْيَانَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ وَيَعْفُو عَنْهُمْ الرَّسُولُ ،
وَتَدْخُلُ الْقَبَائِلُ فِي هَذَا الدِّينِ ، أَوْ تَخْضَعُ لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الْفَاهِضَةِ ، وَيَلْقَى الرَّسُولُ
رَبَّهُ ، وَالْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ تَسْكَدُ تَسْكُونًا شَعْبًا مُؤْتَلَفًا لِأَعْصَبِيَّةٍ لَهُ إِلَّا عَصَبِيَّةَ الدِّينِ
وَهَاتَانِ الْأَسْرَتَانِ فِيمَا يَظْهَرُ ، غَلَبَتْ عَلَيْهِمَا الْأَخُوَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَإِنْ شَعَرَ الْهَاشِمِيُّونَ
حَتْمًا ، بِشَرَفِ الرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِيهِمْ دُونَ سِوَاهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ وَمَنْ عَرَبٍ
وَالنَّاسِ جَمِيعًا .

وَإِذَا صَحَّ مَارُونَا قَبْلُ مِنْ حَرَصِ أَبِي سَفْيَانَ عَلَى أَنْ تَسْكَوْنَ خِلَافَةَ
الرَّسُولِ لَعَلَى أَوْ لِابْنِ عَبَّاسٍ فَانْ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْأُمَوِيِّينَ لَمْ يَنْسُوا رِيَاسَةَ قُرَيْشٍ
وَإِنْ لَمْ يَطْلُبُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ مَبَاشَرَةً ، بَلْ طَلَبُوهَا لِابْنِ مَنْفٍ بَنِي قُصَيٍّ بَنِ
كَلَابٍ ، وَعَلَى كُلِّ فَقْدٍ بَقِيَتْ الْخِلَافَةُ فِي قُرَيْشٍ وَتَوَلَّاهَا أَوَّلُ الْأَمْرِ اثْنَانِ مِنْ
غَيْرِ عَبْدِ مَنْفٍ هُمَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَالنَّاسُ فِي الظَّاهِرِ هَادِئُونَ
وَإِنْ كَانَ الْوَاقِعُ السِّيَاسِيُّ أَنَّ كَلَامَ مَنْ بَنَى أُمِيَّةَ وَهَاشِمٍ يَرْقُبُهَا كَيْفَ تَتَجَهَّزُ وَأَيْنَ
تَسْتَقِرُّ ، فَلَمَّا وَلِيَهَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ خَضَعَ عَلَى نَتِيجَةِ الشُّورَى وَإِنْ وَقَرَّ فِي نَفْسِهِ
سَخَطٌ رُبَّمَا شَابَتْهُ عَصَبِيَّةُ هَاشِمِيَّةٍ . وَأَمَّا بَنُو أُمِيَّةٍ فَقَدْ رَأَوْا الْأَمْرَ عَادَ إِلَيْهِمْ وَيَجِبُ
أَلَّا يَفْلَتَ مِنْ أَيْدِيهِمْ أَبَدًا ، فِي مَرُوجِ الذَّهَبِ ^(١) أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ صَخَّرَ بَنَ حَرْبٍ
دَخَلَ دَارَ عُثْمَانَ عَقِبَ بَيْعَتِهِ وَمَعَهُ بَنُو أُمِيَّةٍ ، فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ — وَقَدْ كَانَ عَمِي —
أَفِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : « يَا بَنِي أُمِيَّةَ ، تَلَقَّوْهَا تَلَقُّوا السَّكْرَةَ ،
فَوَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ أَبُو سَفْيَانَ مَا زِلْتُ أَرْجُوهَا لَكُمْ وَلِتَصِيرَنَّ إِلَى صَبِيَّانِكُمْ
وِرَاثَةً » فَاتَّهَرَهُ عُثْمَانُ وَسَاءَ مَا قَالَ ، وَبَلَغَ ذَلِكَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَكَانَ مِنْهُ
مَلَا حَاجَةٌ وَخَطْبٌ طَوِيلٌ .

وَلَمَّا قَتَلَ عُثْمَانَ وَخَشِيتْ أُمِيَّةُ أَنْ يُخْرِجَ الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِيهِمْ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ

استغلوا مصرعه في سبيل الابقاء على الملك الاسلامي ، فقد ورد أن علياً بعد مقتل عثمان أرسل فأخذ ما كان في داره من السلاح وإبل الصدقة فقال في ذلك الوليد بن عقبة أخو عثمان بن عفان لأمه من أبيات : —

بني هاشم رُدوا سلاح ابنِ أختكم ولا تُنهبوه لا تحلّ مناهبه
بني هاشم لا تعجلوا باقادة سواي علينا قاتلوه وسالبه
وإنا وإياكم وما كان منكم كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعبه
بني هاشم كيف التعاقد بيننا وعند علي سيفه ونجائبه
لعمرك لا أنسى ابن أروى وقتله وهل ينسين الماء ما عاش شاربهُ
هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مراربهُ
وإني لمجتاب إليكم بمجفل يصم السميع جرسه وجلائبه^(١)

وهنا قام معاوية بالشام يزاحم علياً على الخلافة محتجاً بأنه ولي ثار عثمان ووارثه وأن علياً فرط في حقه ، ويشور الأمويون من مكة ويدفعون عائشة إلى وقعة الجمل ويعتصم على بالعراق ، ويرى معاوية ثأراً دعيماً ، وتحدث (صفيين) بينهما ويكون التحكيم ويستغله معاوية لصالحه مستعيناً عمرو بن العاص كما مر ، ويخرج الناس من صفيين أحزاباً ثلاثة : شيعة وخوارج وأمويين ، ويقتل علي ويتنازل الحسن ويتم الأمر لمعاوية ويستقر الملك في بني أمية ، وقد غلبت سياستهم شجاعة بني هاشم كما أسبقنا .

أخذ معاوية يجد في إقرار الملك في بيته وينحى عنه الهاشميين معتمداً على الترغيب والترهيب ، يترضى الأنصار ، ويقسو على الخوارج ، ويلين مع آل هاشم حتى يفيض الخير على عقيل بن أبي طالب أخى علي مع قسوة عقيل^(٢) ويجور على الدين في سبيل السياسة^(٣) ويصير الحكم ملكاً عضوضاً وراثياً ويقول :

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٦ .

(١) الأغاني ج ٥ ص ١٢٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٣٢ .

« أنا أول الملوك »^(١) ويستلحق زياداً ويحلم عن عبد الرحمن بن حسان لما تغزل بابتنته رملة ، ويتجلّد حين وفاته ، ويحتال لولاية ابنه يزيد من بعده ، ويقف بجانبه في ذلك من الشعراء مسكين الدارمي المتوفى سنة تسعين هجرية فهو القائل في هذا الحفل الذي عقد لتولية يزيد عهد أبيه : —

ألا ليت شعري ما يقول ابنُ عامر ومروانُ أم ماذا يقول سعيدُ
بنى خلفاء الله ؛ مهلاً ، فإنما يُبوسّها الرحمن حيث يريدُ
إذا المنبرُ الغربي خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد^(٢)

وقد ذكرنا قبلُ قصة عبد الرحمن بن حسان ورملة بنت معاوية وتدخل يزيد والأخطل والنعمان بن بشير ، ثم معالجة معاوية ذلك الأمر بالحسنى وقد كانت سياسة معاوية منهجاً دلّ على صلاحية هذه الأسرة للحكم ، وكانت الأشكال السياسية التي انتهجها كثرة بنى أمية زمنية تستحل الوسيلة في سبيل الغاية ، وإذا نظرنا إلى السياسة من هذا الجانب العملي ونحيناها عن المقاييس الدينية والخلقية فلا شك أن الأمويين كانوا رجالها الممتازين قد سبقوا معاصريهم من العرب في هذا المضمار ، وتجاوزوا بتفكيرهم السياسي وقتهم الذي تشبث فيه الناس بنزعات دينية وخرقية لم يبالها الأمويون ، فكانت في عصرهم نزعتان : إحداهما تميل إلى التخرج الديني والخلقى أو تجل بلاد الحجاز ومشاعرها الدينية ، وقریشاً ومكانتها العتيقة ، وآل بيت الرسول وحرمتهم المقدسة ، والأخرى تنزع إلى التحلل من ذلك بقدر ، وتشبث بالملك وغاياته ، وتزدرى ذلك الدل الذي عكف عليه الهاشميون ، وربما سخرت من هذه الضجة التي ثارت حينذاك باسم الدين وبيت الرسول . . هذه هي الأموية الحاكمة ، وتلك هي المعارضة يمثلها سائر الأحزاب ، ولعل ما تورطت فيه أمية من إحياء العصبية الجنسية والقبلية هو أهم ما ذهب بملكها العتيد .

وكان يزيد بن معاوية في عنف جده أبي سفيان ابتلكته السياسة بخروج

(١) تاريخ يعقوبى ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ٦٨ وراجع مروج الذهب ج ٣ ص ٣ و ١٤٠ .

ابن الزبير وبثورة المدينة ومكة ، وبمصرع الحسين بن عليّ ، ولما كانت وقعة الحرة واستباحة المدينة والتفكيك بالأنصار تمثل يزيد بقول ابن الزبير يوم أحد : —
ليت أشياخي ببدر شهدوا جزعاً الخرج من وقع الأسك
مما يدل على تلك الإحزن البدرية المعروفة بالبقية .

فإذا تولى مروان بن الحكم ، ينتقل الملك الأموي من البيت السفيناني إلى البيت المرواني وينتصر مروان باليمينية على ابن الزبير ومعه القيسية بزعامة الضحاک ابن قيس الفهري في (مرج راهط) وتنشط العصبيات ، ويأتي عبد الملك ابن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) فيكون عصره أنشط عصور الملوك الأمويين في سبيل الملك ويشتد الصراع ويأخذ كل حزب وضعه أولاً ، ويتبين سبيله ونهايته ثانياً ، ويسير خلفاؤه على سياسة متباينة المناهج في تفاصيلها تبعاً لشخصيات الملوك وإن كانت أموية بوجه عام .

وحين نتناول السياسة الأموية وصلتها بالشعر السياسي يحسن أن نعرضها في النقط الآتية : —

الأمويون من حيث أنهم حزب سياسي أولاً ، ومن حيث أنهم ساسة للرعية ثانياً ، ومن حيث ولايتهم وقوادهم الذين يمثلون سياستهم في أقاليم الدولة ثالثاً ، وأخيراً من حيث صلاتهم الخارجية بالشعوب الأخرى .

(١) قام الحزب الأموي على أساس أن هناك خليفة أمويًا هو عثمان الذي قتل مظلوماً وأهل بيته هم أولياء دمه يمثلهم معاوية ، وأن الأمويين أصلح للحكم وأقوم الناس بأعبائه ومعهم كثرة تؤيدهم ، وأنهم أصحاب مجد قديم ينافي مجد الهاشميين ، وأن نتيجة التحكيم في أعقاب (صفين) كانت في جانبهم ثم زعموا للناس أنهم وارثو النبي^(١) فصاروا بذلك أحق الناس بهذا الملك الاسلامي .

(٢) هذه الأصول مدنية أكثر منها دينية ، فالخوارج أقاموا مذهبهم على أساس ديني من التقى والزهد والمساواة بين الناس وتحاشى الأثرة السياسية التي تورط فيها الهاشميون والأمويون ، والشيعية اعتصموا بصاحب الدين ومبلغ رسالته لقرابتهم منه ووصايته لهم أن يكونوا ملوكه ، كذلك الزبيريون غضبوا ، فيما قالوا ، لله ورسوله والمهاجرين والأنصار من أثرة معاوية وابنه وأهله بالفيء ، ونقم الموالى من بنى أمية مجافاتهم روح الإسلام الديمقراطي بتفضيلهم العرب على الشعوب الأخرى ، أما الأمويون فلم ير الناس لهم هذا الأصل الديني ، بل رأوهم سياسيين طلاب دنيا وملك ، تبرر غايتهم كل وسيلة ، اصطنعوا الأرستقراطية العربية والوراثة الملكية وأنشأوا ولاية العهد ، وعادوا أكاسرة أو قياصرة واعتمدوا على قوة السيف والمال والعقل في تأييد عرشهم ، فكان الناس ينجحون إليهم طمعاً في ما لهم ، أو خوفاً من بأسهم ، سواء أكانوا قبائل أم أفراداً وربما انصرف عنهم بعض الأمويين تخرجاً أو غضباً في سنبل أطماع ؛ فعمر بن عبد العزيز ينكر سب على ويحاول إعادة سياسة ابن الخطاب ، ومعاوية الثاني يدعو إلى نظام الشورى ويبرأ من سياسة جده معاوية وأبيه يزيد ، وخالد بن يزيد يغلبه الحب على السياسة فيصبح في حبه زبيرياً ثم هاشمياً ، وكان العبدى الأموى الشاعر يميل إلى بنى هشام ويذم بنى أمية ^(١) .

(٣) والشعراء الذين يمثلون هذا الحزب الأموى سايروا الملوك بهذا الأسلوب نفسه فكانوا على العموم ، نفعيين يمدحونهم طمعاً في العطاء أو خوفاً من العقاب ، وقاموا بتجديدهم على أصل مذهبي ما عدا ابن الرقيات إذا صح أنه آمن بهم من حيث أنهم قرشيون ، وأبا العباس الأعمى مولى بنى الدليل من كنانة ، ذلك الذى حفظ لهم الود بعد زوال ملكهم ، ومنهم من نافقهم وصرح بذلك كاسماعيل ابن يسار ، وكثير الذى عرف منه عبد الملك ذلك وهو خارج لقتال مصعب فأرجعه ، وكثرة الشعراء مدحت غيرهم كالزبيريين وسواهم من الولاة ولم نجد

أحداً اختص بهم وفقى في مذهبهم ، بل نجد من انحرف عنهم واضطرب بين أفرادهم ، وهذا أبو قطيفة الشاعر الأموى من العنابس ينحرف عن عبد الملك كما ترى بعد حين .

(٤) أما الناحية الفنية فلم نر فيها كثير حدة ؛ لم نجد هذه العقيدة الحارة التي رأيناها عند الخوارج وبعض الشيعة ، وإنما هي شخصيات فنية عادية تتفاوت في درجات المديح الذي يقوم على الصفات العامة غالباً كالكرم ، والحلم ، وحسن السياسة والمجد القديم والحظ المواتى مما وضع الأخطل أساسه في قصيدته المشهورة التي مدح بها عبد الملك بن مروان : —

خَفَّ الْقَطِيطُ فَرَا حَوْا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا وَأَزْعَجَتْهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرُ
وَتَبِعَهُ الشَّعْرَاءُ فِي ذَلِكَ حَتَّى مَلَّهَا عَبْدُ الْمَلِكِ وَنَقَمَ مِنْهُمْ أَنْ لَمْ يَأْتُوا بِمَعَانٍ
جَدِيدَةٍ كَمَا يَفْعَلُ شَعْرَاءُ الشَّيْعَةِ مِثْلًا أَوْ الزَّيْيرَةِ وَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِيمَا مَضَى ^(١) .

(٥) وننتقدم هنا للتعريف ببعض شعراء هذا الحزب بغاية الإيجاز .

(١) أبو العباس الأعمى ^(٢) من شعرائهم المعدودين المقدمين في مدحهم والتشجيع لهم وانصباب الهوى إليهم وهو القائل في عامر بن وائلة أبي الطفيل صاحب على بن أبي طالب : —

لَعَمْرُكَ إِنَّنِي وَأَبَا طُفَيْلٍ لِمُخْتَلَفَانِ وَاللَّهُ الشَّهِيدُ
أَرَى عُثْمَانَ مُهْتَدِيًا وَيَأْبَى مُتَابِعِي وَأَبَى مَا يُرِيدُ

مدح مروان بن محمد بهذا الشعر الجزل الممتاز الذي يصور بني أمية صورتهم التاريخية الرائعة : —

لَيْتَ شَعْرَى أَفَاحَ رَائِحَةِ الْمِسْكِ وَمَا إِنْ إِخَالُ بِالْخَيْفِ أُنْسِي
حِينَ غَابَتْ بَنُو أُمَيَّةَ عَنْهُ وَالْبَهَائِلُ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ
خُطْبَاءَ عَلَى الْمَنَابِرِ فَرَسًا نَ عَلَيْهِمْ وَقَالَةَ غَيْرُ خُرْسٍ

(١) راجع ترجمة كعب الأشقرى في الأغاني ج ٥ ص ١٤٥ بلاق .

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ٥٩ — ٦٣ .

لا يُعابون صامتين ، وإن قا لوا أصابوا ولم يقولوا بلبسِ
 جلوم إذا الحلوم تقصّت ووجوه مثل الدنانير ملسِ
 سمع منه ذلك المنصور أيام مروان بن محمد ، فلما آلت الخلافة إلى المنصور
 خرج حاجاً فلقى هذا الشاعر فقال له : أتعرفني ؟ قال : لا ، قال له المنصور : أنا
 رفيقك وأنت تريد الشام أيام مروان ، فقال : أوه : —

آمت نساء بنى أمية منهمُ وبناتهم بمضيعة أيتــــــــــــــــامُ
 نامت جدودهمُ وأسقط نجمهمُ والنجمُ يسقط والجدودُ زِيامُ
 خلّت المناير والأسيرة منهمُ فعليهم حتى الماتِ سلامُ
 ولم يقبل من المنصور عطاء ، لأن مروان أغناه أن يسأل أحداً بعده ، ومن
 شعره يحض بنى أمية على عبد الله بن الزبير : —

أبنى أمية لا أرى لكمُ شهباً إذا ما التفت الشيعُ
 سعة وأحلاماً إذا نزعتم أهل الحلوم فضرها النزع
 الله أعطاكم وإن رغمت من ذاك أنف معاشرِ رفعوا
 أبنى أمية غير أنكمُ والناس فيما أطمعوا طمعوا
 أطمعتم فيكم عدوكمو فسما بهم في ذاكمُ الطمع

الآبيات . ولما غلب ابن الزبير على مكة نفاه إلى الطائف فهجا الزبيريين
 ورماهم بالبخل واللؤم والتخلف عن قریش في المفاخر ، ولكنه مع ذلك كان
 يفرق بين الصداقة الخاصة والعداوة الحزبية فقد كان صديق مصعب بن الزبير ،
 قال له عبد الملك يوماً أنشدني مديحك مصعباً فاستغفاه فقال : يا أمير المؤمنين إنما
 رثيته بذلك لأنه كان صديقي وقد علمت أن هواي أموى ، قال صدقت ولكن
 أنشدني ماقلت فأئشده : —

يرحمُ الله مصعباً فلقد ما ت كريماً ورامُ أمراً جسياً
 فقال عبد الملك : أجل لقد مات كريماً ثم تمثل : —
 ولكنه رام التي لا يرومها من الناس إلا كُلهُ حرٌّ معممٌ

كان أبو العباس مولى ، جزل الشعر ، صادق الأموية ، لم يتابع بنى العباس مع أنهم حموا الموالى ، ولقى فى سبيل أمويته عناء ابن الزبير ، ولعله لم يُعن بالاحتجاج لمذهب الأمويين إلا هذه الصفات التى مرت فى مدحه مروان .

* * *

(ب) أعشى ربيعة^(١) عبد الله بن خارجة الشيبانى شاعر إسلامى من ساكنى الكوفة مروانى المذهب ، شديد التعصب لبني أمية ، مدح عبد الملك بن مروان فقال من أبيات : —

وما أنا فى أمرى ولا فى خُصومتى بمهتضمٍ حقى ولا قارعٍ سنى
وفضّلنى فى الشعر واللب أننى أقول على علم وأعرف ما أغنى
فأصبحت إذ فضّلت مروان وابنه على الناس قد فضّلت خير أب وابن
فأحسن جائزته ، وقد دخل على عبد الملك وهو يتردد فى الخروج لمحاربة ابن الزبير ولا يجد دفعه بكلام مشور جيد ثم أنشده : —

آلُ الزبير من الخلافة كالتى عجل النجاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حمّلت ما لا تطيق فضيحت أحالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتم إمهالها
إن الخلافة فيكم لا فيهم ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا فانهض بيمنك فافتتح أبقالها
فضحك عبد الملك وقال : صدقت يا أبا عبد الله ، إن أبا خبيب لقفل دون كل خير ولا تتأخر عن مناجزته إن شاء الله ونستعين الله عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

* * *

(ج) والنابعة الشيبانى^(٢) من ثعلبة بن بكر بدوى من شعراء الدولة الأموية

(١) الأغانى ج ١١ ص ٢٨١ دار الكتب .

(٢) الأغانى ج ٧ ص ١٠٦ والديوان .

مدح الأمويين وأسنوا له العطاء وهو القائل لعبد الملك لما همّ بخلع أخيه عبد العزيز
وتولية الوليد ابنه العهد : —

أزحت عنا آل الزبير ولو كانوا هم المالـكين ما صلحوا
آل أبي العاصي آل مأثرة غرّ عتاق بالخير قد نفحوا
خير قریش وهم أفاضلها في الجد جدّ وإن همّ مزحوا
أما قریش فأنت وارثها تكف من غرّهم إذا طمّحوا
لأبـنك أولى بملك والده ونجم من قد عصاك مطّرح

فقال عبد العزيز : لقد أدخل ابن النصرانية نفسه مدخلا ضيقاً فأوردها
مورداً خطراً والله على لئن ظفرتُ به لأخضبنّ قدمه بدمه .

وله مدائح شتى في يزيد بن عبد الملك وأخويه الوليد ومسلمة ، ومن قوله
ليزيد لما هزم يزيد بن المهلب : —

فضضت كتائب الأزدی فضاً بكبشك حين لقيهما اللقاء
سمكت الملك مققبلا جديدا كما سُمكت على الأرض السماء
نُرَجى أن تكون لنا إماما وفي مُلك الوليد لنا رجاء
هشام والوليد وكل نفس تريد لك الفناء ، لك الفداء
فأقصاه هشام لما ولي الخلافة . غلبت على النابغة مسألة ولاية العهد فأذته .

* * *

(د) وعدى بن الرقاع^(١) من كهلان أقام بدمشق فكان حضرياً مقدماً
عند بني أمية مداحاً لهم وبخاصة الوليد بن عبد الملك وهو القائل فيه من قصيدة : —

ولقد أراد الله إذ ولاّ كها من أمة إصلاحها ورشادها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت وكففت عنها من يروم فسادها
وأصبت في أرض العدو مصيبة عمت أقاصي غورها ونجادها
ظفراً ونصراً ما تناول مثله أحد من الخلفاء كان أرادها

ومن قوله فيه :

هو الذى جمع الرحمنُ أمته على يديه وكانوا قبله شيعاً
إن الوليد أمير المؤمنين له ملك عليه أعان الله فارتعنا
ومن قوله فى قتل مصعب بن الزبير بقرية من مسكن يقال لها دير الجاثليق : —
لعمري لقد أضحرتُ خيلنا بأكناف دجلة للمصعب
يهزّون كل طويل القنا قِردنا ومعتدل الثعلب
فمن يكُ منا بيت آمنا ومن يك من غيرنا يهرب

* * *

(هـ) أبو صخر الهذلى ^(١) شاعر إسلامى كان موالياً لبني مروان متعصباً
لهم مدح عبد الملك بن مروان وأخاه عبد العزيز ، وعبد العزيز بن خالد بن أسيد ،
ورد على ابن الزبير فى وفد من قومه فمنعه عطاءه لهواه الأموى فرد عليه الشاعر
مفضلاً الأمويين مزرياً بالزبيرين فسجنه ثم استوهبته هذيل فأطلقه ولما قتل
ابن الزبير لقيه عبد الملك حاجاً فأكرمه ، وأنشده الشاعر فيما كان بين هذين
الحزبين من قصيدة : —

عفت ذاتُ عرق عصلها فرئامها فضحياؤها وحشٌ قد اجلى سوامها
إذا اعتلجت فيها الرياح وأدرجت عشيّاً جرى فى جانبها قمامها
فأقصر فلا ما قد مضى لك راجع ولا لذة الدنيا يدوم دوامها
وفدّ أمير المؤمنين الذى رمى بجأواء جمهورِ تمور إكامها
من ارض قرى الزيتون مكة بعدما غلبنا عليها واستحل حرامها
أخذ فيها الفاسقون وأفسدوا فخافت فواشيها وطار حمامها
فصبّحهم بالخليل تزحف بالقنا وبيضاء مثل الشمس يبرق لامها
فطهر منهم بطن مكة ماجد أبى شبة الضيم حين يُسامها

وهو بذلك يدفع ما احتجت به الزيرية من الاعتزاز بالحجاز وحماية الحرم .

* * *

(و) عبد الله بن الزبير الأسدي^(١) كوفي المنشأ كان من شيعة بنى أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب لهم والنصرة على عدوهم ، اضطرتة الحوادث أن يتصل بمصعب بن الزبير ، ويهجو عبد الرحمن بن أم الحكم وإلى السكوفة لمعاوية ، ويمدح أسماء بن خارجة ، ويرثي يعقوب بن طلحة الذى قتل يوم (الحرة) ، ويدخل سجن زفر بن الحارث بقرقيسياء إلى غير ذلك مما يدل على نشاط هذا الشاعر واضطرابه ، مدح بشر بن مروان فأوفده على عبد الملك فمدحه بشعر فيه ثناء على بشر ، ولما قتل ابن الزبير أنشد عبد الملك : —

مشى ابن الزبير القهقرى فتقدمت أمية حتى أحرزوا القصبات
وجئت الجلى يابن مروان سابقا أمام قریش تنفض العذرات
فلا زلت سباقاً إلى كل غاية إلى المجد نجا من الغمرات
وهكذا نجد الشعر السياسى شديد الاتصال بالملكية الأموية ، وما اتصل بها من ولاية العهد ، هذه المسألة التى تورط فيها جماعة من الشعراء كابن قيس الرقيات ، ومسكين الدارمي ، والنابعة الشيباني ، وجريز ، وقد كان موقف الشعراء كموقف الخلفاء أنفسهم أدى إلى أحقاد واضطراب وسبب آلاماً كثيرة ، منها المساعدة على إضعاف الأمويين .

— ٤ —

وإذا رُحنا نعرض الشعر المتصل بسياسة الملوك للرعية وجدنا فيه صورة صادقة لشخصياتهم السياسية ، سواء منه ما قاله الشعراء فى الملوك وما تمثل به الملوك أو قالوه هم ابتداءً ، فى الشعر حلم معاوية ، وعنف يزيد ابنه ، وحزم عبد الملك ، وتخرج عمر بن عبد العزيز ، وقسوة هشام ، وعبت يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، واضطراب مروان بن محمد وسقوطه آخر الأمر .

(١) الأغاني ج ١٣ ص ٣٣ — ٤٩ ، بلاق .

وهذا شيء طبعي فقد كان الشعراء يصورون سلوك الخلفاء أو يقولون الشعر مسaire لهم وأحياناً يقولونه نقداً ومعارضة ، فلما اعتمد الخلفاء على تلك العصبية أشعل الشعراء نارها فاستطارت شرقاً وغرباً ، ومزقت الأمة شيعاً وأحزاباً كانت من أقوى العوامل على ذهاب هذا الملك العريض .

والشعر الذي يصور هذا الجانب السياسي كثير نجتزئ منه بأبيات تدل على سواها مما تضمنته كتب الأدب ودواوين الشعراء .

(١) وقد رأينا الشعر في ضم معاوية عمرو بن العاص إلى جانبه ، واستلحاقه زياد بن أبيه ، ونراه في عفو معاوية عن عبد الله بن هاشم بن عتبة صاحب على يوم صفين على الرغم من عمرو بن العاص الذي تمثل قول الشاعر : —

وقد يَنْبَتُ المرعى على دِمَنِ الثرى وتبقى حَزَازَاتُ النفوس كماهيا

ثم تناقض مع عبد الله بشعر كان شناعةً وبغضاً ولكن معاوية قال : —

أَرَى العَفْوَ عن عَلِيَا قُرَيْشٍ وَسِيْلَةً إِلَى الله في يوم عصيبٍ قَمَاطِرٍ
ولستُ أرى قتل العُدَاةِ ابنِ هَاشِمٍ بِإِدْرَاكِ تَأْرِي في لَوَى وعَامِرٍ
بل العفو عنه بعدما بان جُرْمُهُ وزلت به إحدى الجُدود العَوَائرُ^(١)

ولما وفد جابر بن عبد الله الأنصارى على معاوية فلم يأذن له ، لاحاه وانصرف عنه فوجه إليه معاوية بستمائة دينار فردّها إليه وكتب إليه : —

وَإِنِّي لِأَخْتَارِ الْقَنُوعَ عَلَى الْغِنَى إِذَا اجْتَمَعَ الْمَاءُ بِالْبَارِدِ الْحَضِ
وَأَقْضِي عَلَى نَفْسِي إِذَا الْأَمْرُ نَابَنِي وَفِي النَّاسِ مَنْ يُقْضَى عَلَيْهِ وَلَا يَقْضَى
وَأَلْبَسَ أَثْوَابَ الْحَيَاءِ وَقَدْ أَرَى مَكَانَ الْغِنَى أَلَا أَهَيْنَ لَهُ عَرْضِي

وقال لرسوله : قل له والله يابن آكلة الأكباد لا وُجِدَ في صحيفتك حسنة أنا سببها أبداً ، وحلم عنه معاوية ، وقد مر لمعاوية شواهد أخرى^(٢) .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٢ — ٣١٤ وأكثر هذه النقول عن هذا الكتاب ج ٢ و ٣ .

(٢) الفصل الثالث من الباب الثاني .

(٢) وفي عهد يزيد بن معاوية قتل الحسين بن علي بكر بلاء وحمل رأسه إلى يزيد فأقبل ينسكته بالقضيب ويقول : —

نُفِّقَ هَامِماً مِنْ رِجَالِ أَحِبَّةٍ عَلَيْنَا ، وَهُمْ كَانُوا أَعْقَ وَأَظْلَمَا
وقد رثاه سليمان بن قبة من أبيات : —

فَإِنْ قَتِيلَ الطِّفْلِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ أَذِلَّ رِقَاباً مِنْ قُرَيْشٍ فَذَلَّتْ
فَإِنْ يَتَّبِعُوهُ عَائِذَ الْبَيْتِ يَصْبَحُوا كَعَادِ تَعَمَّتْ عَنْ هُدَاهَا فَضَلَّتْ

وزيد هو الذي تمثل إثر وقعة الحرة بقول ابن الزبيري في أحد : —

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الْخَرْجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلِ
شِمَاتَةً وَاشْتِفَاءً ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا قَالَهُ فِيهَا مُحَمَّدُ بْنُ أَسْلَمٍ : —

فَإِنْ تَقْتُلُونَا يَوْمَ حَرَّةٍ وَاقِمِ فَنَحْنُ عَلَى الْإِسْلَامِ أَوَّلُ مَنْ قُتِلَ
وَنَحْنُ تَرْكُنَاكُمْ بِبَدْرٍ أَذَلَّةً وَأُنْبَا بِأَسْيَافٍ لَنَا مِنْكُمْ تُقْلُ

وفي يزيد وتملكه وتجبره وانقياد الناس إلى ملكه يقول الأحموس : —

مَلِكٌ تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ مَبَارَكٌ كَادَتْ لَهَيْتِهِ الْجِبَالُ تَزُولُ
تُجْبَى لَهُ بَلَخٌ وَدِجْلَةٌ كُلُّهَا وَلَهُ الْفَرَاتُ وَمَا سَقَى وَالنَّيْلُ

(٣) ولما خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على عبد الملك تمثل

قول الشاعر : —

أَنَاةً وَحِلْمًا وَانْتِظَارًا بِهِمْ غَدًا فَمَا أَنَا بِالْوَانِي وَلَا الضَّرِيعِ الْغَمْرِ
أُظُنُّ صُرُوفَ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ سَتَحْمَلُكُمْ غَنَى عَلَى مَرْكَبٍ وَعَرٍ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي تُخَافُ عِزَائِي وَأَنْ قَنَاتِي لَا تَلِينُ عَلَى الْكُسْرِ

ولما أسرف الحجاج في قتل أسارى (دير الجماجم) بلغ ذلك عبد الملك

فكتب إليه من أبيات في أسفل كتابه : —

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَطْلُبْ أُمُوراً كَرِهَتْهَا وَتَطْلُبُ رِضَائِي بِالَّذِي أَنَا طَالِبُهُ
وَتُخْشَى الَّذِي يُخْشَاهُ مِثْلِي هَارِبَا إِلَى اللَّهِ مِنْهُ ضَيِّعَ الدَّرَجَاتِ جَالِبُهُ

فان تر مِرني غفلة قُرشية فياربما قد غَصَّ بالماء شاربُهُ
 وإن تر مِني وثبة أموية فهذا وهذا كل ذا أنا صاحِبُهُ
 فلا ، لا تلغى والحوادثُ حجة فانك تجزى بما أنت كاسبُهُ
 ولا تعدُّ ما يأتيك مني وإن تعدُّ يقوم بها يوماً عليك نوادِبُهُ
 ولا تدفعن للناس حقاً علمته ولا تُعطين ما ليس لله جانبُهُ

فرد عليه الحجاج ضارعاً ثم كتب في أسفل كتابه : —

إذا أنا لم أتبع رضاك واتقى أذاك فيومي لا تزول كواكبه
 الأبيات ، وفي الأغاني ^(١) تجد قصته مع عبد الله بن الحجاج الشاعر الذي
 ثار مع عمرو بن سعيد على عبد الملك ، وانتهأها بالعفو عنه بعد لأي ومطاوله .

(٤) وأما سياسة عمر بن عبد العزيز فقد لخصها الفرزدق في أبيات

يرثيه بها : —

أقول لما نعى الناعون لي عمراً لقد نعيمتم قِوامَ الحق والدينِ
 قد غيَّب الرامسون اليوم إذ رمسوا بدَّير سمعان قسطاسَ الموازينِ
 لم يُلْهِه عمره عينٌ يفجرها ولا النخيل ولا رَكنُ البرازينِ
 وفيه يقول كثير عزة : —

وليت فلم تشتم علياً ولم تُخف برياً ولم تتبع مقالة مجرمِ
 تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلمِ
 وصدقت معروف الذي قلت بالذي فعلت فأضحى راضياً كلُّ مسلمِ

(٥) وهذا هشام بن عبد الملك لما قضى على زيد بن علي بن الحسين وصلبه

قال بعض شعراء بني أمية يخاطب آل أبي طالب وشيعتهم من أبيات : —

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم أر مهدياً على الجذع يُصلبُ

(٦) ولما كان مروان بن محمد مشغولاً بحرب الخوارج بالجزيرة وغيرها ،
والحال حوله مضطربة كتب إليه نصر بن سيار بخراسان : —

أرى بين الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
فان النار بالعودين تُذكى وإن الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري أيقاظ أمية أم نيام ؟ !
الآيات ، وزلزلت الأرض تحت أقدام مروان وكتب إليه نصر آخر
ما كتب : —

كنا نُرَفِّيهَا فقد مُزِّقَتْ واتسع الخرق على الراقع
كالثوب إذ أنهج فيه البلي أعياء على ذى الحيلة الصانع

* * *

ولما كانت العصبية من أهم عناصر السياسة الداخلية آثرنا أن نقول فيها كلمة
لنبين آثارها في الشعر ، ومقدار مآصورها في مدة الأمويين .

الأصل اللغوي لهذه الكلمة هو (عصب) والأعصاب حبال المفاصل التي
تلائم بينها وتشدها ، وتعصب القوم اجتمعوا ، والعصبية الأقارب والمحاماة
والمدافعة ، وأن يدعو الرجل إلى نصره عصبته والتألب معهم على من يناوئهم
ظالمين كانوا أو مظلومين .

وكانت العصبية لازمة للبدو يؤلفون بها القبائل ويوفرون الأمن والعدالة
كما قدمنا ، ولما جاء الاسلام نعى على هذه العصبية الجاهلية وأحل محلها الاخاء
الديني ، وسار الأمر على ذلك أيام الرسول وأبي بكر وعمر ، فلما تولى عثمان صبغ
الأمويون خلافته صبغة عصبية ثم كانت الأحداث التي أقامت الملك الأموي .

وقد شهد التاريخ الاسلامي عصبيات شتى ؛ فكانت إقليمية بين الشام
والعراق ، الأول مع معاوية ، والثاني مع علي ، ثم صار الحجاز مع ابن الزبير ،
وكانت مدنية بين المدن ، فالبصريون مع طلحة والكوفيون مع الزبير في ثورة
عثمان ، وأما في ثورة المختار فكانت البصرة تدل على الكوفة بانقاذها من أصحابه

فردّت الكوفة بما هزمت البصرة يوم الجمل ، وكانت جنسية بين العرب والموالي ، وعائلية بين الأمويين والهاشميين ، وأخيراً كانت قبلية بين القبائل الشمالية كقيس وتغلب ، وبين عدنان وقحطان كما كانت بين كلب وقيس أو بين الأزد وربيعة ، والناحية القبلية هي التي تعيننا الآن ، فمنذ لحظ معاوية انحراف مضر عنه أخذ يقترب إلى اليمنية فأصهر إلى كلب منهم ، وتزوج ميسون بنت بحدل أم يزيد ابنه ، فلما مات معاوية واعتصم عبد الله بن الزبير بالحجاز انضمت إليه القيسية ممثلة بذلك مضر أو نزراً ، وبدا للنظر انقسام العرب إلى حيين كبيرين ، أهل الشمال وأهل الجنوب ، ووقعت قيس بين عدوين : اليمن في الشام وتغلب في بلاد الجزيرة ، ولما تقدمت الأيام حاولت اليمنية أن تولى خالد بن يزيد ملك الأمويين ، ولكن مؤتمر (الجابية) آثر عليه مروان بن الحكم ، وعلى كل فقد ناصرته كلب حين عارضته قيس والتقى الجيشان في (مرج راهط) وانتصرت اليمنية فيه وتم الأمر لمروان سنة خمس وستين هجرية ، ولما تولى عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) صالح زفر بن الحارث السكلابي زعيم قيس وأنزله من حصن (قرقيسياء) وبذلك سكنت مؤقتاً هذه الفتن بين النزارية ، كما سكنت بين قيس وتغلب بعد أيام شنيعة ، وهكذا تستقر الأمور إلى آخر عهد عمر بن عبد العزيز ^(١).

وفي عهد يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) ثار يزيد بن المهلب بالعراق وانضمت إليه الأزد قبيلته وسخط سائر اليمنية على الأمويين ، وبالطبع ينحاز الخليفة إلى القيسية التي تمثل مضر فعلا شأنها وهان شأن اليمنيين ، ولما تولى هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) رأى أن القيسية نافذة السلطان فخافها وأخرها ، وقدم اليمنية ، وعزل ولاية مضر وولى العراق خالد بن عبد الله القسري ، ثم ولى خراسان أسداً أخاه ، ولم يصبر هشام على ذلك فعاد إلى المضربة ينحاز إليها ، ويولى العراق يوسف بن عمرو الثقفي ، ويرسل نصر بن سيار إلى خراسان ، ويعذب خالداً القسري حتى إذا مات ذكرت اليمن زعيمها السابق يزيد ابن المهلب الذي قتل في عهد يزيد بن عبد الملك وثارت ملحّة في التخلص من

الأمويين ، ويأتى الوليد بن يزيد فيقف بجانب مضر ولكن اليمنية تتخذ يزيد أخاه ذريعة لقتله ، وقيام يزيد بالأمر ثم الانتقام من المضرية .

فلما جاء مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ هـ) تعصب للقيسية فنارت اليمنية فى نواحي الشام خاصة ، وقامت الفتن فى أطراف المملكة ، وانتهى الأمر بقدم أبى مسلم الخراسانى وقيام الدولة العباسية .

هذه العصبية القبلية التى استغلها الأمويون لعلها تسند سياستهم ، قد عادت عليهم بالوبال ، وجعلت عصرهم معرضاً للإحـن والثرات ، وجعلتهم مكعبة بين اليمن ونزار خاصة ، حتى تقدم الموالى واستعانوا ببعض العرب على بعض وذهبوا بملك الأمويين .

وقبل أن نتقدم لعرض أمثلة للشعر السياسى القائم على العصبيات نلاحظ أن كانت هناك عصبيات رئيسية أربعة : يمنية ، وقيسية ، وتغلبية ، وتميمية ، وتلك كلها غير عصبيات قبلية أخرى صغيرة أو فرعية ربما كان بعضها أبعد أثراً فى الشعر السياسى وفى الحياة الاجتماعية ، وإذا علمنا أن نقائص جرير والفرزدق والأخطل كان آثاراً مباشرة للعصبيات القبلية ، وكانت خاضعة إلى حد بعيد للتيارات السياسية الداخلية علمنا أن العصبية كانت شراً مستطيراً على الحكومة الأموية ، وكانت خيراً عمياً على التاريخ الأدبى ، والاجتماعى ، والسياسى ، لهذه الأمة العربية فى الجاهلية وصدر الاسلام .

وأول ما يلقانا من هذه العصبيات ما كان بين عدنان وقحطان ، أو بين كلب وقيس أولاً ، ثم تستحيل هذه العصبية فتكون بين الأزـد وتيم ، وبين الأزـد وعبد القيس من تغلب ، وتعود آخر الأمر بين الحمين عامة حين تناولها الكميت ودعبل الخزاعى آخر الأمر .

(١) من شواهد هذه العصبية أنه لما قتل الضحاك بن قيس الفهرى من قيس عيلان فى (مرج راهط) وقتل معه أشراف قيس ، أقبل زفر بن الحارث هارباً — من كلب وكانوا مع مروان بن الحكم على القيسية التى كانت مع ابن

الزبير — حتى دخل (قرقيسياء) وتبعه عمير بن الحباب السلمي ، وأقبل زفر
يبكى قتلى المرج ويقول : —

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط لمروان صدعاً بيننا مُتفائياً
أريني سلاح ، لا أبالك ، إنني أرى الحرب لا تزدد إلا تمادياً
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا ومقتل همّام أمّني الأمانيا ؟
وتذهب كلب لم تتلها رماحنا وتترك قتلى راهط هي ما هيا ؟
فلم تُر مني نبوة قبل هذه : فرارى وتركى صاحبي ورائيا
أيذهب يوم واحد إن أسأته بصلح أيامي وحسن بلائيا ؟ !
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا وتثار من نسوان كلب نسائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا
فقال ابن المخللة الكلبي يحيمه : —

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط على زفر داء من الداء باقيا
تبكى على قتلى سليم وعامر وذبيان مغروراً وتبكي البواكيا
فأقبل عمير بن الحباب يُغير على بوادي كلب الذين اجتمعوا هم برياسة
حميد بن حريث بن بحدل الكلبي وأغاروا على بني نُمير من قيس عيلان ، ثم
أغار عبد الله بن مسعدة على بني فزارة من قيس أيضاً فقتلهم وأخذ أموالهم فقال
عوف القوافي من فزارة من قيس عيلان : —

مَنى الله أن ألقى حميد بن بحدل بمنزلة فيها إلى النصف معلما
لكيما نعطيه ونبلو بيننا سُرّيجية يعجمن في الهام معجما
ألا ليت أني صادفتني منيتي ولم أر قتلى العام يا أمّ أساما
ولم أر قتلى لم تدع لي بعدها يدين ، فما أرجو من العيش أجدا^(١)
(٢) اجتمع ابن ميادة الشاعر الغطفاني القيسي وعقال بن هاشم المني بباب

الوليد بن يزيد ، وكان عقال شديد الرأى فى اليمن ، فغمز عقالُ ابن ميادة واعتلاه ،
فقال ابن ميادة : —

فجرنا ينابيع الكلام وبحره فأصبح فيه ذو الرواية يسبحُ
وما الشعر إلا شعرُ قيسٍ وخندفٍ وقولُ سواهم كلفة وتملحُ
فقال عقال يحجبه : —

ألا أبلغ الرماح نقضَ مقالة بها خطل الرماح أو كان يمزحُ
لئن كان فى قيسٍ وخندفَ ألسنٌ طوال وشعر سائر ليس يقدح
لقد خرَّق الحى اليمانون قبلهم بحور الكلام تستقى وهى تطفح
وهم علّموا من بعدهم فتعلموا وهم أعرّبوا هذا الكلام وأوضحوا
فلمسأبقين الفضل لا يُجحدونه وليس لخلقٍ عليهم تبجحُ (١)

(٣) ولى المغيرة بن شعبة كثير بن شهاب الحارثى على ثغر الرّى ، وكان
معه عبد الله بن الحجاج الغطفانى من قيس عيلان ، فأغار الناس على الديلم فأصاب
ابن الحجاج رجلا منهم فأخذ سلبه ، فانتزعه منه كثير وأمر بضربه وحبسه ، ثم
خلى سبيله بعد مدة ، فقال ابن الحجاج فى ذلك : —

سأترك ثغر الرّى ما كنت واليا عليه لأمر غالى وشجاني
فإن أنا لم أدرك بثأرى وأتتد فلا تدعنى للصيد من غطفان
تمنيتنى يا بن الحصين سفاهة ومالك بنى يابن الحصين يدان
فانى زعيم أن أجلل عاجلا بسيفي كفاحاً هامة ابن كمان
فلما عزل كثير وقدم الكوفة كمن له ابن الحجاج فضربه بعمود على وجهه
فهم مقادير أسنانه كلها وقال : —

من مبلغ قيسا وخندف أنى ضربت كثيراً مضرب الظربان
فأقسم لا ينفك ضربة وجهه بذل ويخزى الدهر كل يمان

فَإِنْ تَلَقَّنِي تَلَقَّ امْرَأٌ قَدْ لَقِيَتْهُ سَرِيعاً إِلَى الْهِجَاءِ غَيْرَ حَبَانٍ
وَحَوْلَى مَنْ قِيسَ وَخَنْدَفَ عَصْبَةٍ كَرَامٌ عَلَى الْبَأْسَاءِ وَالْخَدَثَانِ
أَنَا ابْنُ بَنِي قِيسَ عَلَى تَعَطُّفٍ بَغِيضٌ بَن رَيْثٍ بَعْدَ آلِ دَجَانٍ
فَكُتِبَ نَاسٌ مِنَ الْيَمَانِيَةِ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ إِلَى مَعَاوِيَةَ أَنْ سَمِدْنَا ضَرْبَهُ
خَسِيسٌ مِنْ غُطْفَانٍ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَقِيدَنَا مِنْ أَسْمَاءِ بْنِ خَارِجَةَ فَحْمَقَهُمْ مَعَاوِيَةَ
وَقَالَ كَثِيرُ بْنُ شِهَابٍ : لَا أَسْتَقِيدُهَا إِلَّا مِنْ سَيِّدِ مَضَرَ ، فَغَضِبَ مَعَاوِيَةُ وَقَالَ :
أَنَا سَيِّدُ مَضَرَ فَلَيْسَتْ قَدِيدُهَا مِنِّي وَأَمَّنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَجَّاجِ وَأُطْلِقَهُ وَبَطْلُ مَا فَعَلَهُ
بِابْنِ شِهَابٍ فَلَمْ يَقْتَصْ ، وَلَا أَخَذَ لَهُ عَقْلًا ^(١) .

(٤) وَمِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ مَا كَانَ مِنْ تَمِيمٍ يُمَثِّلُهَا الْفَرَزْدَقُ ، وَالْأَزْدُ الْيَمْنِيَّةُ يُمَثِّلُهَا
الطَّرِمَّاحُ بْنُ حَكِيمٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ مَجَاشِعَ ، رَهَطَ الْفَرَزْدَقُ ، هُوَ هُرَيْرِمُ
ابْنُ أَبِي طَحْمَةَ الْمَجَاشَعِيُّ كَانَ مَعَ مَسَامَةِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ يَوْمَ (بَابِلَ) ، فَضَرَبَ يَدَ يَزِيدَ
ابْنَ الْمُهَلَّبِ فَقَطَعَهَا ، فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ مِنْ قَصِيدَةٍ : —

أَحْلَ هُرَيْرِمُ يَوْمَ بَابِلَ بِالْقَنَّا نُدُورُ نِسَاءٍ مِنْ تَمِيمٍ فَخَلَّتِ
فَأَصْبَحْنَ لَا يَشْرِيْنَ نَفْسًا بِنَفْسِهِ مِنَ النَّاسِ إِنْ عَنْهُ الْمَنِيَّةُ زَلَّتِ
لَعَمْرِي لَقَدْ جَلَى هُرَيْرِمُ بِسَيْفِهِ وَجُوهًا عُلَّتْهَا غَبْرَةٌ فَتَجَلَّتِ
وَقَائِلَةٌ كَيْفَ الْقَتَالُ وَلَوْ رَأَتْ هُرَيْرِمًا لِدَارَتْ عَيْنُهَا وَاسْمَدَرَتْ
كَأَنَّ رَعُوسَ الْأَزْدِ خُطْبَانُ حَنْظَلٍ تَخَرُّ عَلَى أَكْتَفَاهُمْ حِينَ وَلَّتِ
أَتَتْكَ جُنُودُ الشَّامِ تَخْفُقُ فَوْقَهَا لَهَا خِرْقٌ كَالطَّيْرِ حِينَ اسْتَقَلَّتِ
تَجْبُرُكَ السَّكَنَانُ أَنَّكَ نَاقِضٌ دَمَشَقُ الَّتِي كَانَتْ إِذَا الْحَرْبُ حَرَّتِ
صُخُورَ الشَّظَا مِنْ فِرْعَازِ الشَّرِّ فَاثْنَمَتْ فَطَالَتْ عَلَى رَغَمِ الْعِدَا فَاشْمَخَتْ ^(٢)

وَقَالَ الطَّرِمَّاحُ مِنْ قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ : —

أَلَا إِنْ سَلِمَى عَنْ هَوَانَا تَسَلَّتْ وَبَيَّتْ قُوَى مَا بَيْنَنَا وَأَدَلَّتْ

عداني عنها أني كلَّ شارق
بأى بلادٍ تطلبُ العزَّ بعدما
أقرت تميم لابن دحمة حكمه
وكانت تميم وسط قحطان إذ سمّت
ونجّاك من أسد العراق كتائبُ
بهم نصر الله الخليفة كلها
أنفراً تميمياً إذا فتنة خبتُ
ولو خرج الدجال ينشد دينه
فخرت بيوم (العقر) شرقاً بابل
فخرت بيوم لم يكن لك فخره
كفخر الاماء الرائحات عشيّة
أهزّ لحرب ذات نيرين التي
بمولدها هانت تميم وذلت
وكانت إذا سيمت هوأنا أقرت^(١)
كمقدوفة في اليم ليلا فضلت
لقحطان أهل الشام يوم استهلت
رأوا نعل صنديد عن الحق زلت
ولوأما إذا ما المشرفية سلّت
لزافت تميم حوله واجزألت
وقد جبّنت فيه تميم وقلت
وقد نهلت منك الرماح وعلت
برقم حدوج الحى حين استقلت^(٢)

(٥) وفي مروج الذهب للمسعودي^(٣) أن الكميت لما قال (هاشمياته)
عرضها على الفرزدق فأجازها ثم أنشدها أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي
رضي الله عنه ، فحاول الهاشميون إثابته فأبى الكميت أن يأخذ منهم شيئاً ، فقال له
عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب : إن أبيت أن تقبل فاني
رأيت أن تقول شيئاً تغضب به الناس لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها
بعض مايجب ، فقال الكميت قصيدته التي يذكر فيها مناقب قومه من مضر بن نزار
ويكثر فيها من تفضيلهم ويطنب في وصفهم وأنهم أفضل من قحطان ، فغضب
بها بين اليمانية والنزارية ، وهي قصيدته التي أولها : —

ألا حُيِّتِ عنا يامدينا وهل ناسٌ تقول مسلمينا
إلى أن انتهى إلى قوله تصريحاً وتعريضاً باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم
فيها ، وهو قوله : —

(١) دحمة أم يزيد بن المهلب . (٢) ديوان الطرماح ص ١٢٩ .

(٣) ج ٣ ص ١٥٩ .

لنا قمر السماء وكل نجم تشير اليه أيدي المهتدين
وجدت الله إذ سمي نزارا وأسكنهم بمكة قاطنين
لنا جعل المكارم خالصات وللناس القفا ولنا الجبين
وما ضربت هجائن من نزار فوالح من فحول الأعجمين
وما حملوا الحمير على عتاق مطهرة فيلقوا مبلغينا
وما وجدت نساء بني نزار حلائل أسودين وأحمرينا

وقد نقض دعبل الخزاعي هذه القصيدة على الكمية وغيرها وذكر مناقب
اليمين وفضائلها من ملوكها وغيرها وصرح وعرض بغيرهم كما فعل الكمية وذلك
في قصيدته التي أولها : —

أفيقي من ملامك يا طعينا كفاك اليوم مرُّ الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالي يشين الذوائب والقرونا
أحي الغر من سرّوات قومي لقد حُيت عنا يامدينا
فان يك آل إسرائيل منكم وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنس الخنازير اللواتي مُسخن مع القرود الخاسئينا
بأيلة والخليج لهم رسوم وآثارُ قدُمنَ وماحينا
وما طلب الكمية طلابٌ وتر ولكننا لنصرتنا هجيننا
لقد علمت نزار أن قومي إلى نصر النبوة فاخرونا

وهي طويلة، ونمى قول الكمية في النزارية واليمانية وافتخرت نزار على
اليمين، وافتخرت اليمين على نزار، وأدلى كل فريق بماله من المناقب، وتحزبت
الناس وثارَت العصبية في البدو والحضر، فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدي
وتعصبه لقومه من نزار على اليمين وانحراف اليمين عنه إلى الدعوة العباسية، وتغلغل
الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أمية إلى بني هاشم، ثم ماتلا ذلك من قصة
معن بن زائدة باليمن وقتله أهلها تعصباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار، وقطعه

الحلف الذى كان بين اليمن وربيعة فى القدم ، وفعل عقبة بن سالم بئمان والبحرين وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة كياداً المعن وتعصبا من عقبة بن سالم لقومه من قحطان ، وغير ذلك مما تقدم وتأخر مما كان بين نزار وقحطان .

* * *

ثم نجد العصبية بين قيس وتغلب ، وقد قويت منذ احتلت قيس جند قنسرين فى الاسلام وجاورت تغلب ، فغضبت هذه لأنها رأت فى قيس منافساً اقتصادياً يحتل بلادها وسياسياً يزاوجها فى توجيه السياسة الأموية ، وكان بين الحمين أيام شنيعة كالثرثار الأول والشرعية والحشاك لتغلب على قيس وما كسين والثرثار الثانى والبشر والكحيل وفدين والحضر لقيس على تغلب ، وغلا كلاهما فى التنكيل بالآخر حتى أصلح بينهما عبد الملك بن مروان .

(١) فلما كانت سنة ثلاث وسبعين وقتل عبد الله بن الزبير هدأت الفتنة وتكافأت قيس وتغلب عن المغازى بالشام والجزيرة وظن كل واحد من الفريقين أن عنده فضلاً لصاحبه ، وتكلم عبد الملك فى ذلك ولم يحكم الصلح ، فبينما هم على تلك الحال إذ أنشد الأخطل عبد الملك بن مروان ، وعنده وجوه قيس ، قوله : —

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر بقتلى أضييت من سليم وعامر
أجحاف إن تهبط عليك فتلتقى عليك بحور طاميات زواجر
تكن مثل أبداء الحباب الذى جرى به البحر ترهاه الرياح الصراصر

فوثب الجحاف يجر مطرفه ، وما يعلم من الغضب ، وهو يقول : —

نعم سوف نبكيهم بكل مهند ونبكى عميرا بالرماح الخواطر
وقام فجمع جموعاً من قيس فأغاروا على تغلب فى مساكنهم فقتلوه ومثلوا
بهم وذلك يوم البشر الذى يقول فيه الأخطل : —

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعول
ثم إن الجحاف هرب بعد فعلته ولحق بالروم وقال فى ذلك : —

فان تطردوني تطردوني وقد مضى من الورد يومٌ في دماء الأرقام
لَدُنْ ذَرَّ قرن الشمس حتى تلبَّست ظلاماً بركض المقرّبات الصلادم
ثم كملت القيسية عبد الملك في الجحاف فأمنه ، فلما قدم لقيه الأخطل فقال
له الجحاف : —

أبا مالك هل مُلِمتَنِي إِذْ حَضَضْتَنِي على القتلِ أم هل لامني لكْ لأُمُّ
أبا مالكِ إِنِّي أَطْعَمْتُكَ فِي التِّي حضضتَ عليها فعلَ حرَّانِ حازمِ
فان تدعُنِي أُخْرَى أُجِبْكَ بِمِثْلِهَا وإِنِّي لَطَبُّ بِالوَعْيِ جِدُّ عَالِمِ
ولما دخل على عبد الملك قال له أنشدني بعض ما قلت في غزوتك هذه
وفجرتك فأنشده : —

نحن الذين إذا علّوا لم يفخروا يومَ اللقاء وإن علّوا لم يضجروا
فقال عبد الملك : صدقت ^(١) .

(٢) على أن قسماً كبيراً من نقائض جرير والأخطل دار حول هذه العصبية
بين قيس وتغلب ، وربما كان الغريب في ذلك أن جريراً ، وهو من تميم ، يكون
لسان قيس عيلان في هذه المعركة الشعرية ، ولا سيما أن الفرزدق ، وهو من تميم
أضماً ، يقف مع الأخطل في صف تغلب ، ولكن المسألة هي أن جريراً مال
مع القيسية منذ اتصاله بالحجاج ، وحرص قيس على إكرامه وضمه إليها ، ثم
ما كان بينه وبين الفرزدق من عصبية كل لعشيرته من تميم ، وما نشأ من مناقضات
كثيرة ، وما كان يوقع بينهما من فتن ، ويؤلب من شعراء ، على يد بشر بن
مروان وغيره . . كل ذلك وغيره حدد موقف شاعري تميم وجعل الفرزدق يحالف
الأخطل على جرير .

من ذلك ما قال الأخطل في قيس من قصيدة يمدح بها عبد الملك
ابن مروان : —

بنى أمية إني ناصح لكم فلا يبيتن فيكم آمناً زفر

وَأَتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِن شَاءَ هَدَى
إِن الضَّعِيفَةَ تَلْقَاهَا وَإِنْ قَدِمْتَ
وَقَدْ نُصِرْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَنَى
يُعرفونك رَأْسَ ابْنِ الْحُبَابِ وَقَدْ
فَلَا هَدَى اللَّهُ قَيْسًا مِنْ ضَلَاتِهِمْ
ضَجُّوا مِنَ الْحَرْبِ إِذْ عَصَتْ غَوَارِبُهُمْ
وَمَا تَغْيِبُ مِنْ أَخْلَاقِهِ دَعَرُ
كَالْعَرِّ يَكُنْ حِينًا ثُمَّ يَنْتَشِرُ
لَمَّا أَتَاكَ بِبَطْنِ الْغَوْطَةِ الْخَبِرُ
أَضْحَى وَالسَّيْفُ فِي خَيْشُومِهِ أَثَرُ
وَلَا لَمَّا لَبَّى ذِكْوَانَ إِذْ عَثَرُوا
وَقَيْسُ عَيْلَانَ مِنْ أَخْلَاقِهَا الضَّجْرُ^(١)

فيرد عليه جرير بقوله من قصيدة يناقضه بها : —

إِنِّي رَأَيْتُكُمْ وَالْحَقُّ مَغْضَبَةٌ
تَخْزُونَ أَنْ يُذَكَّرَ الْجَحَّافُ أَوْ زُفْرُ
قَوْمًا يَرُدُّونَ سَرَحَ الْقَوْمِ عَادِيَةٍ
شُعْتُ النِّوَاصِي إِذَا مَا يُطْرَدُ الْعَكْرُ
قَادُوا إِلَيْكُمْ صُدُورَ الْخَيْلِ مَعْلَمَةٌ
تَخْشَى الطَّعَانَ وَفِي أُعْطَافِهَا زَوْرُ
فَمَا مَنَعْتُمْ غَدَاةَ الْبِشْرِ نَسْوَتَكُمْ
وَلَا صَبَرْتُمْ لَقَيْسٍ مِثْلَ مَا صَبَرُوا
تَهْجُونَ قَيْسًا وَقَدْ جَذُّوا دَوَابْرَكُمْ
حَتَّى أَعَزَّ حَصَاكَ الْأَوْسُ وَالنَّمِرُ
يَا خُزَرَ تَغْلِبَ إِنْ اللَّؤْمُ حَالَفَكُمْ
مَادَامَ فِي (مَارْدِينَ) الزَّيْتُ يُعْتَصَرُ
تَسْرِبُلُوا اللَّؤْمَ خَلْقًا مِنْ جُلُودِهِمْ
ثُمَّ ارْتَدَّوْا بِثِيَابِ اللَّؤْمِ وَاتَزَرُّوْا^(٢)

(٣) وما يذكر هنا ، وإن كان عكس ما نحن بصدد ، أن (القطامي)
من شعراء تغلب يقول خير شعره في مدح زفر بن الحارث السكلابي من قيس
عيلان ، وذلك أن عُمير بن الحباب السلمي حارب بني تغلب وأسر القطامي ،
فأتى زفر بن الحارث السكلابي بقرقيسياء فحلى سبيله ورد عليه مائة ناقة فأخذ
يمدحه مدحاً رائعاً واستحال شعور السخط على قيس عيلان ووجوها شعور
إعجاب وإجلال ثم أسف على هذه الحروب الطاحنة بين حبي زرار ، وأخذ
شعره يردد هذا المعنى حتى عُرف القطامي الشاعر بهذه النزعة أكثر من غيرها
ومن قوله في مدح زفر : —

قَفِيَّ قَبْلَ التَّفَرُّقِ يَا ضُبَاعَا وَلَا يَكُ مَوْقِفٌ مِنْكَ الْوَدَاعَا
قَفِيَّ فَادِي أَسِيرَكَ إِنْ قَوْمِي وَقَوْمَكَ لَا أَرَى لَهُمْ اجْتِمَاعَا
وَكَيْفَ تَجَامُعُ مَعَ مَا اسْتَحْلَا مِنْ الْحُرْمِ الْعِظَامِ وَمَا أَضَاعَا
أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنْ حِبَالَ قَيْسٍ وَتَغْلِبَ قَدْ تَبَايَنْتَ انْقِطَاعَا
إِلَى أَنْ يَقُولَ : —

وَمَنْ يَكُنْ اسْتِلَامَ إِلَى ثَوِيٍّ فَقَدْ أَكْرَمْتَ يَا زُفَرَ الْمُتَاعَا
أَكْفَرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمَائَةِ الرِّتَاعَا^(١)
وهكذا قال في قصيدته : —

مَا اعْتَادَ حُبُّ سَلِيمِي حِينَ مَعْتَادٍ وَمَا تَقَضَّى بَوَاقِي دَيْنِهَا الطَّادِي^(٢)
وهذه النزعة هي في الواقع ، إثبات لما نحن فيه من تفريق العصبية بين قيس
وتغلب حتى اضطرت الدولة أن تتدخل لايقاف ويلاتها .



ننتقل بعدما سبق إلى ما كان بين قيس وتميم ، وهما من مضر ، وأهم القبائل
المضرية وأبعدها أثراً في الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في هذا العصر الذي
نورّخ شعره السياسي . ومع ذلك فقد اختلف موقفهما السياسي من الدولة أولاً ،
ثم صورهما الشعر القبلي حَيِّينَ مُتَنَافِسِينَ ، فأما قيسٌ فكان موقفها واضحاً من
الدولة وحلفائها من كلب وتغلب كما قدمنا ، وأما تميم فقد ظهر فيها الاضطراب
وعدم الوحدة العصبية والسياسية العامة إلا أن تكون الحرية والمنفعة الإقليمية
هي نزعتها الأصيلة ، كان منها ثوار على عثمان ، وحديد تميميو البصرة في وقعة
الجلل ، واشترك تميميو الكوفة في مصرع الحسين في حين أن منهم من كان مع
عليٍّ في صفين ثم وقفت من قيس موقف العداوة ولا سيما في خراسان أو في مصرع
عبد الله بن خازم وقتيبة بن مسلم الباهلي ، ويظهر أن ما حدث بين جرير والفرزدق
من المناقضة قد ساعد على تأريث نار العداوة بين قيس وتميم ، أو إلى تصويرها

قوية ، ولا سيما إذا لاحظنا أن هذه النقائض قامت على نبش الماضي ، وذكر الأيام الجاهلية بينهما ، وقد علمت أن زعيمى هذه النقائض من تميم ، وقف أحدهما فى قومه يشيد بمفاخرهم ويناضل عنهم اليمين وقيساً ، ووقف الثانى مع قيس يشيد بما آثرهم فى وجه صاحبه ، ومن غريب الأمر أن الراعى وهو قيسى ، يقف مع الفرزدق فى وجه جرير ، ولكن تفسير ذلك عند السياسة أيضاً أو عند بشر ابن مروان أخى عبد الملك بن مروان ، فهو الذى اجتذب الراعى إلى ناحية الفرزدق والأخطل ليكونوا جميعاً على قيس وشاعرها المأجور . ولست أطيل هنا بذكر الشواهد ، فهذه نقائض جرير والفرزدق تجد فيها ماتريد ، ولأقتصر هنا على بعض أبيات من هاتين النقيضتين اللتين أنشئتاً فى مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى ، قتله وكيع بن أبى سؤد اليربوعى من تميم ، وإن كان هناك خلاف فى سبب القتل أهو عصبى قبلى انتقم به وكيع لما أصاب قتيبة فى تميم من دماء أم هو سياسى يرجع إلى أن قتيبة أعلن خلع سليمان بن عبد الملك فقتله وكيع بذلك ، وعلى كل حال فقد كانت موقف جرير دقيقاً لأن القاتل من عشيرته الأدينين والمقتول من حلفائه المفضلين ، وشيء آخر هو أن قيساً متهمه بالثورة على الملك وإن كانت تميم متهمه بالغدر كذلك^(١) قال الفرزدق فى قصيدته : —

أَنَا نِي وَرَحِلِي بِالْمَدِينَةِ وَقَعَةً لَّالَ تَمِيمٍ أَقْعَدَتْ كُلَّ قَائِمٍ
كَأَنَّ رِءُوسَ النَّاسِ إِذْ سَمِعُوا بِهَا مُدْمَغَةً مِنْ هَازِمَاتِ أَمَامٍ
فِدَى لِسِيُوفٍ مِنْ تَمِيمٍ وَفَى بِهَا رِدَائِي وَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الْأَهَامِ^(٢)
شَفِينِ حَزَازَاتِ النُّفُوسِ وَلَمْ تَدْعُ عَلَيْنَا مَقَالاً فِي وِفَاءٍ لِلْأَمِّ
جَزَى اللَّهِ قَوْمِي إِذْ أَرَادَ خِفَارَتِي قَتِيْبَةً سَعَى الْأَفْضَلِينَ الْأَكْرَامِ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ تَمِيمًا إِذَا دَعَتْ تَمِيمٍ وَلَمْ تَسْمَعْ يَوْمَ ابْنِ خَازِمِ^(٣)
وَمَا لَقِيتَ قَيْسَ بْنَ عِيْلَانَ وَقَعَةً وَلَا حَرًّا يَوْمَ مِثْلِ يَوْمِ الْأَرَاقِمِ

(١) راجع نقائض جرير والفرزدق ، ج ١ ص ٣٤٩ وما بعدها ، طبع ليدن .

(٢) بنو الأهم الذى قتلهم قتيبة فقتله وكيع بهم .

(٣) عبد الله بن خازم السلمى قتله وكيع القريعى .

عشية لاقى ابن الحباب حسابه بسنجار أنضاء السيوف الصوارم
 نبحت لقيس نبحة لم تدع لها أنوفاً ومرت طيرها بالأشأم
 فان تك قيس في قتيبة أغضبت فلا عطست إلا بأجدع راغم
 فان تقعدوا تقعد لئام أذلة وإن عدتم عدنا ببيض صوارم
 هذه أبيات تصور جانباً يسيراً جداً من موقف تميم في هذا الحادث كما رآه
 الفرزدق ، وهو موقف تميمي خالص فيه فخر بتميم كلها وهجاء لقيس عيلان ،
 أما جرير فقد انتزع الفخر ليربوع رهطه وأقصى عنه الفرزدق ، لأن القتاتل
 ربوعى لدارمى ، ثم اعتذر لباهلة رهط القتيل ، وعاد يذكّر مفخرة قيس ويهجو
 الفرزدق والأخطل : —

فغيرك أدى للخليفة عهدَه وغيرك جلى عن وجوه الأهاتم
 فان وكيعاً حين خارت مجاشع كفى شعب صدع الفتنة المتفاقم
 لقد كنت فيها يا فرزدق تابعا وریش الذنابي تابع للقوادم
 ندافع عنكم كل يوم عظيمة وأنت قراحي بسيف الكواظم^(١)
 أباهل ما أحببت قتل ابن مسلم ولا أن تروعا قومكم بالمظالم
 أباهل قد أوفيتكم من دمائكم إذا ما قتلتم رهط قيس بن عاصم^(٢)
 تحضض يابن القين قيساً ليجعلوا لقومك يوماً مثل يوم الأراقم
 إذا ركبت قيس خيولاً مغيرة على القين يقرع سن خزيان نادِم
 وقبلك ما أخزى الأخيطل قومه وأسلمهم للمارق المتلاحم
 رويدكم مسح الصليب إذا دنا هلال الجزى واستعجلوا بالدرهم

فاذا تقدمت ظفرت بمظاهر العصبية في داخل هذه القبائل والعشائر ، حتى
 عادت الحياة الاسلامية خاضعة لهذه العلة الجاهلية التي أفسدت عليها سياستها ،

(١) قراحي : قروى لابدوى .

(٢) هم الأهاتم من منقر رهط قيس بن عاصم المنقرى من تميم .

وأدت تقاليدھا الاجتماعية ، وذهبت بدولتها آخر الأمر ونكتفى هنا بهذه الإشارات إلى العصبیات القبلية العامة إذ كانت أشد اتصالاً بالسياسة وشعرھا لننظر فی جانب آخر لهذا الحزب الأموى .

ذلك هو جانب السياسة الإقليمیة ، أو سياسة الأمراء ، والولاء ، والقواد الذين كان يعینهم الملك أو الخليفة الأموى ليجعلوا الأقالیم الإسلامية باسمهم أو يقودوا الجيوش الفاتحة فی الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وهؤلاء جميعاً كانوا خاضعين فی مناهجهم لوحى دمشق على العموم ما دام الخلفاء مصدر السلطات ، وما دام الولاية نواباً عن الخلفاء يتلقون عنهم الأوامر ، ويتسلمون عهد الإمارة ، ومع ذلك فقد كان لبعض هؤلاء الولاية شخصیات متميزة فی سياسة الأقالیم قد تتجاوز الحد فیضطر الخليفة إلى كبجھا كما فعل عبد الملك مع الحجاج حين أسرف فی العقوبات ، وقد يثور بعض الولاية أو القواد على الخليفة أو والى لأسباب سياسية ، أو قبلية ، أو خاصة كما ثار ابن الأشعث ، ويزید بن المهلب ، وقتيبة ابن مسلم فكان لابد من ردهم إلى الاستسلام أو الهلاك .

وقد سجل الشعر هذه السياسة الإقليمیة بطرق شتى ، فكان تأييداً لسلوك هؤلاء الولاية ، كما كان ثورة علیهم ، أو تملقاً واستغلالاً بتأثير الرغبة أو الرهبة ، وكان تأييد الشعراء للوالى لاتفاق سياسة الوالى وحكم الدين ، أو مصالح قبيلته ، أو منفعتة الخاصة ، وكانت ثورته علیه فی سبيل الدين ، أو القبيلة ، أو الاقليم ، أو النفع الذاتى ، وبعد ذلك تجد طوائف الشعراء المرتزقة من العرب والموالى همهم المال والحياة فيفدون على الولاية هادحين لهم أو هاجين خصومهم ريثما يظفرون بالعطاء ثم يؤلون .

وقد لاحظنا أن بعض الولاية أو القواد كان يلزمه شاعر أو أكثر ، يعيش على عطائه أو يوليه عملاً فيصير مختصاً به كما كان كل من ثابت قطنة وكعب الأشقرى ملازماً ليزید بن المهلب وكما لاحظنا أن بعض الأسر كبنى المهلب كانوا

مقصد الشعراء لنباقتهم وسخائهم كما كان البرامكة في الدولة العباسية .

وهنا أمر ملحوظ أيضاً هو أن بعض الشعراء كانوا ولاية على بعض الأقاليم أو الكور ، منهم أبو كلدة ، وأبو دهبيل ، وعبد الله بن الحشرج ، والنعمان بن بشير ، وأعشى همدان ، ويزيد بن الحكم^(١) ولعل كثرتهم كانوا يولون من قبل ولاية أكبر منهم كالحجاج وسواه ، ولعل هذه الولاية كانت كسباً لقبيلة ، أو نزعة عصبية ، أو ثمناً لقصيدة ، وبذلك كان الشعر الإقليمي صورة لهذا الجانب من السياسة الداخلية للدولة الإسلامية .

وهناك ملاحظة أخرى هي أن ناحية السياسة الإقليمية كانت أبعد مدى وأشد نشاطاً في الناحية الشرقية لهذه الدولة ، أى في العراق وخراسان ، وربما عاد ذلك إلى أن العراق كانت مقر المعارضة السياسية ، ومصدر الثورات الحزبية ، والفرق الدينية ، ومجتمع القبائل المتنافسة وبخاصة اليمن ورمية وربيعة وفروعها ، وكانت خراسان مجمع الجيوش الفاتحة التي تتألف من عصبية شتى ، وموطن أجناس مختلفة التقاليد والنزعات . وهذه الناحية الشرقية كانت على العموم المجال المفتوح للنشاط الحربي الإسلامي لزوال الفرس الذين كانوا أكبر دولة يهابها العرب ، فكانت مجالا لتقابل النزعات الإسلامية التي أسفر عنها هذا التكوين الجديد لهذه الدولة الناهضة . أما في الشمال والغرب حيث السلطان الرومي ، فلم نجد ذلك النشاط أثناء الفتوح لأن سلطان الروم باق يسد الطريق الشمالى ويجعل العلاقات الحربية بين المسلمين والروم علاقات كَرٍّ وفَرٍّ ، وفي إفريقية لم تكثر الجيوش كثرتها في الشرق أو لم تظهر فيها هذه النزعات المذهبية والقبيلية ، ظهورها في العراق وخراسان ، على أنها كانت — ولا سيما في المغرب والأندلس — متأخرة الزمن فلم تطبع تاريخ أمية بمثل ما طبعت به حركات الفتوح والولايات الشرقية .



(١) راجع سير هؤلاء في كتب الطبقات لترى تفاصيل ما أجمعنا هنا .

لذلك يحسن أن نلم ببعض المواقف التي كانت معرضاً لهذا الشعر السياسي في الأقاليم الإسلامية وسنعرضها من حيث صلتها بالولاة أنفسهم إذ كانوا هم مظهر هذه السياسة وما أنشد في سبيلها من شعر ، وخططنا هنا أن نقف عند أشهرهم ملتزمين جانب الإيجاز الشديد تاركين التفصيل للمراجع التاريخية والأدبية التي نشير إليها أسفل هذه الصفحات ، ونبدأ بولاة العراق .

البصرة والكوفة مصر العراق المشهوران ، وإن كان أكثر سكان الكوفة من اليمن ، وأكثر سكان البصرة من مضر مع قلة من ربيعة ، فاشتركت الكوفة في الأحداث السياسية العامة فناصرت علياً أولاً ، ثم خذلت بنيهِ ثانياً ، وشهدت حركات الختار الثقفي ، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ويزيد بن المهلب ، أما البصرة فقد شغلت بالعصبيات القبلية الداخلية ، لذلك كثرت فيها الاضطرابات واختل النظام ، واحتاجت إلى ولاة ، كزياد وابنه والحجاج ، ممن عرفوا بالحزم والصرامة لاختضاع سكانها للنظام ، وكان الوالى يكون على البصرة وقد تضم إليه الكوفة وتُسميان العراقيين أحياناً « وأول من جمع له المصران : الكوفة والبصرة زياد ، ثم ابنه عبيد الله ، ومصعب بن الزبير ، ويزيد بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، ويزيد بن المهلب ، ومسلمة بن عبد الملك ، وعمر بن هبيرة الفزاري ، وخالد بن عبد الله القسري ، ويوسف بن عمر الثقفي ، وعبد الله بن عمر ابن عبد العزيز ويزيد بن عمر بن هبيرة ، ولم يجمع العراقيان لأحد بعد هؤلاء » (١) . وقد تولى البصرة من عهد عمر بن الخطاب إلى آخر الدولة الأموية سبعة وثلاثون والياً .



نذكر هنا زياد بن أبيه ، وقد كان والياً لعلی بن أبي طالب على بلاد فارس فلما قتل على ، حملت السياسة معاوية على استلحاق زياد وإخاذه بأبيه فصار يدعى زياد بن أبي سفيان — وقد مضى شعر في ذلك — وذلك ليستعين بكفائته في شئون الدولة ، وولاه البصرة سنة خمس وأربعين هجرية ، ثم ضم إليه الكوفة

سنة إحدى وخمسين بعد موت المغيرة بن شعبه ، وكان زياد سنداً قوياً لمعاوية في العراق ، شديداً على الثوار ، حازماً حصيماً ، هو حدة وسط بين عمر بن الخطاب في عدالته وحرمة وبين الحجاج في جبروته وطغيانه ، استطاع أن يقر النظام في البصرة ، ويستعين بعدة من أصحاب النبي عليه السلام في القضاء والادارة^(١) وضبط المصر وأحكم الأمور وكان يقول : لو ضاع جبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه ، وكتب خمسمائة من مشيخة أهل البصرة في صحابته فرزقهم ، فقال فيه حارثة بن بدر الغداني : —

ألا مَنْ مُبْلَغَ عَنِّي زِياداً فنعمَ أخو الخليفةِ والأميرِ
فأنتَ إمامَ معدلةٍ وقصدِ وحزمٍ حينَ يحضُرُكَ الأمورُ
أخوكَ خليفةُ اللهِ بنُ حربٍ وأنتَ وزيرُهُ ، نعمَ الوزيرِ
وتقسِمُ بالسَّواءِ فلا غِنِيَّ لضمٍ يشتكيكَ ولا فقيرِ
وكنْتَ حياً وجئتَ على زمانٍ خبيثٍ ظاهرٍ فيه شرورِ
تقاسمتِ الرجالُ به هواها فما تخفى ضغائنُها الصدورِ
فلما قامَ سيفُ اللهِ فيهم زيادٌ قامَ أبلجٌ مُستنيرِ^(٢)

هذه الأبيات تدل على فساد كان بالبصرة أصلحه زياد ، وقسم الأرزاق منصفاً ، كما تُقر نسب زياد ومنصبه في مُلك معاوية إذ صار أخاه ووزيره معاً . ولما هجا الفرزدق بني فُقيم ، وبني نهشل ، شكوه إلى زياد فطلبه — وكان الفرزدق قد لاحى معاوية في جائزة الحُتات الجاشعي^(٣) — فهرب وأخذ يتنقل بين الأحياء وزياد يطارد ، فلما عرف زياد عناء الشاعر كأنه رق له وقال : لو أتاني لآمنتُه وأعطيته فبلغ ذلك الفرزدق فقال من قصيدة : —

دعاني زيادٌ للعطاء ولم أكنُ لآتيه ماساقَ ذو حسبٍ وفرا
وعندَ زيادٍ لو يُريدُ عطاءهم رجالٌ كثيرٌ قد يرى بهم فقرا

(١) الطبري ج ٢ ق ١ ص ٧٩ . (٢) نفس المرجع ص ٧٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٦ .

فَعُودٌ لَدَى الْأَبْوَابِ طُلَابٌ حَاجَةٌ
فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ
نَمِيتُ إِلَى حَرْفٍ أَضَرَّ بِذِيهَا
يَوْمٌ بِهَا الْمَوْمَاتُ مَنْ لَا يَرَى لَهُ
عَوَانٌ مِنَ الْحَاجَاتِ أَوْ حَاجَةٌ بِكَرَا
أَدَاهُمْ سُودًا أَوْ مُحَدَّرَجَةً سُمْرًا
سُرَى اللَّيْلِ وَاسْتَعْرَاضَهَا الْبَلَدُ الْقَفْرَا
إِلَى ابْنِ أَبِي سَفْيَانَ جَاهًا وَلَا عُدْرَا
ثُمَّ وَرَدَ الْمَدِينَةَ عَلَى سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ وَاسْتَجَارَهُ فَأَجَارَهُ وَأَنْشَدَهُ الْفَرَزْدَقُ
مَدِيحَهُ الَّذِي أَوَّلَهُ : —

وَكُومٍ تُنْعَمُ الْأَضْيَافَ عَيْنَا وَتُصْبِحُ فِي مَبَارِكِهَا ثِقَالَا
وَبَقِيَ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ حَتَّى هَلَكَ زِيَادٌ ، وَمِمَّا قَالَ فِي ذَلِكَ : —
أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي زِيَادَا مَغْلَغَلَةً يَنْجُبُ بِهَا الْبَرِيدَ
بَآتَى قَدْ فَرَرْتُ إِلَى سَعِيدٍ وَلَا يُسْطَاعُ مَا يَحْمِي سَعِيدَ
فَرَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ لَيْثٍ هَزَبَرٍ تَعَادَى عَنْ فَرِيَسْتِهِ الْأَسْوَدَ
وَقَالَ أَيْضًا : —

أَتَانِي وَعَيْدٌ مِنْ زِيَادٍ فَلَمْ أَنْمُ وَسِيلُ الْيَوَى دُونِي فَهَضَبُ التَّهَامِ
غَبْتُ كَأَنِّي مَشْعَرُ خَيْبَرِيَّةٍ سَرَّتْ فِي عِظَامِي أَوْ سَمَامِ الْأَرَاقِمِ
زِيَادُ بْنُ حَرْبٍ لَنْ أَظْنُكَ تَارِكِي وَذَا الضَّغْنِ قَدْ جَشِمْتَهُ غَيْرَ ظَالِمِ
وَقَدْ كَافَحْتُ مَنَى الْعِرَاقِ قَصِيدَةً رَجُومَ مَعَ الْمَاضِي رُءُوسَ الْخَارِمِ
خَفِيفَةُ أَفْوَاهِ الرِّوَاةِ ثَقِيلَةُ عَلَى قَرْنِهَا نَزَالَةٌ بِالْمَوَاسِمِ (١)

ولعل زياد بن أبي سفيان كان ينظر في هذه المسألة إلى موقف عمر بن الخطاب من الخطيئة وعثمان بن عفان مع ضابئي البرجعي كما أسبقنا . وزياد هو الذي نفى عن الكوفة عبد الله بن خليفة الطائي إلى جبل أبي أجا وسلمى لأنه شهد مع حُجْر ابن عدي الذي ثار على معاوية ، فكتب ابن خليفة إلى عدي بن حاتم قصيدة يرثي حُجْرًا ، ويشكو نفيه ، ويلوم قومه الذين أساموه ، ويذكر بلاءه وذله بعد

عز، وقد بقي منفياً حتى مات بالجليلين قبل موت زياد^(١) ومن قصيدته قوله : —
 فهأنذا دارى بأجبال طيء طريداً ولو شاء الإله لغيراً
 نفانى عدوى ظالماً عن مهاجرى رضيتُ بما شاء الإله وقدراً
 وأسلمنى قومي لغير جناية كأن لم يكونوا لى قبيلة ومعشراً
 أتسى بلأى سادراً يابن حاتم عشية ما أغنت عديك جذمراً
 فدافعتُ عنك القوم حتى تخاذلوا وكنتُ أنا الخصم الألد العذوراً
 فأصبحتُ أرعى النيبَ طوراً وتارة أهرهرُ إن راعى الشؤيهة هرهراً
 فلا يبعذن قومي وإن كنت غائباً وكنت المضاع فيهم والمكفراً
 ولا خير فى الدنيا ولا العيش بعدهم وإن كنتُ عنهم نائى الدار محصراً

وهى قصيدة طويلة جيدة تصور موقف الطائيين من زياد وموقفه منهم .

وكان زياد قد أرعى مسكيننا الدارمى حمى له بناحية العذيب فى عام قحط
 حتى أخصب الناس وأحيوا ، ثم كتب له يبر وتمر وكساه ، فلما مات زياد رثاه
 مسكين فقال : —

رأيت زيادة الاسلام ولّت جهاراً حين ودّعنا زياد
 فعارضه الفرزدق فقال : —

أمسكينُ أبكى الله عينك إنما جرى فى ضلالٍ دمعها فتحدّراً
 بكيت على علجٍ بميسانٍ كافرٍ ككسرى على عدّانه أو كقيصر
 فرد عليه مسكين مفتخراً بأبائه وأعمامه ثم تكافأ^(٢) .

* * *

وفى سنة خمس وخمسين ولى المصريين عميد الله بن زياد ، فكان كأبيه ،
 عنيفاً صارماً جرت على يديه أحداث قاسية لعله كان بها أمويّاً أكثر من
 الأمويين ، أو كان فى بعض المواقف ، صدّى مضاعفاً لطبيعة يزيد بن معاوية ،

فقد تم في ولايته الكوفة قتلُ الحسين بن علي بكر بلاء ، وقد قيل إن يزيد بن معاوية أسف لهذا المصراع وكان يرضى بما دون ذلك . أما الشعر فقد رأينا فيه صورتين متقابلتين أمام هذا الحادث ، إحداهما تؤيد مسلك الدولة ، وتظهر الإذعان للخليفة وواليه ، على أن هذه إرادة خالصة لدمشق والكوفة ، تجدد هذه الصورة عند كعب بن جابر وهو يخاطب امرأته بعد عودته من الواقعة وقد لامته على سلوكه : —

سَلِي تُخْبِرِي عَنِّي وَأَنْتِ ذَمِيمَةٌ غَدَاةَ حُسَيْنٍ وَالرَّمَاخُ شَوَارِعُ
أَلَمْ آتِ أَقْصَى مَا كَرِهْتَ وَلَمْ يُخْلِ عَلَى غَدَاةِ الرُّوعِ مَا أَنَا صَانِعُ
مَعِيَ يَزْنِي لَمْ تَحْنُ كُحُوبُهُ وَأَيُّضُ مَخْشُوبِ الْغِرَارِينَ قَاطِعُ
فَجَرَّدَتْهُ فِي عَصْبَةِ لَيْسَ دِينِهِمْ بَدِينِي وَإِنِّي بِابْنِ حَرْبٍ لِقَانِعُ
فَأَبْلَغُ عُيُودِ اللَّهِ إِمَّا لَقِيْتَهُ بَأْنِي مَطِيْعٍ لِلْخَلِيفَةِ سَامِعُ^(١)

والصورة الثانية آسفة على ما حدث ، نادمة أن لم تنصره ، خارجة على السياسة الظالمة ، مهددة بالانتقام ، تجدها عند عبيد الله بن الحر حين ترك الكوفة مغاضباً لابن زياد حتى أتى كربلاء فنظر إلى مصارع القوم فاستغفر لهم هو وأصحابه ثم نزل المدائن وقال في ذلك : —

يَقُولُ أَمِيرٌ غَادِرٌ حَقٌّ غَادِرٌ أَلَا كُنْتَ قَاتِلْتَ الشَّهِيدَ ابْنَ فَاطِمَةَ
فِيَا نَدَمِي أَلَا أَكُونُ نَصْرَتُهُ أَلَا كُلُّ نَفْسٍ لَا تُسَدِّدُ نَادِمَةً
وَقَفْتُ عَلَى أَجْدَادِهِمْ وَمَجَالِهِمْ فَكَادَ الْحَشَى يَنْفُضُ وَالْعَيْنُ سَاجِمَةً
أَتَقْتُلُهُمْ ظُلْمًا وَتَرْجُو وَدَادَنَا فَدَعِ خُطَّةَ لَيْسَتْ لَنَا بِمَلَأَمَةٍ
لَعَمْرِي لَقَدْ رَاغَمْتُمُونَا بِقَتْلِهِمْ فَكَمْ نَاقِمٍ مِنَّا عَلَيْكُمْ وَنَاقِمَةٍ
أَهْمُ مَرَارًا أَنْ أُسِيرَ بِمَجْهَلٍ إِلَى فِئَةٍ زَاغَتْ عَنِ الْحَقِّ ظَالِمَةٍ
فَكُفُّوا وَإِلَّا زَرْتَكُمْ فِي كِتَابٍ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ مِنْ زُحُوفِ الدِّيَالِمَةِ^(٢)

كذلك حدث قبل قتل الحسين أن حضر مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى الكوفة مقدمة للحسين نفسه فتفرقت عنه الشيعة خوفاً من ابن زياد فاستجار بهانيء بن عروة المرادي ، ولكن ابن زياد قتلها جميعاً وفي ذلك يقول الفرزدق أو ابن الزبير الأسدي : —

فان كنت لاتدرين ما الموتُ فانظري إلى هانيء في السوق وابن عقيل
إلى بطلٍ قد هشم السيفُ وجهه وآخر يهوى من طمار قتيل^(١)
فلما قتل ابن زياد سنة سبع وستين ، قتله ابراهيم بن الأشتر قال سُرّاقة بن مرداس البارقي يمدح قاتليه : —

أتاكم غلام من عرائين مذحج جري على الأعداء غير نكول
فيا بن زياد بُؤ بأعظم مالك وذق حدّ ماضى الشفرتين صقيل
ضربناك بالعصب الحسام بحده إذا ما أبانا قاتلا بقتيل
جزى الله خيراً شرطة الله إنهم شفوا من عبيد الله أمسى غليل^(٢)
* * *

وفي سنة خمس وسبعين استعمل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق ؛ فسار إلى الكوفة وخطب فيها خطبته المشهورة التي وشّحها بالشعر ، فكانت صورة أدبية لسياسته ، اختار هو شعرها السياسي ، فأثر تقديمه على غيره : —

هذا أوانُ الشدِّ فاشتدّي زيمٌ قد لفها الليلُ بسواق حُطَمٍ
ليس براعى إبلٍ ولا غنمٍ ولا بجزارٍ على ظهر وضمٍ
* * *

قد لفها الليلُ بعصلبِيٍّ أروعَ خراجٍ من الدوى
مهاجرٍ ليس بأعرابيٍّ
* * *

قد شمرت عن ساقها فشذوا وجدّت الحربُ بكم فجدّوا
والقوسُ فيها وترعُردُ مثلُ ذراعِ البكر أو أشدُّ
لا بدَّ مما ليس منه بُدُّ (١)

ودفع الناس إلى المهلب لقتال الخوارج ، وقتل من يتخلف ، وقدم إليه عمير
ابن ضابئ البرجمي معتذراً بكبر سنه ، فعرف الحجاج أن أباه ضابطاً كان من
غزاة عثمان وهو القاتل . —

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وَكَدْتُ وليَمَنِي تَرَكْتُ على عثمانَ تبكي حلائله
فقتل عميراً ففرغ الناس الناس وشمروا إلى اللحاق بالمهلب ، فلقى إبراهيم
ابن عامر أحد بني غاضرة من بني أسد عبد الله بن الزبير في السوق . فسأله عن
الخبر فقال ابن الزبير : —

أقولُ لإبراهيمَ لما لقيتهُ أرى الأمرَ أمسى مُنصباً متشعباً
تخيّرُ فإما أن تزورَ ابنَ ضابئٍ عُميراً وإما أن تزورَ المهلباً
ها خُطتنا كره نجاؤك منهما ركوبك حولياً من الشلح أشهباً
فأضحى ولو كانت خراسانُ دونه رآها مكان السوق أو هي أقربُ (٢)

وقد كثر الشعراء في ساحة الحجاج رغبة ورهبة ، ثم ثورةً وازوراً عنه
أو انضماماً إلى خصومه ، وكان ذلك خاضعاً لسلوك الحجاج ، وعصبياته ، فرأينا
جريراً صنيعةً للحجاج يمدحه ثم يصله الحجاج بالخليفة ، والفرزدق يتصل بالحجاج
حذراً خائفاً ، يمدحه في حياته ، ويهجوّه بعد مماته ، ونجد شعراء من فزارة
وغيرها تضطرب صلاتهم بالحجاج ، ثم نجدهم في ثورة ابن الأشعث على الحجاج
والخليفة كأعشى همدان وأبي كلدة والطفيل بن عامر والبلتع السعدي وغيرهم (٣) .
أما جرير فيعرض للحجاج صورة حازمة ، قوية ، رهيبة ، كأنه رجل

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٣١ والطبري ج ٢ ق ٢ ص ٨٦٤ .

(٢) الطبري ج ٢ ق ٢ ص ٨٧١ .

(٣) نفس المرجع ص ١٠٦٥ — ١٠٦٧ .

الدولة وواحدتها حتى أن عبد الملك يحسد واليه هذا على شاعره جرير ، فيرسله
الحجاج إلى عبد الملك يمدحه فيحجبه الخليفة أياماً ثم يأذن له بعد لأى ويطرب
لشعره . . .

وسنرى أن جريراً منذ رَعاهُ الحجاج حرصت عليه القيسية فصار شاعرها
الأثير المقدم ، ويكفى أن نشير إلى صورة الحجاج عند جرير بهذه الأبيات : —

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْهِمْ أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحِجَاكِ
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيظَةً إِذْ لَا يَثْقَنُ بَغَايَةَ الْأَزْوَاجِ
إِنْ ابْنَ يَوْسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا مَاضِيَ الْبَصِيرَةِ وَاضِحُ الْمِنْهَاجِ
مَاضٍ عَلَى الْغُمَرَاتِ يُمَضَى هَمُّهُ وَاللَّيْلُ مُخْتَلِفُ الطَّرَائِقِ دَاجِ
مَنْعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمْ سَبِيلَ الْهَدْيِ وَاللَّصُّ نَكَلُهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ
إِنْ الْعَدُوَّ إِذَا رَمَوْكُمْ رَمِيَّتَهُمْ بَذُرَى عِمَايَةٍ أَوْ بِهِضَبِ سَوَاجِ
وَإِذَا رَأَيْتَ مُنَافِقِينَ تَخَيَّرُوا سُبُلَ الضَّحَاكِ أَقْمَتَ كُلَّ ضَحَاكِ^(١)

ولعل الفرزدق كان ينقم على الحجاج قيسيته وجبروته فصانعه خوفاً منه
ومدحه في حياته حتى إذا مات الحجاج أمن الشاعر بطشه وأظهر عصبيته التيممية
ضد الحجاج في مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى لما قتله وكيع بن أبى سود اليربوعى
من تميم فقال الفرزدق من قصيدة ألم فيها بهذا الحادث ، ومدح سليمان بن عبد الملك ،
وذكر الحجاج : —

عَجِبْتُ إِلَى الْجَحَادِ أَيْ إِمَارَةٍ أَرَادَ لِأَنْ يَزْدَادَهَا أَوْ دِرَاهِمَ
وَكَانَ عَلَى مَا بَيْنَ عَمَّانَ وَاقِفًا إِلَى الصِّينِ قَدْ أَلْقَا لَهُ بِالْخِزَامِ
فَلَمَّا عَتَا الْجَحَادُ حِينَ طَغَى بِهِ غِنَى قَالَ إِنِّي مَرْتَقٍ فِي السَّلَامِ
فَكَانَ كَمَا قَالَ ابْنُ نُوحٍ سَأَرْتَقِي إِلَى جَبَلٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَاءِ عَاصِمِ
رَمَى اللَّهُ فِي جُثْمَانِهِ مِثْلَ مَارْمَى عَنِ الْقِبْلَةِ الْبَيْضَاءِ ذَاتِ الْحَارِمِ

جنوداً تسوق الفيلَ حتى أعادها هباءً وكانوا مُطَرَّخِمِي الطراخم
وما نُصرَ الحجاج إلا بغيره على كُلِّ يوم مُسْتَحِرٍّ الملاحم^(١)

ويشبب النميرى الثقفى بزینب أخت الحجاج فيقول من قصيدة : —
تضوَّع مسكا بطن نعمان أن مشت به زينب فى نسوة عَطراتِ
ولما رأت ركبَ النميرى أعرضت وكنَّ من ان يلقينه حذرات
فبلغت القصيدة عبد الملك فكتب إلى الحجاج قد بلغنى قول الخبيث فى
زينب فإله عنه ، وأعرض عن ذكره ، فإنك إن أدنيتَه أو عاتبته أطمعته وإن
عاقبته صدقته^(٢) وولى الحجاج يزيد بن الحكم كورة فارس ودفع إليه عهده بها
فلما دخل إليه ليودعه قال له الحجاج أنشدنى بعض شعرك ، وإنما أراد أن ينشده
مديحاً له فأنشده قصيدة يفخر فيها ويقول : —

وأبى الذى سلب ابن كسرى راية بيضاء تخفق كالعقاب الطائر
فغضب الحجاج واسترجع منه العهد ، ثم سأله أيهما خير لك ، ما أورتك
أبوك أم هذا فقال يزيد : —

ورثتُ جدى مجده وفعاله وورثتُ جدك أعزاً بالطائف^(٣)
ولما خرج ابن الأشعث على الحجاج وعبد الملك^(٤) خرج معه أعشى همدان
وجعل يقول الشعر فى ابن الأشعث يمدحه كقولهِ : —

كم من أب لك كان يعقد تاجه بجبين أبلجٍ مِقُول صِنْدِيدِ
ما قصرت بك أن تنال مدى العلا أخلاقُ مكرمة وإرثُ جُدودِ
قرمٌ إذا سامى القُرومَ ترى له أعراقُ مجدٍ طارفٍ وتليدِ
وإذا دعا لعظيمة حشدت له همدانُ تحت لوائه المعقودِ

(١) ديوان الفرزدق ص ٨٥٣ طبعة الصاوى .

(٢) الأغانى ج ٦ ص ١٩٠ .

(٣) الأغانى ج ١١ ص ١٠٠ بلاق .

(٤) راجع الطبرى ج ٢ ق ٢ ص ١٠٦٣ طبع أوربة .

فلما هزم ابن الأشعث الكندي أتى الحجاجُ بالأعشى أسيراً وقال له : الحمد لله الذى أمكن منك ، ألت القائل : —

يا بن الأشج قريع كذمة لا أبلى فيك عتبا
أنت الرئيس ابن الرئد س وأنت أعلى الناس كعبا
نُبئتُ حجاج بن يوسف خرم من زلق فتباً
فانهض فديت لعله يجلو بك الرحمن كرباً

كلا يا عدو الله ، بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الذى خرم من زلق فتب ، وغضب الحجاج فقال له الأعشى : بل أنا القائل أيها الأمير : —

أبى الله إلا أن يتمَّ نوره ويطفىء نار الفاسقين فتخدما
وينزل ذلاً بالعراق وأهله كما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما لبث الحجاج أن سلَّ سيفه علينا فولى جمعنا وتبددا

إلى آخر القصيدة يمدح الحجاج وعيد الملك ، ويهجو التأثيرين ، ويستعطف الخليفة ولكن ذلك لم ينفعه فقتله الحجاج ^(١) .

وهكذا تجد الشعر يصور الحجاج وسلوكه السياسى تصويراً فيه رهبته وجبروته وفيه مداراته والنقمة عليه ، وفيه أيضاً تحاذله أمام عبد الملك وخوفه فقمته وكأنه كان يذل لعبد الملك ليذل الرعية ويعسف بها ، وقد ذكرنا قبلاً أنه أسرف فى قتل أسارى دير الجماجم فكتب إليه عبد الملك يعنفه فرد عليه الحجاج بقوله : —

إذا أنا لم أتبع رضاك وأتقى
وما لأمري بعد الخليفة جنة
أسالم من سالم من ذى قرابة
إذا قارف الحجاج منك خطيئة
أذاك فيومى لا تزول كواكبه
تقيه من الأمر الذى هو كاسبه
ومن لم تسالمه فإنى محاربه
فقامت عليه فى الصباح نوادبه

(١) المرجع السابق ص ١١١٣ والأغانى ج ٦ ص ٣٣ ومروج الذهب ج ٣ ص ٩٣ .

إذا أنا لم أدن الشفيق لنُصحِه وأقصى الذي تسرى إلى عقاربِه
فمن ذا الذي يرجو نوالى ويتقى مُصاولتى والدهرُ جم نوائبه
فقِفْ بى على حدِّ الرضا لا أجوزه مدى الدهر حتى يرجع الدّر حاله
وإلا فدعني والأمورَ فإني شفيق رفيق أحكمتنى تجاربُه^(١)

* * *

إذا تركنا الولاة ، وهم كثير ولكل سياسة خاصة متأثرة بالعصبيات ، قابلنا القواد شرقاً وغرباً ، ونكتفى بذكر بعضهم تاركين الاستقصاء إلى بحث خاص^(٢) وأول ما يلقانا من أولئك آل المهلب بن أبي صفرة ، وهم أسرة من الأزد اليمنية كانت فى الدولة الأموية كالبرامكة فى دولة بنى العباس ، ظفرت بمكانة اجتماعية ممتازة لكرمها وشجاعتها ولا سيما فى حروب الخوارج الأزارقة ، وليت حروب الخوارج أولاً لعبد الله بن الزبير ، ثم لعبد الملك بن مروان بإشراف الحجاج الثقفى ، وأول من عرف منهم المهلب بن أبي صفرة وهو الذى أشار إليه الأحنف بن قيس على البصريين ليولوه صدّ الخوارج ، وكان للمهلب أبناء ثمانية كلهم أمجاد : المغيرة ويزيد ومدرّك وحبيب وقبيصة والمفضل وعبد الملك ومحمد ، وآخر ما تولى المهلب من الأعمال بلاد خراسان وتوفى سنة ثلاث وثمانين ، وأشهر بنيه يزيد والمغيرة ومخلد وحبيب^(٣) . ساعده هؤلاء الأمويين شرقاً بكسر الخوارج ، وإقرار النظام ، وضبط خراسان فعاشوا هناك ناهين حسدهم كثير ، ولكن الشعراء قصدوهم وأفادوا منهم وسجلوا لهم فى الشعر صورة مجيدة ممتازة حتى صاروا أشبه بحزب سياسى ولا سيما إذا ذكرنا ثورة يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك^(٤) ويمكن الإشارة إلى ما اتصل بهم من الشعراء بأن كثرتهم كانوا فرساناً شجعاناً

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٧٦ .

(٢) يمكن للباحث أن يتابع هذا البحث معتمداً على تاريخ الطبرى ، وابن الأثير ، ومروج

الذهب ، والأغانى ، ودواوين الشعراء .

(٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٤) مروج الذهب ج ٣ ص ١٣٤ .

صحبوا آل المهلب في حروبهم فأعجبوا ببلائهم ونعموا بسخائهم ، وكانت كثرة من الشعراء من الأزدي اليمنية فتأثرت قطنة وكعب الأشعري أزدبان ويهس الجرمي قضاعي من اليمن ، وزيد الأعجم مولى عبد القيس وحاجب بن ذبيان المازني والمغيرة بن حبناء من ربيعة ويزيد بن الحكم من ثقيف ، وحمزة بن بيض الحنفي من بني حنيفة والعديل العجلي من بكر بن وائل ^(١) على أن هؤلاء الشعراء لم يقتصرُوا على مدح آل المهلب بل مدحوا الأمويين والحجاج ومالك بن مسمع ، ومنهم خطباء ممتازون ، ومنهم من غدر بآل المهلب مثل كعب الأشعري الذي مدح قتيبة بن مسلم وهجا يزيد بن المهلب بعد عزله ، فلما عاد يزيد إلى ولايته هرب كعب إلى عمان ثم اعتذر إلى يزيد وعاد إليه ، أولئك غير هجاء جرير إياهم واضطراب الفرزدق معهم على ما يمر بك في الفصل التالي .

ومن أهم النصوص الأدبية المتصلة بهذه الأسرة ما وصف به كعب الأشعري بني المهلب حين سأله عنهم الحجاج ثم هذه القصيدة الرائعة التي قدم بها على الحجاج من قبل المهلب يخبره عن وقعة كانت له مع الأزارقة : —
يا حفص إني عداني عنكم السفرُ وقد سهرتُ فأذى عيني السفرُ
علقت يا كعبُ بعد الشيب غانية والشيب فيه عن الأهواء مُردَجِرُ
وصف فيها القتال وصفاً مسهباً جميلاً منسقاً حتى قال له الحجاج إنك لمصنّف
يا كعب يقول في آخرها : —

والأزْدُ قومي خيار القوم قد علموا	إذا قرؤهمو يوم الوغى خطروا
فيهم معاقل من عزّ يلاذ بها	يوماً إذا شمّرت حرب لها درر
حيّ بأسياهم يبنون مجدهم	إن المكارم في المكروه تبتدر
لولا المهلب للجيش الذي وردوا	أنهار كيرمان بعد الله ما صدروا
إذا اعتصمنا بجبل الله إذ جحدوا	بالحكّامات ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا	ديننا يخالف ما جاءت به النذر ^(٢)

(١) راجع تراجمهم في الأغاني والخزانة والشعر والشعراء .

(٢) الأغاني ج ١٣ ص ٥٤ .

على أن مديح ثابت قطنية في يزيد بن المهلب يقوم على صفات الشجاعة
والكرم والنباهة الحماسية منذ الصغر : —

كم من كمي في الهياج تركته يهوى لفيه مجندلاً مقتولا
جللت مفرق رأسه ذا روثق غضب المهزة صارماً مصقولا
قدت الجياد وأنت غرٌّ يافع حتى اكتملت ولم تنزل مأمولا
كم قد حربت وقد جبرت معاشراً وكم امتننت وكم شفيت غليلاً^(١)

وكان حمزة بن بيض الحنفي يمدح مخلد بن يزيد بن المهلب فيغدق عليه
العطاء ، وهو القائل فيه وفي بني المهلب جميعاً : —

وأبيض بهلول إذا جئت داره كفاني وأعطاني الذي جئت أسأل
ويعتبني يوماً إذا كنت عاتبا وإن قلت زدني قال : حقاً سأفعل
تراه إذا ما جئته تطلب الندى كأنك تعطيه الذي جئت تسأل
فله أبنــــــــاء المهلب فتية إذا لقحت حرب عوان تاكلوا
هم يصطلون الحرب والموت كانع بسر القنا ، والمشرقية غسل
الآيات^(٢) .

وفي سنة إحدى ومائة هرب يزيد بن المهلب من سجن عمر بن عبد العزيز
وصار إلى البصرة وعليها عدى بن أرطاة الفزاري فأوثقه يزيد ثم قصد الكوفة ثائراً
على يزيد بن عبد الملك وانحازت إليه الأزدي وأحلافها وقوى شأنه فبعث إليه أخاه
مسامة والتقى الجيشان وولى أصحاب يزيد عنه فقتل في المعركة وصبر إخوته فقتلوا
جميعاً ، ففي ذلك يقول الشاعر : —

كُلُّ القبائل بايعوك على الذي تدعو إليه طائعين وساروا
حتى إذا حضر الوغى وجعلتهم نصب الأسنة أسموك وطاروا
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن عاراً عليك وبعض قتل عار^(٣)

(١) نفس المرجع ج ١٣ ص ٥٦ . (٢) المرجع السابق ج ١٥ ص ١٥ — ٢٦ .

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ١٣٤ .

فكان مصرعه أشبه بمصرع مُصعب بن الزبير .

* * *

ولقتيبة بن مسلم الباهلي مكانته الممتازة في الحرب والسياسة فقد أبلى في الفتوح الشرقية خيراً بلاء ، كان أميراً على خراسان من قبل الحجاج بن يوسف ولآه عليها بعد المفضل بن المهلب سنة ست وثمانين ، فنشط في إخضاع دهاقين بلخ ومملك الصغانيان وغزا بيكند وهزم الترك وفتح بخارى وسمرقند مدينة السغد ، وبنى بها مسجداً ، ولما تم له ذلك دعا نهار بن توسعة الشاعر ، فقال :
يانهار أين قولك : —

ألا ذهب الغزو المقرَّب للغنى ومات الندى والجودُ بعد المهلب
أقامَ بمرورِ الرُّوذِ رهنَ ضريحه وقد غيَّباً عن كل شرق ومغرب
أفغزوا هذا يانهار ؟ قال : لا ، هذا أحسن وأنا الذي أقول : —

وما كان مذكُّنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابنِ مُسلم
أعمَّ لأهل الترك قتلاً بسيفه وأكثر فينا مقسماً بعد مقسم
واستمر في فتوحه حتى (كاشغر) أدنى مدن الصين . وإذا كان قتيبة قيسياً فإنه أولاً حلَّ محل المفضل بن المهلب الأزدي ، وكان معه بخراسان زعيم تميمي من يربوع هو وكيع بن أبي سَود ، وهذا هو الذي قتل قتيبة في فتنة خراسان على أثر موت الوليد بن عبد الملك وخلافة سليمان أخيه سنة ست وتسعين هجرية (١) . وكان قتيبة ممن وافقوا الوليد على تولية ابنه عبد العزيز العهد وعزل سليمان فاضطغنها عليه سليمان ، فلما تولى سليمان أشفق منه قتيبة وخاف أن يولى خراسان يزيد بن المهلب وكانت النفوس مرتابة فقال هذا القائد إلى خلع سليمان فنار عليه الناس وولَّوا أمرهم وكيعاً فقتل قتيبة ، وكانت حدّاً بين قيس و تميم قال فيه الفرزدقُ قصيدته المشهورة : —

تَحْنُ بزوراء المدينة ناقتي حنينَ عجولٍ تبتغي البورائِمَ

ونقضها عليه جرير بقصيدته : —

أَلَا حَىَّ رَسَمَ الْمَنْزِلِ الْمُتَقَادِمِ وَمَا حُلَّ مَذْهَبُكَ بِهِ أَمْ قَاسِمِ
وهما نقيضتان تستحقان دراسة خاصة من نواحيهما التاريخية والسياسية
والفنية ، ولما قتل قتيبة رثاه عبد الرحمن بن جمانة الباهلي بقوله : —

كَأَنَّ أَبَا حَفْصٍ قَتِيبَةَ لَمْ يَسِرْ بِجَيْشٍ إِلَى جَيْشٍ وَلَمْ يَعْلُ مِنْبَرًا
وَلَمْ تَخْفُقِ الرَّايَاتُ ، وَالْقَوْمُ حَوْلَهُ وَقُوفٌ وَلَمْ يَشْهَدْ لَهُ النَّاسُ عَسْكَرًا
دَعَتْهُ الْمَنَـيَا فَاَسْتَجَابَ لِرَبِّهِ وَرَاحَ إِلَى الْجَنَاتِ عَفَاً مَطْهَرًا
فَمَا رُزِيَ الْإِسْلَامَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ بِمَثَلِ أَبِي حَفْصٍ فَبِكَيْهِ عَمَّهْرًا^(١)
وقد صور الفرزدقُ قتيبةً ثائرًا عاقًا ورمى قومه قيسًا باللؤم والزلل وأشار
جرير إلى أن قتله كان انتقاماً للنفر الذين قتلهم من بني الأهتم من تميم .
وللفرزدق شعر آخر يذكر فيه وقعة وكيع هذه مفتخراً : —

وَمِنَا الَّذِي سَلَ السِّيفُ وَشَامَهَا عَشِيَّةَ بَابِ الْقَصْرِ مِنْ فَرَغَانِ
عَشِيَّةَ لَمْ تَمْنَعْ بَيْنَهَا قَبِيلَةً بَعِزٌّ عِرَاقِي وَلَا بِيَانِ
عَشِيَّةَ مَآوِدٌ ابْنُ غَرَاءَ أَنَّهُ لَهُ مِنْ سَوَانَا إِذْ دَعَا أَبَوَانِ
عَشِيَّةَ لَمْ تَسْتُرْ هَوَازِنُ عَامِرٍ وَلَا غُظْفَانُ عَوْرَةِ ابْنِ دَخَانِ
عَشِيَّةَ وَدَّ النَّاسُ أَنَّهُمْ لَنَا عَمِيدٌ إِذِ الْجَمْعَانِ يَضْطَرِبَانِ
رَأَوْا جِبَلًا يَعْلُو الْجِبَالَ إِذَا التَّقَتِ رُءُوسَ كَبِيرِيَهِنَّ يَنْتَطِحَانِ
فِيُجْزَى وَكَيْعٌ بِالْجَمَاعَةِ إِذْ دَعَا إِلَيْهَا بِسَيْفٍ صَارِمٍ وَسِنَانِ
جَزَاءَ بِأَعْمَالِ الرِّجَالِ كَمَا جُزِيَ بِيَدِ وَبِالْيَرْمُوكِ فِي جَنَانِ^(٢)

وقال الطرمّاح الطائي من اليمن ، وكان قتيبة في خطبته بخراسان قد شنع بأزد
اليمن صراحة : —

لَوْلَا فَوَارِسُ مَذْحِجِ ابْنَةِ مَذْحِجٍ وَالْأَزْدُ زُعْزَعٌ وَاسْتَبِيحَ الْعَسْكَرُ

(٢) الطبري ج ٢ ق ٢ ص ١٣٠١ .

(١) نفس المرجع ص ٣٦٣ .

وتقطعت بهم البلاد ولم يؤب
واستضلعت عقد الجماعة وازدري
قومهم قتلوا قتيبة عنوة
بالمرج مرج الصين حيث تبينت
إذ حالفت جزعاً ربيعة كلها
وتقدمت أزد العراق ومذحج
قحطان تضرب رأس كل مدحج
والأزد تعلم أن تحت لوايها
فبعزنا نصر النبي محمد

منهم إلى أهل العراق مخبر
أمر الخليفة واستحل المنكر
والخيل جانحة عليها العثير
مضر العراق من الأعز الأكبر
وتفرقت مضر ومن يتمضر
لموت يجمعها أبوها الأكبر
تحمي بصائرهن إذ لا تبصر
ملكاً قراسية ، وموت أحمر
وبنا تثبت في دمشق المنبر^(١)

فالشاعران — الفرزدق والطرماح — يفخران بما نزل بقتيبة ، وكل يدعى
النصر لقومه ، وأنهم أصحاب البلاء ، والانتصار للخليفة ، وذوو اليد عنده ، وقد
رأيت رثاء في قتيبة قصيراً ، وكثر رثاؤه ، ومنهم الأصم بن الحجاج الباهلي ، ورثاؤه
هذا نخر بفتوح قتيبة ، وما أثره على الدولة ، وبعد آماله ، وحيلولة الموت بينه وبين
ردم ذي القرنين :

ألم يأن للأحياء أن يعرفوا لنا
نقود تميأ والموالي ومذحجاً
نقتل من شئنا بعزة ملكنا
(سليمان) كم من عسكر قد حوت لكم
وكم من حصون قد أبجنا منيعة
ومن بلدة لم يغزها الناس قبلنا
تلاعب أطراف الأسنة والقنا
ولو لم تعجلنا المنايا لجاوزت

بلى ، نحن أولى الناس بالمجد والفخر
وأزداً وعبد القيس والحي من بكر
ونجبر من شئنا على الخسف والقسر
أسنمتنا والمقربات بنا تجرى
ومن بلد سهل ومن جبل وعري
غزونا نقود الخيل شهراً إلى شهر
بلبمتها والموت في لجج خضر
بنا ردم ذي القرنين ذا الصخر والقطر

ولكنَّ آجالاً قُضِينَ ومُدَّة تنهى إليها الطيِّبون بنو عمرو^(١)

هذه النصوص الأخيرة ترى فيها صورة لقتيبة وأخرى عليه ، وصورة لو كيع ، وكلها مشوبة بالعصبية القبلية ، والسياسة الملكية الأموية ، ولكنها على كل حال ، هي وما سبقها تدلنا على أن هؤلاء الولاة والقواد كانوا خاضعين في سياستهم لعوامل شتى من شخصياتهم ، وعصبياتهم ، وصلاتهم بالبيت الحاكم ، ولعلَّ بلاد العراق ، ويتبعها خراسان ، كانت موطن النشاط الإقليمي الذي صوّره الشعر أحسن تصوير ، ويستطيع القارئ أن يتابع البحث في هذا الجانب لعله يستطيع أن يتبين في الشعر مقدار اتفاق واختلاف النزعات السياسية التي انتشرت في الأقاليم الإسلامية إلى منتصف القرن الثاني .

ونهى هذا الجانب بولاية نصر بن سيار على خراسان ، فقد رأى تزايد الدعوة العباسية وكتب كثيراً إلى مروان بن محمد يعلمه بحال أبي مسلم وحال من معه وأنه وجده يدعو إلى إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وضمن كتابه أبياتاً من الشعر منها : —

أرى بين الرماد وميضَ جمرٍ ويوشكُ أن يكونَ له ضرامُ
فان النارَ بالعودين تُدَكِّي وإن الحربَ أولُها الكلامُ
فان لم تطفئوها تجن حرباً مُشَمَّرَةٌ يشيب لها الغلامُ
أقول من التعجب : ليتَ شعري أيقاظُ أمية أم نيام ؟
فان يك قومنا أضحوا نياماً فقل : قوموا فقد حان القيام
ففرّى عن رحالك ثم قولى : على الإسلام والعرب السلام^(٢)

والواقع أن ابن سيار كان للأمويين عيناً يقظى بخراسان ، وسفيراً مخلصاً ولكنه لم يجد من يستجيب لندائه لأن مروان كان مشغولاً بحروب الخوارج فلم يدر كيف يصنع في أمر نصر بن سيار مع ما هو فيه من الحروب والفتن فكتب نصر إلى يزيد بن عمرو بن هبيرة الفزاري عامل مروان على العراق يستمده ويسأله

النصر على عدوه وضمن كتابه أبياتاً من الشعر^(١) فلم يحجبه وشغل بفتن العراق ، فكتب نصر إلى مروان : —

كنا نرفيها فقد مُزقت واتسع الخُرق على الراقع
كالثوبِ إذ أنهج فيه البلى أعيأ على ذى الحيلة الصانع^(٢)

وآخر ما نقف عنده في هذا الفصل جانب السياسة الخارجية وما لابسها من شعر سياسي .

وإذا كانت السياسة الخارجية تقوم على ما بين الدول من صلات سلمية أو حربية فإن الناظر في تاريخ الأمويين يراه ، على العموم ، من الناحية الخارجية ، متابعة لمنهج منذ بدأت الفتوح الإسلامية جادة في آخر عهد أبي بكر ، وقوية نافذة في عهد عمر بن الخطاب ، ثم عهد عثمان بن عفان ، وليس من شك أنها فطرت أيام الحروب الأهلية في سبيل الحكومة بين على ومعاوية ، ولكنها استأنفت نشاطها في عهد معاوية بن أبي سفيان ، واستمرت إلى آخر القرن الأول ذات اندفاع إيجابي من جانب المسلمين سواء ذلك في الشرق والغرب والشمال ، وإن لم يستطع المسلمون القضاء على الروم كما قضوا على الفرس ، نعم إنهم استمروا في فتوحهم الأفريقية وغزوا الأندلس وأقاموا بها دولة طويلة العهد ولكن الروم بقوا في القسطنطينية يدافعون المسلمين في الأناضول ويغاورونهم إلى عصور متأخرة .

معنى هذا أن السياسة الخارجية للأمويين كانت في الغالب مناجزة مع الروم غرباً ، والترك ومن إليهم شرقاً ، وكان الشعر السياسي في هذا الجانب ، هو شعر الفتوح ، يقال في ظل الراية الإسلامية ، ويستمد معانيه وموضوعاته من آثار السيوف والرماح ، ومظاهر الكبر والفر ؛ فكان عبارة عن اعتراك الدولة الأموية مع غيرها في سبيل السلطان والسيادة ، وكان لذلك فخراً ، وحماسة ،

ووصفاً ، وإشادة ببلاء الجيوش ، وإخضاع الشعوب الأخرى وإقرار السيادة الإسلامية في الدنيا المفتوحة ، تجد فيه ذكر الترك والسغد والبربر والروم والوندال ، وتشهد خراسان والصين وإفريقية وأسبانيا والأناضول وبلاد الشغور ، وتسمع إلى معاهدات الصلح ، ووثائق الخراج ، وتلمح شعائر الإسلام ومعاهدته قائمة في أقصى الأرض ، وتعجب بأولئك القواد النابهين الذين دوخوا الأمم ، وفتحوا الأقطار ، وأحياناً تشعر فيه بحسرة الهزيمة ومرارة الفتن بين العشائر الفاتحة ، حتى إذا نهض العباسيون قال نصر بن سيار : —

كُنَّا نَرْفِيهَا فَقَدْ مُرِّمَتْ وَأَتَّسَعَ الْخُرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ

وخططنا أن نساير هذه الفتوح ، واقفين عند بعضها ، لنشير إلى شيء من هذا الشعر المتصل بها ، حتى يكون هذا إرشاداً لمن يود الاستقصاء ومتابعة البحث ، ففي عهد معاوية نشط المهلب شرقاً عند حدود السند ، وجنادة بن أبي أمية غرباً في بحر الروم فافتتح قبرص ورودرس وغيرها ورتبت الشواطئ والصوائف ، وهوجمت القسطنطينية ولم تفتح لمئانة أسوارها ، وكان في هذه الحملة ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري ثم عبد العزيز بن زرارمة الكلابي الذي تعرض كثيراً للشهادة فلم يقتل فأنشأ يقول : —

قَدْ عَشْتُ فِي النَّاسِ أَطْوَاراً عَلَى طُرُقٍ شَتَّى وَقَاسَيْتُ فِيهَا اللَّيْنَ وَالْبَشْعَا
كُلًّا بَلَوْتُ فَلَا النِّعَامَ تُبْطِرُنِي وَلَا تُخَشِّعْتُ مِنْ لَأْوِلْهَا جَزَعَا
لَا يَمْلَأُ الْهَوْلَ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلَا أَضِيقُ بِهِ ذَرْعَا إِذَا وَقَعَا
وَفِي إِفْرِيْقِيَّةِ أَسَّسَ عَقْبَةً بَنِي نَافِعٍ مَدِينَةُ الْقَيْرَوَانِ ، وَوُطِدَ لِلْمَسَامِينِ هُنَاكَ ،
وَتَابَعَ مَسِيرُهُ فِي عَهْدِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ حَتَّى بَلَغَ بَحْرَ الظُّلُمَاتِ وَإِنْ ارْتَدَّ بَعْدَ
ذَلِكَ وَقَتْلَ .

وفي عهد عبد الملك كانت الفتوح يسيرة لعنايته بالحروب الداخلية ، ومع ذلك فقد فتح يزيد بن المهلب قلعة (باذغيس) وصالحه ملكها (نيزك) على ما فيها من الخزائن وأبى يرتحل عنها بعماله وفي ذلك يقول كعب بن معدان الأشقري من أبيات : —

وباذْغيسُ التي من حلَّ ذروتها عزَّ الملوكَ فإنَّ شاجراً أو ظلماً
تخالُ نيرانها من بُعدٍ منظرها بعضَ النجوم إذا ماليلها عتا
لما أطاف بها ضاقت صدورهم حتى أقرُّوا له بالحكم فاحتكما
ويقول من أبيات أخرى : —

نفى نيزكا عن باذْغيس ونيزك بمنزلة أعبي الملوك اغتصابها
محلقة دون السماء كأنها غمامة صيف زلَّ عنها سحابها^(١)
ولا يبلغ الأروى شماريخها العلى ولا الطيرُ إلا نسرُها وعقبها
ثم اضطر عبد الملك أن يصالح ملك الروم ويدفع له كل جمعة ألف دينار
ليسكته حتى تزول الاضطرابات الداخلية ثم عاد فغزا بعض المدن الرومية .

وكان أمية بن عبد الله والياً على خراسان سنة سبع وسبعين فعبّر نهر بلخ
للغزو ، فحصر حتى جهده هو وأصحابه ، ثم نجوا بعدما أشرفوا على الهلاك ،
فانصرفوا إلى (مرو) فقال عبد الرحمن بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة
يهجو أمية : —

ألا أبلغ أمية أن سيُجزى ثوابَ الشر ، إن له ثوابا
ومن ينظر عتابك أو يرده فلست بناظر منك العتابا
محا المعروف منك خلال سوء مُنحت صنيعها باباً فبابا
ومن سمالك إذ قسم الأسمى أمية ، إذ وُلدت ، فقد أصابا^(٢)

ثم كانت مغاورة بين يزيد بن المهلب والترك ، قال فيها الأشقري : —

والترك تعلم إذ لاقى جموعهم أن قد لقوه شهاباً يُفرج الظلماً
بفتية كأسود الغاب لم يجدوا غير التآسي وغير الصبر مُعتصما
نرى شرايح تغشى القوم من علق وما أرى نبوة منهم ولا كزماً
وتحتهم قرح يركبن ماركبوا من الكريهة حتى يبتلعن دماً

في حازة الموت حتى جنّ ليلهم كلاً الفريقين ماولى ولا انهزما^(١)
وفي عهد الوليد بن عبد الملك نرى قواداً أربعة معروفين هم محمد بن القاسم
الثقفي ، وقتيبة بن مسلم الباهلي ، وموسى بن نصير ، ومسلمة بن عبد الملك ، وقد
كان لقتيبة مواقف مع الترك عظيمة أنطقت الألسن بشعر جيد كثير فهو الذي
قتل (نيزك) ، وفي ذلك يقول نهار بن توسعة لقتيبة : —

أراك الله في الأتراك حُكماً كحكم في قريظة والنضير
قضاءً من قتيبة غير جور به يُشفى الغليل من الصدور
فإن ير (نيزك) خزيًا وذلاً فكم في الحرب حُقق من أمير^(٢)
وفي قتيبة يقول المغيرة بن حبياء من قصيدة : —

يسمو فتتضع الرجال إذا سما لقتيبة الحامي حمى الإسلام
يمضى إذا هاب الجبان وأحشمت حربٌ تسعّر نارها بضرام^(٣)
وقال كعب الأشقرى في فتح (سمرقند) : —

كل يوم يحوى قتيبةُ نهباً ويزيدُ الأموالَ مالا جديداً
باهليٌّ قد ألبس التاجَ حتى شاب منه مفارق كُنَّ سوداً
دوَّخَ السغدَ بالكتائب حتى تركَ السغدَ بالعراء قعوداً
كلما حلَّ بلدةً أو أتاها تركتْ خيلُهُ بها أخذوداً^(٤)

وهكذا سار الشعر مع الفتوح يفخر بالنصر ، ويعتذر عن الهزيمة ، ويبعث
الحماسة في الجيوش شرقاً وغرباً حتى كان الشعر ديوان العرب في هذه
السياسة الخارجية .



(١) المرجع السابق ص ١٠٧٩ .

(٢) و (٣) نفس المرجع ص ١٢٢٦ .

(٤) ص ١٢٥٢ من نفس المرجع .

وقد طال بنا هذا الفصل لأنه يتناول جانباً يقابل الأحزاب التي قامت في هذه الفترة معارضة للدولة الأموية ، فكانت الأموية حزباً ، وحكومة ، وولاية ، وقواداً فاتحين ، وساسة مالكيين ، ثم زاد على ذلك أن ملوك بني أمية كانوا مطالبين بحياطة الدولة أمام الدول الأخرى ، فصارت جوانبهم الدراسية أكثر عدداً وأوسع مدى .

على أن سياستهم لم تلمهم الشعراء بمجديد ، فالناس إما عليهم تأثيرين وإما معهم منافقين ، ومن اختص بهم كان لأجل ما في أيديهم من دنيا أغدقت عليه ، فترك المذهب السياسي وتعلق بالمذهب المادى . هذا هو الغالب السائد . ونحب أن ننبه القارئ إلى أننا اضطررنا إلى الإيجاز والاكتفاء في بعض أقسام هذا الفصل خوف الإطالة ، وحسبنا الآن أن نرسم السبيل ولو إلى حين .

الفصل السادس

الفحول والسياسة

أو في ظل الملكية (١)

— ١ —

جرير والفرزدق والأخطل والراعي وذو الرمة والقطامي يُعدون فحول الشعراء في القرن الأول ومقدميهم ، الذين امتازوا بقوة الأسلوب ، وكثرة الفنون ، والمحافظة على الطابع العربي الأصيل للشعر ، والإبقاء على الحياة القديمة الاجتماعية والفنية ، وبعث حركة النقد الأدبي قوية عريضة حتى شغلوا عصرهم بشعرهم الذي كان مردّ النقد ، ومجال البحث ، وسجل الحياة العربية من أقدم عصورها المعروفة حتى نهاية القرن الأول .

وليس من المعقول أن يعيش هؤلاء في هذا الصخب السياسي الذي شغل الدولة الأموية دون أن يتأثروا به تأثراً مباشراً أو غير مباشر وسواء أكان هذا التأثير طردياً إيجابياً أم عكسياً سلبياً . أجل ، ليس ذلك معقولاً لأن النشاط السياسي في عصر الأمويين كان شاغل الدولة الشاغل في الحياة الداخلية بين الأحزاب ، وفي الحياة الخارجية مع الدول الأخرى ، وكان الأدب يسجل ذلك كله حتى ليصح أن يقال : إن الأدب الأموي كان أدباً سياسياً .

لا بد لمؤرخ الشعر السياسي إذاً ، أن يلم بمواقف هؤلاء الشعراء نحو السياسة الأموية ، ومقدار ما تأثروا بها وأثروا فيها ، ثم مظاهر ذلك في شعرهم بوجه خاص . (١) وأول ما يلاحظ على هؤلاء ، عامة ، أنهم كانوا أقل من سواهم تأثراً بالحياة الإسلامية الجديدة ، ولا سيما إذا قرناهم بشعراء السياسة الآخرين ، ذلك أن هؤلاء الفحول قد احتفظوا إلى حد كبير بقسط من الحياة البدوية فعاشوا أو عاش أكثرهم في البادية يخضعون لنحو من الحياة جاهلي أو يكاد على الرغم من

نشأتهم الإسلامية ، فتوزّعوا بين بادية البصرة وما جاورها و بلاد الجزيرة لا يبرحونها إلا مُلَمِّين بالمدن لحاجة سريعة ثم يعودون إلى الصحراء عاكفين على تقاليد جاهلية من شراب ، وتهاج ، وعصبيات ، ومفاخرات ، واختلاف إلى المربد (عكاظ الإسلام) ، وهم بين نصراني كالأخطل والقطامي أو مسلم غير متحرّج في دينه كالباقي على تفاوتهم في درجات هذه الجاهلية الجاهلة .

وكذلك الشأن في الجانب الأدبي ، فعندهم الغريب ، وفخامة الأسلوب ، والمحافظة على النظام الجاهلي للقصيدة في ديباجتها ، ومعانيها ، وفصولها ، وقد أربوا على الجاهليين في المهاجة ، وتناول الحُرْم ، والارتزاق بالشعر والانتطاع له ، وفي هذا الخيال البدوي القديم .

(٢) ولفهم ذلك تماما نوازن بينهم وبين فئة من شعراء الإسلام حقاً وهم الخوارج خاصة ، فشتان بين الفريقين : في الأخلاق الإسلامية ، والتقاليد الدينية والمذاهب الشعرية ؛ فالخوارج مهذبون ، ثُقاة ، ورعون ، جمهوريون ، مجدّدون يحتقرون المال والحياة ، ذوو مثل عالٍ ، أساسه الروح الإسلامي ، يَفْنون في سبيله ويشيرون على النظام الخارج على الدين ، أما الفحول فيشيرون على النظام الإسلامي ويتحلّلون من الشعائر الدينية ، وينزعون إلى الحرية البدوية رافعين عقائرهم بكل دوافع الشهوات ، والنزوات الاجتماعية ، والأحقاد العصبية ، هما فريقان : أحدهما جاهلي ، وثانيهما إسلامي . والخوارج في فهمهم الشعري مجدّدون تماماً ، لا يتشبثون بنظام القصيدة القديم ، ولا يتكسبون بالشعر ، غايته عندهم إسلامية ديناً وحكومة ، معانيهم تصدر عن الواقع أمامهم : من أصل شرعي ، وحكمة دينية ، ونظام حكومي واستشهاد في سبيل الله ، شعورهم رقيق راق ، وشعرهم مقطوعات ذات وحدة ، عصبية إسلامية جديدة لا قبلية قديمة .

(٣) ولا نستطيع أن نعد الفحول من شعراء السياسة بذلك المعنى العام الجديد الذي يمثله عمران بن حطان ، أو السكيت ، أو ابن قيس الرقيات ، ممن اتصلوا بالأحزاب ، وكانوا صُحفها ، وجاروا التيارات السياسية العليا ، ذلك لأن هؤلاء غلبت عليهم العصبية القبلية فعاشوا في أفقها الضيق القريب ، وإن

لم يتركوا السياسة العليا تركا باتا ، وعلى هذا يكون اتصالهم بالسياسة من وجهين :
 أولهما ما تناول النظام الحكومي العام أو الإقليمي ، وثانيهما ما قام على العصبية من
 حيث أنها عنصر من عناصر السياسة الأموية ذات الأثر البعيد في تكوين
 الأحزاب ، وفي حكم الأقاليم وفي الجيوش الإسلامية أثناء الفتوح الخارجية . وهنا
 نذكر فن الهجاء ، فإن ما وجد منه في هذه الفترة لا يبلغ مبلغه الجاهلي من حيث
 الوضع السياسي ، فالجاهلي كان يقال وحده في سبيل القبيلة — وهي دولة الشاعر
 القديم — والإسلامي وجد فوقه شعر سياسي متصل بنظام دوله عامة ، فإذا فسرنا
 الأول بأن عصبية كانت هي النزعة السياسية في سبيل القبيلة ، فإننا نفسر الثاني
 بأن عصبية هبطت دون مستواها السابق وعاشت قبلية اجتماعية وإن تأثرت
 بالسياسة العليا .

كانت السياسة عند الفحول وسيلة لغاية قبلية وكانت السياسة عند غيرهم غاية
 يجب أن تتواري بجانبها القبيلة أو تكون وسيلة من وسائلها لذلك تعددت القبائل
 في ظل الأحزاب واختلفت ، ولم تعمل الأحزاب في ظل قبيلة ، وإن اتخذ بعضها
 (القرشية) خدعة للظفر بالملك .

لذلك تقاسمت الفحول عصبية قبلية خضعوا في ظلها لمصالح فردية أو قبلية ،
 وكانت السياسة العليا عندهم خاضعة لهذه النزعات ، فعاشوا في ظل الملكية
 الأموية ، دون أن يخلقوا إلى سياستها الحزبية العليا ، ويعتبروا مع الأحزاب
 اعترا كما يقوم على أصول مذهبية أو نزعة سياسية خالصة . كان الأخطل تغلب
 النزعة تعنيه صوالح قومه ، فانضم إلى الأمويين على قيس عيلان ليحمي تغلب من
 غارات قيس فاذا لانت أمية مع قيس غضب الأخطل وأخذ يتوعد عبد الملك ،
 ثم انضم إلى الفرزدق على جرير لأن جريراً كان لسان القيسية على تغلب ،
 وكان القطامي تغلبياً أيضاً إلا أنه عاش في هذا الأفق القبلي الضيق دون أن
 يتصل بالسياسة العليا ، على أن عصبية لانت مع زُفر بن الحارث كما يلي .
 والراعي شغل بقومه وبجياتهم الاقتصادية خاصة ، وابتعد ذو الرمة عن مجال
 السياسة العامة ، وإن لم يسلم من العصبية على جرير ، وشغل بالنسيب ووصف

الطبيعة . وأما الفرزدق فكان تميمياً ، وجريراً أخذته قيس عيلان وإن لم تفصله
عن قومه تماماً .

(٤) وكان شعرهم السياسى ضرباً من الشعر الجاهلى ، يتنوع بين المدح
والهجاء ، والوصف ، والنسيب ، والحماسة : فى سبيل العصبية أولاً والسياسة ثانياً
مدحوا الخلفاء والأمراء والوُلاة وأخذوا عطاياهم واتصلوا بالأحزاب والشيع من
أمية ، وشيعة ، وخوارج ، وموال ، وكان اتصافهم بها رفيقاً خاضعاً لصالح الفرد
أو القبيلة ، هذا هو الأصل لما علمت من ميلهم إلى الحرية البدوية وتقاليدها ،
وربما كان النظام الحكومى شيئاً منكراً عندهم لا يطمئنون إليه كثيراً ، كان
الفرزدق يعاقر الخمر ، ويُجير بقر أبيه ، ويتباهى بالسفه والمعاصى ويمدح الناس
بالظلم ولا يتحاشى المحارم .

— ٢ —

ويحسن أن نتقدم للتعريف بهؤلاء الفحول من الجانب السياسى الذى
يعنينا هنا .

(١) ذو الرمة^(١) غيلان بن عتبة من بنى عدى بن عبد مناة بن أذ بن طابخة
لزم البادية يصفها ويشبب بمية وخرقاء ، وترك الحياة السياسية ، وقل مدحه الخلفاء
فلم يشتهر شهرة الفحول الآخرين وقد لفته الفرزدق إلى ذلك بما قال له : يمنعك
من الشهرة ، ويباعدك ، ذكر الأبعاد وبكاؤك الديار ، وكان هوى ذى الرمة مع
الفرزدق على جرير وذلك لما كان بين جرير وابن لجأ التيمى من عداوة — وتيم
وعدى أخوان من الرباب وعُكل أخوهم — وكانت هذه العداوة متأثرة بموقف
جرير مع قيس التى كانت معارضة للحكومة ، لذلك يعد ذو الرمة متأثراً بالسياسة
لذلك وإن كان دون زملائه مكانة فيها .



(ب) الراعى ^(١) عبید بن حصین بن معاوية النمرى القيسي . شغل نفسه بوصف الإبل ، وانضم إلى الفرزدق على جرير فقال فيه جرير قصيدته المشهورة التي صارت وبالا على بنى نمر : —

أَقْلَى اللّوَمَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا وَقُولِي إِنْ أَصَبْتُ ، لَقَدْ أَصَابَا
وفيهما يقول له : —

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنْكَ مِنْ نَمِيرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابَا
وأهم ما بقى للراعى لاميته التي يمدح بها عبد الملك بن مروان ، ويشكو له العريف أو الجاني ، ويرجو تخفيف الخراج عن قومه ، ويتبرأ من الخوارج النجدية والزبيريين ويعد نفسه بذلك مخلصاً للحكومة الأموية :

مَابَالُ دَفْكَ بِالْفَرَّاشِ مَذِيلًا أَقْذَى بَعِينِكَ أَمْ أُرْدْتَ رَحِيلًا
يقول فيها : —

إِنِّي حَلَفْتُ عَلَى يَمِينٍ بَرَّةٍ لَا أَكْذِبُ الْيَوْمَ الْخَلِيفَةَ قِيلًا
مازرتُ آلَ أَبِي خُبَيْبٍ طَائِعًا يَوْمَا أُرِيدُ لِبَيْعَتِي تَبْدِيلًا
وَلَمَّا أَتَيْتُ نُجَيْدَةَ بْنَ عُوَيْرٍ أَبْغَى الْهُدَى فِيزِيدَنِي تَضْلِيلًا
مِنْ نِعْمَةِ الرَّحْمَنِ لَا مِنْ حِيلَتِي أَنِّي أَعْدَدُّ لَهُ عَلَى فَضُولًا
وَشَنَيْتُ كُلَّ مَنَافِقٍ مُتَقَلِّبٍ تَرَكَ الزَّلَازِلُ قَلْبَهُ مَدْخُولًا
وَاهِيَ الْأَمَانَةُ ، لَا تَزَالُ قُلُوصُهُ بَيْنَ الْخَوَارِجِ نُهْرَةً وَذَمِيلًا
مِنْ كُلِّهِمْ أَمْسَى يَهُمُّ بِلَيْعَةٍ مَسَحَ الْأَكْفُ تَعَاوُدُ الْمُنْدِيلَا

ويعطف آخر القصيدة فيمدح مروان بن الحكم ، ويذكر مصرع عثمان ، وموقف مروان في مرج راهط وإنقاذه الملك الأموى : —

قَتَلُوا ابْنَ عَفَانَ إِمَامًا مُحَرِّمًا وَدَعَا ، فَلَمْ أَرِ مِثْلَهُ مَخْذُولَا

(١) الأغاني ج ٢٠ ص ١٦٨ بلاق والشعر والشعراء ص ١٥٦ وخزانة الأدب للبغدادى ج ٣ ص ١٣٠ السلفية ، والجمهرة .

فتصدّعت من بعد ذاك عصاهمُ شققا وأصبح سيفهم مفلولا
 حتى إذا نزلت عميّة فتنّة عمياء كان كتابها مفعولا
 وزنت أمة أمرها فدعت له من لم يكن غمرا ولا مجهولا
 فالراعى كان أمويا لأجل قومه وخوفا من عبد الملك أن ينزل بهم العقاب .
 (ج) القطامي ^(١) عُمير بن شليم التغلبي ابن أخت الأخطل ودونه في
 المنزلة الشعرية ، وأضيق منه أفقا ، عاش في ظل العصبية بين تغلب وقيس دون
 أن يعرض للسياسة العامة مباشرا ^(٢) . ولكن هذه العصبية متأثرة بالتيارات
 العليا للسياسة الأموية ، وقد وقف مع قومه يفخر بهم على غرار قوله : —

ربيعه آبائي الألى اقتسموا العلى إذا عدّ باقٍ من زمانٍ وسالفُ
 وتغلبُ بحرى طمّ سميلا بأبحرٍ فلم يستطع تيارهن المبحاذفُ
 فنحنُ الزمامُ القائد المهدى به ومن غيرنا المولى التبيعُ المحالفُ
 إلا أن هذه العصبية اضطربت فيما بعد ، ففي إحدى الوقائع بين قيس وتغلب
 أسر القطامي وقدم إلى زفر بن الحارث الكلّابي القيسى فأطلقه ورد عليه مائة
 ناقة ، فعاد الشاعر يمدحه مدحا رائعا كثيرا وشغل به نفسه واستحال سُخطه على
 قيس عيلان سُخطا على هذه العوامل السياسية والقبلية التي أشعلت الحروب بين
 حبي زرار ، وأخذ يُشيد بفضائل زفر ويذكر ما بين قيس وتغلب من صلات ،
 ويأسف على هذه الدماء التي تسيّل بين القبيلين ، ويتمنى لو استمعوا إلى
 نصحه فتصالحوا : —

قفى قبل التفرق يا ضباعا ولا يكُ موقفٌ منكِ الوداعا
 قفى فادى أسيرك إن قومي وقومك لا أرى لهم اجتماعا
 وكيف تجامع مع ما استحلا من الحرّم العظام وما أضاعا
 ألم يحزنك أن حبال قيس وتغلب قد تباينت انقطاعا

(١) الأغاني ج ٢١ ص ١١٨ بلاق والديوان ، والشعر والشعراء ص ٢٧٧ .

(٢) راجع هجاءه زفر بالديوان ص ٥٤ .

إلى أن يقول : —

ومن يكن استلامَ إلى ثَوِيٍّ فقد أكرمتَ يارُفِرُ المتاعا
أَكْفَرًا بعد رد الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا ؟
وهكذا أثر له شعر كثير في هذا الباب ، وكان فخره بقومه المستقل نادراً ،
فكانه لم يكد يتقدم للعمل في ظل السياسة العليا حتى انقلب شاكياً آثارها ،
باكياً ضحاياها .

* * *

(د) الأخطل^(١) غياث بن غوث بن الصلت من جشم بن بكر ثم من
تغلب ، يعد أشد الفحول اتصالاً بالسياسة العليا للدولة الأموية ، وقف مع
الأمويين ، وعده عبد الملك شاعره ، وقدمه على غيره من الشعراء ، فكان ينتصر
لهم ويحتج لمذهبهم السياسى ، ويمدح خلفاءهم وأمرأهم وولاتهم ، ثم كان في
جانب قومه على قيس عيلان ، وناقض جريراً في سبيل ذلك ، فلما صالح عبد الملك
قيس عيلان وألفهم غضب الأخطل وأثار فتنة على قومه (يوم البشر) وعاد يهدد
الأمويين بالانقلاب عليهم فلم يغن شيئاً .

ويمكن إجمال مواقف الأخطل السياسية في النقاط الآتية : —

(١) من أول ذلك ما كان من انتصاره ليزيد بن معاوية بهجائه الأنصار
وتفضيل قریش عليهم ، وذلك كان متابعه لما بين هذين الحيين منذ (بدر)
و (السقيفة) وتشبيب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الخزرجى (برملة) بنت
معاوية ، فأشار كعب بن جُعيل على يزيد بالأخطل فقال : —

لعنَ الإلهُ من اليهودِ عصابةً بالجزع بين جُلاجل وصِرار
قومٌ إذا هدرَ العصيرُ رأيَتهم حمراً عيوتهم كجمر النارِ
ذهبتْ قُرَيشُ بالمسكارمِ والعُلَى واللؤمُ تحتَ عمائمِ الأنصارِ

وقد أدى ذلك إلى التجاء النعمان بن بشير الأنصارى إلى معاوية وتهديده إياه بقصيدته التي مطلعها : —

مُعاوىَ إلا تُعْطِنَا الحقَّ تَعْتَرِفُ لِحَسَى الأزدِ مَشْدُوداً عليها العِثَامُ
أَيْشَمُنَا عَبْدُ الأَرَامِ ضَلَّةً وماذا الذى يُجْدَى عَلَيْكَ الأَرَامِ قُمْ؟
فَمَا لى نَارُ دُونَ قِطْعِ لِسَانِهِ فدُونَكَ مَنْ يَرْضِيهِ عَنْكَ الدَّرَاهِمُ
وَرَاعَ رَوِيدَا لَا تَسْمِنَا دَنِيَّةً لَعَلَّكَ فى رِغْبِ الحَوَادِثِ نَادِمُ
مَتَى تَلَقَّ مَنَا عَصَبَةً خَزْرَجِيَّةً أَوْ الأَوْسَ يَوْمَا تَخْتَرِمُكَ الحَارِمُ
أَلَمْ تَتَبَدَّرْ يَوْمَ بَدْرِ سَيُوفِنَا وَلَيْلِكَ عَمَّا نَابَ قَوْمَكَ نَائِمٌ؟^(١)

فحاول معاوية عقاب الأخطل ولكن يزيد حماه فمدحه الأخطل بقصيدة منها :
أَبَا خَالِدٍ دَافَعَتْ عَنِ عَظِيمَةٍ وَأَدْرَكَتْ لِحْمَى قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّدَا
وَأَطْمَأَتْ عَنِ نَارِ نَعْمَانٍ بَعْدَمَا أَغْذَى لِأَمْرِ عَاجِزٍ وَتَجَرَّدَا^(٢)
وَأَخَذَ يَمْدَحُهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَيَذْكُرُ فى مَدْحِهِ كَفَايَةَ الأُمُويِّينَ ، وَيَوْمَ (صَفِين)
وَنَتِيجَةَ التَّحْكِيمِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَجُّ بِهِ الأُمُويُّونَ : —

نَعَمْ الخُثُولَةُ مِنْ كَلْبٍ خُثُولَتُهُ وَنَعَمْ مَا وَلَدَ الأَقْوَامُ إِذْ وَلِدُوا
لَا يُسْمَعُ الجَهْلُ يَجْرَى فى نَدِيَّتِهِمْ وَلَا أُمِيَّةٌ فى أَخْلَاقِهَا الفَنَدُ
وَيَوْمَ (صَفِين) وَالْأَبْصَارُ خَاشِعَةٌ أَمَدَّهُمْ إِذْ دَعَا مِنْ رَبِّهِمْ مَدَدُ

(٢) فإذا كان عهد عبد الملك وقد اشتد النشاط السياسى ، واجتلاب الأحزاب ، ثم ثورة العصبية رأينا الأخطل يقف مع الأمويين فى وجه المعارضين ، ويؤيدهم بلسانه تأييداً يحمل عبد الملك على التغاضى عن آثام الأخطل وعلى النداء بأنه شاعر أمير المؤمنين ، وتفضيله على سائر الشعراء ، وقصيدته الرائية فى عبد الملك خلاصة لموقف الشاعر مع الخليفة على أعدائه وبخاصة قيس عيلان : —
خَفَّ القَطِينُ فَرَا حَوْأَ مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا وَأَزْعَجَتْهُمْ نَوَى فى صَرْفِهَا غَيْرُ

يَمْتَنُّ فِيهَا عَلَى الْأُمَوِيِّينَ بَعْدَ مَا مَدَحَهُمْ وَيَحْذَرُهُمْ قَيْسُ عَيْلَانَ : —
 بَنِي أُمِيَّةَ إِنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ فَلَا يَبِيدَنَّ فِيكُمْ أَمْنًا زُفْرُ
 وَأَتَخَذُوهُ عَدُوًّا إِنْ شَاهَدَهُ وَمَا تَغَيَّبَ مِنْ أَخْلَاقِهِ دَعَرَ
 وَقَدْ أَشْرْنَا مِنْ قَبْلِ إِلَى هَذَا الْجَانِبِ الْعَصْبِيِّ فَلَا نَطِيلَ فِيهِ هُنَا .

وتجد في ديوانه مدائح السياسية في بني أمية كعبد الله بن معاوية ، وبشر بن
 مروان ، وخالد بن يزيد بن معاوية ، وعبد الله بن سعيد بن العاص ، وقد مدح
 الحجاج الثقفي لأنه أمير أموى ، ومن قوله في بني أمية مخاطباً لبشر بن مروان : —
 كَانُوا مَوَالِيَ حَقَّ يَطْلُبُونَ بِهِ فَأَدْرَكَوهُ وَمَا مَلَّوْا وَلَا لَعَبُوْا
 إِنْ يَكُ لِلْحَقِّ أَسْبَابٌ يُمَدِّدُ بِهَا فَقَى أَكْفَهُمُ الْأَرْسَانُ وَالسَّبَبُ
 هُمْ سَعَوْا بِابْنِ عَفَانَ الْإِمَامِ وَهُمْ بَعْدَ الشِّمَاسِ مَرَّوْهَاتِمُتِ احْتَلَبُوا^(١)

(٣) ثُمَّ أَخَذَ الْأَخْطَلُ يَهْجُو خُصُومَ الْأُمَوِيِّينَ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْحَزْبِيِّ
 كَالَ الزَّيْبِرِ وَقَيْسِ عَيْلَانَ وَزُفْرَ بْنِ الْحَارِثِ وَجَرِيرَ وَقَوْمِهِ ؛ يُؤَيِّدُ بِذَلِكَ مَلُوكَ
 بَنِي أُمِيَّةَ : —

فَاللَّهُ لَمْ يَرْضَ عَنْ آلِ الزَّيْبِرِ وَلَا عَنْ قَيْسِ عَيْلَانَ حَيًّا طَالَمَا خَرَبُوا
 يُعَاطِمُونَ أَبَا الْعَاصِي وَهُمْ نَفَرٌ فِي هَامَةٍ مِنْ قَرِيشٍ دُونَهَا شَدَبٌ
 يَبِضُّ مَصَالِيْتُ أبنَاءِ الْمُلُوكِ فَلَنْ يُدْرِكَ مَا قَدَّمُوا عَجْمٌ وَلَا عَرَبٌ^(٢)
 وَيَقُولُ لِبَشَرٍ أَيْضًا : —

فَلَا تَجْعَلْنِي يَا بَنَ مَرْوَانَ كَامِرِي غَلَّتْ فِي هَوَى آلِ الزَّيْبِرِ مَرَاجِلُهُ
 يُبَايِعُ بِالْكَفِّ الَّتِي قَدْ عَرَفْتُهَا وَفِي قَلْبِهِ نَامُوسُهُ وَغَوَائِلُهُ^(٣)
 وَنَشِيرُ هُنَا إِلَى أَنْ الْأَخْطَلُ أَنْذَرَ الْأُمَوِيِّينَ بِالْانْحِرَافِ عَنْهُمْ إِذَا لَمْ يَكْفُوا
 قَيْسُ عَيْلَانَ وَذَلِكَ بَعْدَ يَوْمِ (الْبِشْرِ) كَمَا قَدَّمْنَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي

(١) و (٢) الديوان ص ٣٨ و ٣٩ .

(٣) ص ٦٤ .

يرتد إليه الأخطل هو قومه بنو تغلب ، والأموية عنده وسيلة لا غاية فيقول : —
لقد أوقع الجحافُ بالبشر وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعولُ
فسائل بنى مروانَ : مابالُ ذِمةَ وحبلٍ ضعيف لا يزال يُوصَلُ؟
بنزوةٍ لص بعدما مرَّ (مُصعب) بأشعث لا يُفلى ولا هو يُفسلُ^(١)
أتاك به الجحاف ثم أمرته بحيرانكم عند البيوت تقتلُ
فإلا تغرّها قريش بملكها يَكُنْ عن قريش مُستأزٍّ ومزحلُ
ونعزُّ أناساً عرّةً يكرهونها ونحيا كراماً أو نموتُ فنقتلُ^(٢)
(٤) وينحى الأخطل على قيس بالهجاء والاشتفاء ويدكر غدرها على
أنها زبيرية الهوى ، وإن كان الواقع أنه يكرهها لأسباب اقتصادية قبلية أولاً ،
فيقول : —

تربّعنا الجزيرةَ بعد قيس فأضحتْ وهى من قيس قِفارُ
يُزَجِّون الحميرَ بأرض نجد وما لهم من الأمر الخيارُ
رأوا ثغراً تحيط به المنايا (وأكبَدَ) ما يُغيِّره الغيارُ
تسامى (ماردونَ) به الثريا وأيدى الناس دونهم قصارُ^(٣)
ويحاول تشكيك الخليفة في نية قيس عند الصلح ويرى العُزوفَ عنها
أسلم وأولى ، فيقول : —

وأنتَ أميرُ المؤمنين وما بنا إلى صلح قيس يابنَ مروانَ من فقرٍ
فإن تكُ قيسٌ يابنَ مروانَ بايعتَ فقد وهكتَ قيسَ إليك من العذرِ
على غير إسلام ولا عن بصيرة ولكنهم سيثقوا إليك على صغرٍ^(٤)

(١) يقول : كان هذا الفعل بعد قتل مصعب . وأشعث هو ابن زياد وكان مصعب قتله
بجاء أخوه عبيد الله بن زياد ومصعب مشخن فاحتز رأسه .
(٢) الديوان ص ١٠ .
(٣) ص ٢٠٩ وأكبَد حصن وماردون قرية .
(٤) الديوان ص ١٣٣ .

وخلاصة القول أن الأخطل شغل بقومه تغلب شغلا اضطره إلى مملأة
الأمويين ، ومناهضة القيسيين ، فخلط بين السياسة العامة والحمة القبلية وكانت
صوالح قومه هي الأصل السياسى الذى يقاس به سلوكه وشعره .

* * *

(هـ) جرير^(١) بن عطية بن الخطفى اليربوعى من كليب بن يربوع من
تميم ، شغل نفسه منذ نشأته الفنية بالمنافسة والمهاجاة حتى اجتمعت عليه كثرة
معاصريه فثبت لهم وردهم ولم يثبت له إلا الفرزدق والأخطل ، وقد قربه الحجاج
فمدحه مدائح سنية وأوصله إلى عبد الملك وإن لم يفز عنده بمثل منزلة الأخطل ،
ولكنه مال إلى قيس عيلان لما كرمته فصار لسانها على تغلب ودارم رهط
الفرزدق كما قدمنا . ويمكن الإلمام بمواقفه السياسية بالملاحظات الآتية : —

(١) كان اتصاله بالحجاج خطوة أولية فى سبيل السياسة إذ رعاه واتخذ
شاعره أو شاعر قيس فمدحه جرير وأشاد ببلائه فى خدمة عبد الملك وملكه
فدخل بذلك بين الخليفة وأمير العراق القيسى : —

إذا سَعَرَ الخليفة نارَ حربٍ رأى الحجاجَ أثَقَبَهَا شِهَابَا
ترى نصرَ الإمامِ عليكَ حقاً إذا لبسوا بدينهم ارتيابا
عفاريتُ العراقِ شَفِيتَ منهم فأمسوا خاضعين لك الرقابا
إذا أخذوا وكيدُهم ضعيف بباب يَمَكرون فتحت بابا^(٢)

وأكثر من مدح الحجاج حتى بلغ ذلك الخليفة ولعله حسده على هذا
الشاعر فأرسله إليه الحجاج فدخل على الخليفة بعد لآى ومدحه بقصيدة تنحل
إلى نسيب تقليدى ، ومدح للخليفة وقومه ، وإلمام بآثاره السياسية : —

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ المَطايا وَأَنْدَى العالَمينَ بَطُونَ راح

(١) نقائض جرير والأخطل ، ونقائض جرير والفرزدق والأغانى ج ٨ ص ٣ والشعر
والشعراء ص ١٧٩ والديوان .

(٢) الديوان ص ١٧ .

أُبْحَتَ حِمَى تَهَامَةٍ بَعْدَ نَجْدٍ وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحٍ
دَعَوْتَ الْمَلْحِدِينَ أَبَا حُبَيْبٍ جَمَاحًا ، هَلْ شَفِيتَ مِنَ الْجِمَاحِ ؟
فَقَدْ وَجَدُوا الْخَلِيفَةَ هَبْرِيًّا أَلْفَ الْعِيصِ لَيْسَ مِنَ النُّوَاحِي
رَأَى النَّاسُ الْبَصِيرَةَ فَاسْتَقَامُوا وَبَيَّنْتَ الْمَرَضَ مِنَ الصِّحَاحِ ^(١)

(٢) وَمِنْ ذَلِكَ الْحَيْنَ صَارَ جَرِيرُ شَاعِرًا مَلْحُوظَ الْمَكَانَةِ فَاتَّصَلَ بِالْخُلَفَاءِ :

عَبْدُ الْمَلِكِ ، وَالْوَلِيدُ ابْنُهُ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَيزِيدُ بْنُ
عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَهَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَبِالْأَمْرَاءِ : الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ
مُرْوَانَ ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَمَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَمَعَاوِيَةُ بْنُ هَشَامٍ ،
وَبِالْوَلَاةِ : الْحِجَاجُ ، وَالْمَهَاجِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْكَلَابِيِّ ، وَهَلَالُ بْنُ أَحْوَزِ الْمَازَنِيِّ ،
وَعُمَرُ بْنُ هَبِيرَةَ . وَكَانَ اتِّصَالُهُ بِعَبْدِ الْمَلِكِ خَاصَّةً مُضْطَرَبًا ، وَكَذَلِكَ كَانَ شَأْنُهُ مَعَ
سُلَيْمَانَ لِمَوْقِفِ جَرِيرٍ مَعَ الْقَيْسِيَّةِ فَكَانَ يَدْنُو مِنَ الْقَصْرِ وَلَا يَقْرُبُ وَيَبْعَدُ وَلَا يَقْطَعُ ،
وَيَحَاوِلُ أَنْ يَرِدَ الْخُلَفَاءَ إِلَى الْبَنْزَارِيَّةِ دُونَ الْيَمَنِ ، فَيَقُولُ لِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ : —

أَلَا هَلْ لِلْخَلِيفَةِ فِي زِنَارٍ فَقَدْ أُمِسَّوْا وَأَكْثَرَهُمْ كُؤُلُ
وَتَدْعُوكَ الْأَرَامِلُ وَالْيَتَامَى وَمَنْ أُمِسَى وَلَيْسَ لَهُ حَوِيلُ
إِذَا ابْتَدَرَ الْمَسْكَارُ كَانَ فِيكُمْ رَبِيعُ النَّاسِ وَالْحَسَبِ الْأَثِيلُ
عَلَوْتُمْ كُلَّ رَابِيَةٍ وَفَرَعٍ وَغَيْرُكُمْ الْمَذَانِبِ وَالْمَهْجُولِ ^(٢)

كَمَا كَانَ يَقْرُبُ بَيْنَ الْخَلِيفَةِ وَقَيْسٍ ، وَبَيْنَ تَمِيمٍ وَالْحُكُومَةِ ، مِنْ ذَلِكَ مَا قَالَتْ
مُخَاطَبًا عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ مُرْوَانَ : —

فَإِنْ تَمِيمًا ، فَاعْلَمَنَّ ، أَخَوَكُمُ وَمِنْ خَيْرٍ مِنْ أَبْلِيَّتِ عَافِيَةٍ ، شُكْرًا
إِذَا شَتَّمْتُ هَجْتُمُ تَمِيمًا فَهَجْتُمُ لِيُوثَ الْوَغَى يَهْصِرُنْ أَعْدَاءَكُمْ هَصْرًا
نَقُودُ الْجِيَادِ الْمُقَرَّبَاتِ عَلَى الْوَحَى لِأَعْدَائِكُمْ حَتَّى أُبْرَنَاهُمْ قَسْرًا ^(٣)

(٣) وقد تدخل في ولاية العهد فأخذ يحض الوليد أن يبائع لابنه عبد العزيز بشعر منه قوله : —

إلى عبد العزيز سمّت عيونُ الر (م) عية إن تُخَيَّرَت الرِعاءُ
إليه دعت دواعيه إذا ما عمادُ الملك خرت والسماء
وقال أولو الحكومة من قریش علينا البیع إذ بلغ الغلاءُ
رأوا عبدَ العزيز وليَّ عهد وما ظلموا بذاك ولا أساءوا
فزحلقتها بأزفلها إليه أميرَ المؤمنين إذا تشاء^(١)

(٤) وكان هجاءُه الأخطل متصلاً بالسياسة إذا لاحظنا صلة كل منهما بالقبائل التي تعد من مقومات الدولة وهي قيس وتميم وتغلب ، وكذلك كان هجاءُه الفرزدق لأن هذا كان تغلبياً تميمياً ، وجريز قيسى تيمى كما مر ، فالنقائض على هذا الأساس شعر سياسى فى أكثر قصيدها ، ويلاحظ أن من عواملها جوانب فنية ، كانت لسرقة معانى جرير أو قلبها أو تفضيل أحد زميليه عليه ، ولكن بعض ذلك كان بمسعاة بشر بن مروان أو غيره من أنصار الدولة وخصوص قيس عيلان ، على أن بعض القصائد الواردة فيها صريحة فى المسائل السياسية ، منها مادار حول مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى ، هذا ولم يسلم فخره على الأخطل من ملاحظة المضرية وما ظفرت به من مجد دينى وسياسى معاً فى حين حرمت تغلب كل شىء : —

إنّ الذى حرمَ المكارمَ تغلبياً جعلَ النبوةَ والخلافةَ فينا
هل تملِكُ كونَ من المشاعرِ مشعراً أو تشهدون مع الأذان أذينا؟
مُضرٌّ أبى وأبو الملوك فهل لكم ياخزرَ تغلبَ من أبٍ كأبينا؟
هذا ابنُ عمى فى دمشق خليفة لو شئتُ ساقكم إلى قطينا^(٢)

(٥) وكان على آل المهلب مع الأمويين حين ثار يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك فوقف جرير بجانب الخليفة يزيدى الثوار ويشنع بهم بمثل

قوله من قصيدة في مدح يزيد بن عبد الملك : —

آلُ المهلب فرطوا في دينهم وطفوا كما فعلت نمود فبادوا
إن الخلافة يا بن دحمة دونها لجج تضيقُ بها الصدور غمار
رقصت نساء بني المهلب عنوة رقص الرئال وماهن خمار
لما أتوك مصفدين أذلةً شقي النفوس وأدرك الأوتار^(١)

(٦) ولجرب مع الموالى موقفان متناقضان : أحدهما غاظم بما هوّن من منزلتهم الاجتماعية . فقد مر برهط من بنى العنبر فأبوا إلا أن يبيعهوه رفق القرى فقال يهجوهم : —

يا (طعم) يا بن قريط أن بيعكم رفق القرى ناقض للدين والحسب
قالوا اشتروا جزرا منا فقلت لهم بيعوا الموالى واستحيوا من العرب^(٢)
فغضبت الموالى وعدت ذلك إهانة لهم ، والثاني ما قال وهو يمدح هلال بن أحوز المازنى ويفخر بأبناء اسماعيل وإسحاق : —

وأبناء إسحاق الليوث إذا ارتدوا محامل موت لابسين السنورا
فيوما سراويل الحديد عليهمو ويوما ترى خزا وعصبا منبرا
إذا افتخروا عدوا الصبيد منهم وكسرى وآل الهرمزان وقيصرا^(٣)
فسر منه الموالى والتفوا حوله ، والموالى ، كما علمت ، حزب الكسروية

الذى كان يدعو إلى دولة فارسية يدال لها من العرب المتعاليين .
كان جرير في عصبيته تميمياً قيسياً ، وكان مع الفرزدق يربوعياً ، وكانت صلته بالخلفاء ترتد إلى هذا الأصل القبلى وإلى أصل آخر نفعى خاص . وقد اضطر إلى ذلك لحاجته ، ولا حتواء قيس عليه منذ اتصل بالحجاج ، فكان أقل منزلة من الأخطل في السياسة العليا ، وكان دون الفرزدق في زعامة تميم .

* * *

(١) نفس المرجع ص ٢١٩ .

(٢) الديوان ص ٤٩ وقد وردا من قبل بتغيير في بعض الكلمات .

(٣) ص ٢٤٢ .

(و) الفرزدق^(١) همام بن غالب بن صعصعة الدارميّ من تميم ، يرجع إلى آباء سُرّة أجداد ، وركن من المفخر مشيد ، جعلته يتعلق بماضيه الجاهليّ أشد من سواه ، ويعمد إلى الفخر به ، كما أن مكانته في قومه جعلته يقف من الخلفاء والولاة موقفاً عزيزاً يصاويلهم ، ويطاردونه ، دون أن يذله عطاء أو حاجة ، فكان غنياً كريماً ماجداً ، وكان ، لذلك ، يدعى لنفسه زعامة تميم ، ويتكلم باسمها في المواقف الجليّ ، ويعارض الولاة في سبيلها ، وكثيراً ما كانت تحملها المواقف العامة أن يوسع أفقه فيتكلم بلسان مضر كلها أو خندف ، ليمتناول ضبة أخواله ، وكان موقفه في قومه طبعياً لم يضطرب كجبرير ، ولم يتوسل إلى أغراضه القومية بهذا الالتواء السياسي كما فعل الأخطل ، ولم يذل للحكومة ويستعطفها كالراعي ، فلقى الدولة ورجالها تيممياً صريحاً قوياً يرضى عن الدولة إذا أرضته ، ويغاضبها إذا انحرفت عنه ، مقياسه السياسي صالح قومه ونزعتهم العامة ، شغل بالسياسة الإقليمية أكثر من غيره ، وذلك لكثرة الولاة الذين تتابعوا على العراق ، وكانوا يختلفون معه أو مع تميم فلا يستطيع السكوت عليهم ولا سيما إذا كانوا من اليمن أو الموالي ، يدل على ذلك قوله وقد هرب من الحجاج القيسى: —

إِنْ تُنْصَفُونَا يَا لَ مَرَوَانَ نَقْتَرِبْ إِلَيْكُمْ وَإِلَّا فَاذْنُوا بِبِعَادِ
فَإِنْ لَنَا عَنْكُمْ مَرَاخًا وَمَذْهَبًا بَعِيسٌ إِلَى رِيحِ الْفَلَاةِ صَوَادِي
وَفِي الْأَرْضِ عَنْ ذِي الْجُورِ مَنْأَى وَمَذْهَبٌ وَكُلُّ بِلَادٍ أَوْطَنْتُ كِبْلَادِي
وَمَاذَا عَسَى الْحِجَاجُ يَبْلُغُ جَهْدُهُ إِذَا نَحْنُ خَلَفْنَا حَفِيرَ زِيَادِ^(٢)

(١) بدأت حياته قبلية كما رأيناها فيما مضى مع معاوية حين غضب الفرزدق لما أدخل معاوية ميراث (الحتات) عم الشاعر بيت المال ، وكان الشاعر غلاماً فمثل بين يدي معاوية وأنشده : —

أَبُوكَ وَعَمِي يَا مَعَاوِيَ أَوْرَثَا تَرَاثًا فَيَحْتَازُ التَّرَاثَ أَقَارِبُهُ
فَمَا بَالُ مِيرَاثِ الْحَتَاتِ أَكَلَتْهُ وَمِيرَاثِ حَرْبِ جَامِدٍ لَكَ ذَائِبُهُ

(١) نقائض جرير والفرزدق والأغاني ج ٩ ص ٣٢٤ والشعر والشعراء ص ١٨٣ والديوان طبعة الصاوي .

(٢) ديوان الفرزدق ج ١ ص ١٩٠ .

فلو كان هذا الأمر في جاهلية علمت من المولى القليل حلائبه
ولو كان هذا الأمر في ملك غيركم لأداه لي أو غص بالماء شاربهُ^(١)
فدفع معاوية إليه ميراث عمه ، ولم تر شاعراً آخر استطاع أن يقف من
معاوية هذا الموقف إلا النعمان بن بشير الأنصاري لما هجا الأخطل قومه ، وعلى
كل فإن سلوك الفرزدق مع معاوية وزيد كان ظاهرة قبلية لها ما بعدها في
حياته كلها .

(٢) هذه القبلية العزيزة الغنية جعلته يعتصم بقومه ، ولا يزاحم على
أبواب الملوك ، ولا يتصل بالسياسة أول أمره اتصالاً ذا شأن ، فبعد عن القصر
الملكي أيام معاوية ويزيد ابنه ومن بعدها حتى إذا كان عبد الملك وابنه الوليد
رأيناه يلم بهما إلاماً في سبيل قومه ، ويذكر ما كان بين عبد الملك وبين
الزبيرين باجمال دون احتجاج أو إسهاب : —

إذا لاقى بنو مروان سلكوا لدين الله أسياً غضابا
صوارم تمنع الإسلام منهم يوكل وقعهن بمن أرابا
بهن لقوا (بمكة) ملحدية (مسكين) يحسنون بها الضرابا^(٢)
ويسفر لقومه عند الوليد بن عبد الملك لعله يخفف عنهم ما هم فيه من فاقة
وضنك وفي أثناء ذلك يذكر دولتهم ومآثرها ، وخشيته من الحجاج وجبروته : —
كم من منادٍ والشريفان دونه إلى الله تشكى والوليد مفارقة
ينادى أمير المؤمنين ودونه ملا تتمطى بالمهاري ظايرهُ
راؤني فنادوني أسوق مطيتي بأصوات هلاكٍ سقابٍ حرائره
فقالوا : أغشنا إن بكلفت بدعوة لنا عند خير الناس ، إنك زائرهُ
أغث مضرأ ، إن السنين تتابعت عليها بحز يكسر العظم كاسره
ثم يمدح آل مروان راجياً بقاء دولتهم ، ودوام نصرتهم ، ملجأ في طلب

العون لقومه ، مصوراً بطش الحجاج ورهبته ، ويختتمها بهذا البيت : —

أخافُ من الحجاج سورةَ مُحمَّدٍ ضواربَ بالأعناق منه خوادره ^(١)

ويذهب هذا المذهب في رائية أخرى تدور على الشكوى من العمال .

على أن الفرزدق لم يتورط في (ولاية العهد) كما تورط جرير والحجاج .

(٣) فلما ولي سليمان بن عبد الملك نشاط الفرزدق ، ولا سيما أن الحجاج

قد مات ، فانقلب عليه الفرزدق ، كما شمت بمصرع قتبية وعنف قيساً كلها في قصيدته المشهورة : —

تحنّ بزوراء المدينة ناقتي حنينَ عَجول تبتغي البوراء ^(٢)

ويذكر لسليمان رعايته آل المهلب بعد خلاصهم من أسر الحجاج وإن نقم

عليهم وعلى اليمن عامة والأرد خاصة بصدد ثورة يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك وينتهز هذه الفرصة فيفخر بمضر على اليمن وبقومه تميم ، فيقول فيهم : —

يرومُون حقاً للخلافة واضحاً شديداً أواسيها طويلاً عمودها

فإن تصبروا فينا تقروا بحكمنا وإن عُدتمْ فيها فسوف نعيدها

لقد كان في آلِ المهلبِ عبرة وأشياعهم لم يبق إلا شديدها

لعمرى لقد عابوا الخلافة إذ طغوا وفي يمنٍ (عبّأها) إذ يُبيدها ^(٣)

وكان على عهد هشام مشغولاً بالسياسة الإقليمية الشرقية في العراق

وخراسان وذلك في ولاية خالد القسري اليميني الذي انتقم من مضر لقتل يزيد

ابن المهلب ، وكان من ضحاياه عمرو بن يزيد الأسدي التيمي ، فيثور الفرزدق

في سبيل مضر كلها بالعراق والشام ويرجو الخليفة إنقاذهم من هذه العصبية اليمانية ،

ومن قوله في قتل عمرو بن يزيد الأسدي والمذخر بن الجارود العبدي : —

بكتْ عين محزون فطال انسجامها وطالت ليالي حادث لاينامها

فان نبكْ لانبكِ المصيبات إذ أتى بها الدهرُ والأيامُ جمَّ خصامها

(٢) ج ٢ ص ٨٥١ .

(١) ص ٣٠٩ .

(٣) ص ١٨٧ — عباد خارجي باليمن قتله يوسف الثقفي .

ولكننا نبكى تنهك خالد
 قتلُ لبني مروان ما بالُ ذمة
 محارم منّا لا يُحِلُّ حرامها
 وحُرمة حِلِّ ليس يُرعى ذمامها!
 ألا في سبيل الله سفكُ دماننا
 وثارٍ بقتل ابن المهلب خالد
 أرى مضرَ المصرين قد ذلَّ نصرها
 فغيرَ أمير المؤمنين فانها
 وفينا بقيات الهدى وإمامها
 ولكن قيساً لا يُدلَّ شامها
 يمانية حقاء أنت هشامها^(١)

(٤) والقول في سياسته الإقليمية وصلته بالأمراء والولاة يطول مداه فلنقف
 عند مظاهر السياسة العامة عنده ، فقد أُلِمَّ بمذهب الأمويين السياسي وادعائهم
 الخلافة في قوله من قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك ويهجو يزيد بن المهلب : —
 صلى صهيب ثلاثاً ثم أنزلها
 وصية من أبي حفص لسنتهم
 على ابن عفان ملكاً غير مقصور
 كانوا أحبباء مهدي ومأمور
 إذ بايعوه لها والبيت والطور
 فيكم إلى نفخة الرحمن في الصور^(٢)
 ويقول في مدحه الوليد : —

أما الوليدُ فإنَّ الله أورثه
 خلافة لم تكن غصباً مشورتها
 بعلمه فيه ملكاً ثابت الدعم
 أرسى قواعدها الرحمن ذو النعم
 كانت لعثمان لم يظلم خلافتها
 فانتك الناس منه أعظم الحرم^(٣)
 عاش الفرزدق بين عاملين سياسيين أحدهما عام لجأ إليه آخر الأمر يستعينه
 في سبيل قومه ووطنه الأدنى ، ذلك ما كان متصلاً بالخلفاء والخلافة ، والثاني
 خاص بالسياسة الإقليمية والمضرية وهو الذي لزمه طول حياته وأخضع له كل
 ما عاده ، فهو لذلك ألصق بتعيم من جرير ، وأصح مسلماً منه ، إذا لاحظنا
 الناحية القومية .

(٢) ص ٢٦٥ ج ١ .

(١) الديوان ج ٢ ص ٧٩٠ .

(٣) ص ٧٦٨ .

وهنا يمكن أن نجمل مكانة هؤلاء الفحول السياسية سواء في ألقها الحكومى العام ، وفي دائرتها القبلية الخاصة ، وفي مذهبهم الفنى فيما قالوا من شعر : —

(١) أساس حياة هؤلاء الشعراء هو النظام القبلى والحماية للرھط والعشير ، وإلى هذا الأصل يرجع كل قول وسلوك ، وهذه ظاهرة جاهلية تصل بين هؤلاء وبين الماضى البعيد ، ولعل من بواعثها نشأتهم البدوية العامة من وجه ، ثم السياسة الأموية من وجه آخر ، فقد بعثت العصبيات فى سبيل الملك وأحيت الشقاق بين اليمنية والمضرية ومزقت القبائل المضرية حتى غرق الشعراء فى هذا التيار ولم يستطيعوا النجاة منه .

(٢) كان اتصال الفحول بالأحزاب السياسية وسيلة لهذه الغاية القبلية ، فقد اتصلوا بالخلفاء والولاة والزعماء بقدر ما ينفعهم هذا فى المصالح القومية القريبة ، لذلك اضطرت مواقفهم وكانت موضع الريبة والشكوك ، فالفرزدق يمدح آل المهلب ثم يهجوهم ، والأخطل يشيد بما آثر الأمويين ثم يندرهم ويتوعدهم ، والقطامى يهجو قيساً ثم يأسف لموقفها مع قومه ، والراعى يتزلف إلى عبد الملك فى سبيل قومه ، ويبرأ من الزبيرية والخوارج النجدية لعله يرضى الخليفة ، وهكذا كان المقياس القبلى هو الأصل ، وكانت الحزبية وسيلة لاغير .

(٣) وجد بجانب ذلك الصالح الخاص بالشعراء أنفسهم فلا شك أن جريراً تأثر فى موقفه السياسى بحاجته ، ومارتب له الأمويون من عطاء منظم ، ثم ما كانت تقدم إليه قيس عيلان حتى عيّرهُ الفرزدق بذلك ، وأنه يبيع أعراض قومه بعرض تافه من هبات قيس ، وكان القطامى تغلبياً ، فلما من عليه زفر بن الحارث السكلابى فى إحدى المعارك انقلب نزارياً يحنو على قيس وزعيمها ، ولم يسلم الفرزدق على غناه من هذه النفعية الخاصة ، وإن كان أقل من الآخرين زلفى واستجداء . وكذلك كان الشأن مع الولاة والأمراء ، فان مواقف الفرزدق خاصة مع هؤلاء كثيرة ، متنوعة ، متقلبة ، لاتكاد تحصى ، وهذا يفسر لنا

اختلاف صلته الشعرية بالأمراء مدحاً ، وهجاءً ، واستعظافاً ، مرد ذلك القبلية والشخصية .

(٤) أما فهم الشعري في هذا الباب فلا يكاد يختلف عن فهم العام في سائر أبواب الشعر لأن السياسة عندهم غرقت فيما عداها فلم تستقل ، ولم تكن ثمرة مذهب أو حزب حتى تسيطر على مواهب الشعراء ، أو تحدث تحولاً أصيلاً في طرائق الصياغة كما حدث عند الخوارج أو الشيعة ، لذلك قل اعتصامهم بأصول مذهبية ودرجوا يمدحون الأمويين الذين عاشوا في ظلهم بما رسم لهم الأخطل من كفاية هذه الأسرة ، ووراثتها عثمان ، ونتيجة التحكيم ولم يزدوا على ذلك شيئاً ، فاذا سخطوا أنذروهم بالانحراف والبوار ولم يلحوا بالإنكار على الشيعة ، والموالى ، وآل الزبير ، بل ربما مالوا إليهم ومدحهم .

أما أسلوبهم فكان نخمًا ، جزل العبارة ، خالياً من الصنعة الغالية ، يشيع فيه الغريب ، مع خضوع لتقاليد القصيد الجاهلي في التقسيم والفنون العامة ، وقد أربوا على السابقين في الطول والافتنان .

(٥) وبالموازنة بينهم وبين الشعراء السياسيين الحزبيين نستخلص النتائج الآتية : —

لم يخلص الفحول لمذهب سياسي عام كشعراء الأحزاب وإنما أخلصوا لمذهب خاص هو القبلية أو الفردية ، فهم جاهليون وإن عاشوا في ظل الإسلام وكأن السياسة عندهم وسيلة لا غاية بخلاف الخوارج مثلاً .

شغلوا بالمدح والهجاء في سبيل العيش ، ولم يفعل ذلك الخوارج ، وإن تورطت فيه الموالى والشيعة وجعلوا منه ستاراً لمذهبهم ، أو وسيلة لحياتهم ، أو تقية من خصومهم .

كان تأثر الفحول بالتقاليد الإسلامية قليلاً ، فتورطوا في هذا الهجاء المقذع ، والأساليب المكشوفة ، واتخذوها أداة سياسية في بعض الأحيان ، تجدها عند جرير وصاحبيه بوجه خاص .

عاش الفحول على هامش السياسة كما عاش الغزلون ، وربما أثرت السياسة
في هذين الفريقين أكثر مما أثروا فيها ، وإن تأثر الغزلون بالحياة الإسلامية
أكثر من الفحول .

ومرد ذلك كله ، فيما أرى ، أن هؤلاء الفحول اعتصموا بالبادية وتشبثوا
بالحياة الجاهلية الطليقة ، ونفرت طبائعهم من تقاليد الدين وقيود المدنية ، فغلبت
عليهم نزعات قبلية كانت لها آثارها في سلوكهم الخاص ، وفي صلتهم بالسياسة ،
وفي مذاهبهم الفنية .

البصير الساب

الرجاز والسياسة

أوفى ظل الملكية (٢)

— ١ —

الرجز من بحور العروض ، وزنه التام (مستفعلن) ست مرات ، روى عن الخليل في سبب هذه التسمية أن وزنه مضطرب كاضطراب قوائم الناقة عند القيام . إذ كان الرجز في أصل اللغة اضطراب رجل البعير أو فخذيه إذا أراد القيام ، وهذا البحر يكون مشطورا ومنهوكا فتقصر أبياته . ويمتاز (فن الرجز) عند الشعراء بتصريع جميع أبياته طالت الأرجوزة أو قصرت ، وتطلق الأرجوزة ، أكثر ما تطلق ، على هذه القصائد المصرفة الأبيات من مشطور هذا البحر ومنهوكه ومن مشطور السريع ومنهوك المنسرح . وتسمى الأرجوزة قصيدة طالت أبياتها أو قصرت ، ولا تسمى القصيدة أرجوزة إلا أن تكون من أحد أنواع الأوزان التي ذكرت بصرف النظر عن تصريع الشطور ، فالقصيد يطلق على كل الرجز ، وليس الرجز مطلقا على كل قصيد أشبه الرجز في الشطر ^(١) .

والراجز قلما يقصد فإن جمعهما كان نهاية ، كأبي النجم فإنه كان يقصد ، وأما غيلان — ذو الرمة — فإنه كان راجزا ثم صار إلى التقصيد ، وسئل عن ذلك فقال : رأيتني لا أقع مع هذين الرجلين على شيء ، يعني العجاج وابنه روبة ، وكان جرير والفرزدق يرجزان ، وكذلك عمرو بن لجأ راجز ومقصد ، ومثله حميد الأرقط ، والعماني أيضا ، وأقلهم رجزا الفرزدق ، وليس يمتنع الرجز على المقصد امتناع القصيد على الراجز ، ألا ترى أن كل مقصد يستطيع أن يرجز وإن صعب

(١) راجع لسان العرب مادة رجز والعمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢١ .

عليه بعض الصعوبة ، وليس كل راجز يستطيع أن يقصد ، واسم الشاعر وإن عم المقصد والراجز فهو بالمقصد أعلق وعليه أوقع ، فقليل لهذا شاعر ، ولذلك راجز كأنه ليس بشاعر كما يقال خطيب أو نحو ذلك ^(١) . وزعم الرواة أن الشعر كله كان رجزا وقطعا وأنه إنما قصد على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ^(٢) ، وكان أول من قصده مهلهل وامرؤ القيس وبينهما وبين مجيء الإسلام مائة ونيف وخمسون سنة ، ذكر ذلك الجحى وغيره ، وأول من طوّل الرجز وجعله كالقصيد الأغلب العجلى شيئا يسيراً ، وكان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى العجاج بعد فافتن فيه ، فالأغلب العجلى والعجاج في الرجز كما مرّ القيس ومهلهل في القصيد .

والرجز فن جاهلي قديم يعد ثانيا للشعر ، وكان فنا شعبيا اعتمد عليه العرب وقت الخصاص ، أو النزال ، أو الحداء أو الاستقاء على الآبار ، يقطعونه على الأعمال ويقتصرون منه على قدر قليل ، ولم تكن له منزلة القصيد حتى جاء الإسلاميون فأطالوه واستخدموه في فنون الشعر ، وأخذوا يزاحمون به الشعراء ويتحدوهم أحيانا حتى رأينا منذ القرن الأول هذه الطبقة التي شاركت في الحياة العامة ، وتناولت السياسة ، من رجالها أبو النجم والعجاج ورؤبة وأبو نخيلة الحماني .

— ٢ —

وقد رأينا الرجاز يقعون بعد الفحول من حيث اتصالهم بالسياسة ، فقد كانت لهم عصبية قبلية أولا ، فالعجاج ورؤبة تميميان يفخران بتميم ويدافعان عنها أمام الخلفاء ، ويعتدان بها وعدا ووعدا ، ومثلها أبو نخيلة ، وكان أبو النجم ربيعيا ، وقد يفخر رؤبة بقيس عيلان لأنها مضرية كما فعل ذلك الفرزدق وجريـر .

وكانت للرجاز مع ذلك أطماع أو منافع خاصة مدحوا في سبيلها وهجوا

(١) العمدة ج ١ ص ١٢٣ .

(٢) ابن سلام : طبقات الشعراء ص ١٨ مصر .

كثيراً وكان مدحهم من حيث معانيه متصلاً بالسياسة ، لما بميزاتها من حزم ، وعدالة ، وإخلاص للخلفاء ، فوق معاني الكرم والشجاعة والبهاء والصالح ونحوها . ثم كانت السياسة من بين فنونهم كالنسيب والوصف والفخر ، وربما كانت هذه الثلاثة أدلّ على شخصيتهم من سواها أو هي الفنون الواضحة التي احتلت الرجز وطوعته لمعانيها فنافس فيها القصيد وصار له بذلك سلطان على الحياة الاجتماعية والسياسية ، وصار رجاله يُرهبون وتخشى ألسنتهم ويستخدمون في الإشادة بالرؤساء ، وكان أبو نخيلة للمنصور كمسكين الدارمي مع معاوية ، وجريز مع الوليد في (ولاية العهد) .

ويمكن الإشارة إلى مواقفهم السياسية بالملاحظات الآتية : —

(١) مدح الخلفاء والأمراء والولاة على أساس هذه الدولة القائمة أموية أو عباسية ، وهذا المدح كان استجداء أيضاً ، لكن كانت معانيه سياسية تتصل بمجد الدولة وحزم الحكام وبأسهم وعدالتهم وفتوح القواد ، وإذ لا لهم الخصوم وبلوغهم الهند والصين ، فهو مدح يمس السياسة وإن كانت غايته الرغبة أو الرهبة كما في حياة رؤبة وأبي النجم بوجه خاص .

(٢) هجاء التأثيرين على الدولة والخارجين عليها كالخنثار الثقفي ويزيد ابن المهلب ومصعب بن الزبير بالنسبة للأمويين ، وكالتنصل أمام العباسيين من ثورة نسبت إلى تميم أو حمايتهم عبد الله بن علي حين خلع ، ذلك ما نهض به رؤبة أمام المنصور ، وكان العجاج مع مصعب على الخنثار ، ثم مع عبد الملك على مصعب ، وكان مع الحجاج على ابن الأشعث وهكذا ، وقد ورد ذكر الشُّراة على لسان رؤبة أيضاً ، فتقلب هؤلاء مسaire للسياسة العليا للحكومة القائمة .

(٣) وقد ظهر هذا التقلب في القرن الثاني بين الدولتين الأموية والعباسية ، فقد مدح رؤية رجالهما وخشى أبا مسلم حتى طمأنه ، وقال السفاح لأبي نخيلة : لا حاجة لنا في شعرك ، إنما نشدنا فضلات بني مروان ، فلما اعتذر إليه آمنه ، وهذا طبعي ما دام الشعراء يحتاجون إلى العيش والخلفاء يحتاجون إلى الشعر يوثق مكاتهم السياسية .

(٤) قُتِلَ أَبُو نُخَيْلَةَ فِي سَبِيلِ أَنْ دَعَا الْمَنْصُورَ لِيُؤَلِّيَ عَهْدَهُ الْمَهْدِيَّ ابْنَهُ وَيُخْلَعَ عَيْسَى بْنُ مُوسَى ، وَقَدْ كَانَ مَوْقِفُهُ فِي ذَلِكَ كَمَوْقِفِ شُعْرَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ الَّذِينَ تَدَخَّلُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الشَّائِكَةِ فَأَوْذَوْا فِي سَبِيلِهَا .

وَالْمَلَا حَظَّ أَنَّ الرَّجَّازَ كَانُوا دُونَ الْفَحُولِ فِي الْمَوَاقِفِ السِّيَاسِيَةِ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَنْحَازُوا لِمَذْهَبٍ ، وَلَمْ يَتَكَبَّهُوا عَلَى الْعَصْبِيَّةِ وَيَسْتَخْدِمُوا لَهَا السِّيَاسَةَ كَمَا فَعَلَ الْفَحُولُ ، فَكَانَتْ عَصْبِيَّةُ الرَّجَّازِ جَزْئِيَّةً أَوْ تَقْيِيَّةً يَتَرْضَوْنَ بِهَا الْخُلَفَاءَ ، وَلَمَّا كَانُوا يَعِيشُونَ فِي ظِلِّ الْخُلَفَاءِ فَقَدْ خَضَعُوا لِلرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ دُونَ مَنَاضَةِ الزُّعَمَاءِ .

— ٣ —

وَلِنَتَقَدَّمَ إِلَى التَّعْرِيفِ بِبَعْضِ الرَّجَّازِ مِنْ جَانِبِهِمُ السِّيَاسِيَّ تَارِكِينَ الْأَغْلَبَ الْعَجَلِيَّ وَأَبَا النُّجُمِ لَعَدَمِ عَثُورِنَا عَلَى شَعْرٍ لَهُمَا سِيَاسِيٍّ .



(١) الْعِجَاجُ ^(١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رُوْبَةَ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ مِنْ تَيْمٍ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَفَعَ الرِّجْزَ ، وَجَعَلَ لَهُ أَوَائِلَ ، وَشَبَّهَهُ بِالْقَصِيدِ ، كَانَ مَعَ مَصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَلَى الْخُتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ ، فَقَالَ فِي مَصْعَبٍ : —

لَقَدْ وَجَدْتُمْ مَصْعَبًا مُسْتَصْعِبًا حِينَ رَمَى الْأَحْزَابَ وَالْحَزْبَا
وَإِنْ أَبِي عُبَيْدٍ الْمَكْذَبَا وَالسَّبْيُ وَالْمَرَاشِي الْمَذْنَبَا
بِحَاجِي سَبْعِينَ أَلْفًا مُعْرَبَا مَوْجًا تَرَى قُدُمُوسَةَ مُكْوَكْبَا

وَبَعْدَ أَنْ وَصَفَ جَيْشَ مَصْعَبٍ وَأَثَرَهُ يَقُولُ : —

قَدْ عَلِمَ الْخُتَارُ إِذْ جَدَّ الْجَبَا وَبَلَغَ الْمَاءُ حَلَاقِيمَ الزُّبَا
مَنْ الَّذِي غَيَّقَ تَغْيِيقَ الصَّبَا وَرَتَّمْ الْخَشْفَ الَّذِي كَانَ أَبِي ^(٢)

(١) الْأَغَانِي ج ٣ ، ٤ ، ١١ ، ١٨ ، ٢١ وَخَزَانَةُ الْأَدَبِ ج ١ ص ١١٧ الْمَطْبَعَةُ السَّلْطَانِيَّةُ وَالشَّعْرُ وَالشُّعْرَاءُ ص ٢٣٠ .

(٢) مَجْمُوعُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ ج ٢ ص ٣ طَبْعُ أَوْرَبَةِ .

ولما قتل مصعب بن الزبير قال : —

زلّ بنو العوّام عن آل الحكم
وشنأوا الملكَ ملكَ ذى قدم
ضخم الإيادين شديد المدّعم
إذا التقت أركانه بمزدحم
إن بنى مروان ضرباً أبو البهم
والقاتلون من عصى إذا اعتقم
دينا سوى الحقّ إلى أمر أمم
كلهم ينمى إلى عز أشم
أطول من فرعى حراء أو خيم^(١)

فكان مع مصعب حياً ، فلما مات انقلب عليه مع الأمويين .

وقد مدح من أمراء الأمويين عبد العزيز بن مروان برجز منه : —

قلتُ لعنسي قد ونّت طليح
عوجاء من تتابع التطويح
إلى ابنِ ليلى فاغتدى وروحى
إلى فتى فى الباعِ ذى مندوح
مرزاً بسبيه نفوح
فى البدو ذى بدو وذى تمنوح^(٢)

ومدح عمر بن عبيد الله بن معمر بأرجوزته المشهورة : —

قد جبرّ الدينَ الإلهُ فجبرّ
وعورَ الرحمنُ من ولى العورِ
فالحمدُ لله الذى أعطى الخبرَ
موالى الحقّ إن المولى شكّر
هذا أوانُ الجِدِّ إذ جدّ عمر
وصرّح ابنُ معمر لمن ذمّر^(٣)

ومدح الحجاج بن يوسف بقوله : —

يا صاحٍ ما ذكرّك الأذكارا
مالمت من قاضٍ قضى الأوطارا
كشحاً طوى عن بلد مختارا
من يأسة اليأس أو حذارا^(٤)

وقال فيه وفى أصحاب ابن الأشعث : —

ألم يكن أشدّ قوم رحضاً
سراءهم والأخشين ركضاً
فوجدوا الحجاج يأبى الهضاً
ومن صريح الأكرمين محضاً^(٥)

(٢) ص ١٣ .

(٤) ص ٢١ .

(١) نفس المرجع ص ٥٥ .

(٣) ص ١٥ .

(٥) ص ٣٥ .

وقال في بشر بن مروان ، ويزيد بن معاوية ، وسليمان بن عبد الملك وغيرهم
مما ورد في ديوانه .

* * *

(ب) رؤبة^(١) بن العجاج بن رؤبة السعدي التميمي من رُجاز الإسلام
وفصحائهم، والمذكورين المقدمين منهم ، نزل البصرة، وهو من مُخضرمي الدولتين ،
مدح بني أمية وبني العباس ومات أيام المنصور ، وفد مع أبيه من قبل الحجاج على
الوليد بن عبد الملك لما ولي الخلافة .

لما أفضت الخلافة إلى بني هاشم بعث إليه أبو مسلم الخراساني فلما دخل عليه
ظهر جزعاً ، فقال له أبو مسلم : أسكن ، لا بأس عليك ، ما هذا الجزع الذي بدا
منك ؟ قال : أخافك ، قال : لم ؟ قال لأنه بلغني أنك تقتل الناس ، قال : إنما
أقتل مَنْ يقاتلني ويريد قتلي ، فأنت منهم ؟ قال : لا ، قال : فهل ترى بأساً ؟ قال :
لا ، ثم استنشده قوله : —

وقَاتِمِ الأعماقِ خاوى الخَتَرِ

قال : أو أنشدك ، أصلحك الله ، أحسن منه ؟ قال : هات ، فأنشده : —
قَلْتُ ونَسَجِي مُسْتَجِدِ حَوْكا لَبِيك إِذْ دَعَوْتَنِي لَبِيكا
أَحْمَدُ رَبًّا سَاقِي إِلَيْكا الحَمْدُ والنعمة في يديكا
قال : هات كلمتك الأولى ، قال أو أنشدك أحسن منها ؟ قال هات ، فأنشده : —
ما زالَ يَبْنِي خَنْدَقًا وتَهْدِمُهُ وَيَسْتَجِيشُ عَسْكَرًا وتَهْزِمُهُ
ومَغْنَمًا تَجْمَعُهُ وتَقْسِمُهُ مروانُ لما أن تهاوت أنجمُهُ
وخانَهُ في حُكْمِهِ مُنْجَمُهُ

وهكذا حتى أنشده : —

وقَاتِمِ الأعماقِ خاوى الخَتَرِ

مشتبه الأعلام لماع الخفق
يكل وفدُ الريح من حيث انخرق^(١)

مدح رؤبة مسامة بن عبد الملك فقال : —

ياربَّ إن أخطأت أو نسيتُ فأنْتَ لا تنسى ولا تموتُ
مسلم لا أنساك ما حميتُ عهدك والعهد الذي رضيت
لو أشرب السلوان ما سليتُ ما بي غنى عنك وإن غنيت^(٢)

وقال في يزيد بن المهلب : —

يزيدُ قد غرَّك في التسمي أعيتك صلباتُ على العُجام
عزَّ لأمثالك ذو ادغام أف لما جمعت من قُمام
كأبرت أهل الجاه والأحزام بأعبد عبدتهم لئام^(٣)

ومدح نصر بن سيار ، والقاسم الثقفي ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك ،
ومروان بن محمد ، ومن قوله للمنصور حين اتهم تميما بحماية عبد الله بن علي
حين خلع : —

إن تميما برئت عتابها من كل عيبٍ مُعتبٍ أعيابها
بطاعة لينّة رقابها إلى الذي من أصله نصابها
ومن تُراب أرضه تُرابها وفي عُرى أسبابه أسبابها
خليفةُ الله الذي إجلابها إليه حتى يرتقى عُبابها
وأمة تحزبت أحزابها من ساسة الناس ، ومن أربابها
إذا الحدودُ اعتلبت أعلامها لم يلتبس بحقنا مُرتابها^(٤)

وأراجيزه كثيرة في سائر الفنون الشعرية وكان أكثر شعراً من أبيه

(١) الديوان ص ١٠٤ والخزانة ج ١ ص ٥٧ السلفية .

(٢) الديوان ص ٢٥ . (٣) ص ١٤٤ .

(٤) ص ٢٠ .

وأفصح منه ، وإن اشتركا في معرفة اللغة وغريبها وفي هذه النزعة السياسية العامة .

* * *

(ج) أبو نُخَيْلة الحِمَّاني^(١) بن حزن من تميم ، غلب عليه الرجز ، ولما خرج إلى الشام اتصل بمسامة بن عبد الملك فاصطنعه وأحسن إليه وأوصله إلى الخلفاء واحداً بعد واحد فأغنوه ، ولكنه كان قليل الوفاء لهم ، فقد انقطع إلى بني هاشم وصار شاعرهم ، وهجا بني أمية فأكثر ، وقد أنشد أراجيز يغري المنصور فيها بخلع عيسى بن موسى وعقد العهد لابنه المهدي فوصله المنصور بألفي درهم وأمره أن ينشدها بحضرة عيسى بن موسى ففعل ، فطلبه عيسى فهرب منه ، فبعث في طلبه مولى له فأدركه في طريق خراسان فذبحه وسلخ جلده ، تأدب بالبادية حتى شعر وقال رجزاً كثيراً صالحاً وشهر بهما وسار شعره في البدو والحضر ورواه الناس ، ثم وفد على مسامة بن عبد الملك منصرفه من حرب يزيد بن المهلب وصاح به : —

مَسْلَمَ يَا مَسَامَةَ الْحُرُوبِ أَنْتَ الْمَصْفَى مِنْ أَذَى الْعُيُوبِ
مُصَاصَةً مِنْ كَرَمٍ وَطِيبٍ لَوْلَا ثِقَافٌ لَيْسَ بِالتَّدْيِيبِ
تَغْرَى بِهِ عَنْ حُجُبِ الْقُلُوبِ لَأَمْسَتْ الْأُمَّةُ شَاءَ الذَّيْبِ^(٢)

ومدح هشاماً بعد موت مسامة الذي كان أثيراً عنده يعده الشاعر حامى هذه الأمة بما وهب من إقدام في الحروب وقمع الثائرين .

دخل على السفاح فسلم واستأذن في الإنشاد ، فقال له لا حاجة لنا في شعرك ، إنما تنشدنا فضلات بني مروان ، فقال : يا أمير المؤمنين : —

كُنَّا أَنْاسًا نَرْهَبُ الْأَمْلاكَ إِذْ رَكَبُوا الْأَعْنَاقَ وَالْأَوْرَاكَ
قَدْ ارْتَجَيْنَا زَمَنًا أَبَاكَ ثُمَّ ارْتَجَيْنَا بَعْدَهُ أَخَاكَ
ثُمَّ ارْتَجَيْنَا بَعْدَهُ إِيَّاكَ وَكَانَ مَا قَلْتُ لِمَنْ سِوَاكَ
زُورًا فَقَدْ كَفَرَ هَذَا ذَاكَ^(٣)

(١) الأغاني : ج ١٨ ص ١٣٩ بلاق والشعر والشعراء ص ٢٣١ والخزانة ج ١

ص ١١٤ السلفية .

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ١٤٠ . (٣) نفس المرجع ص ١٤٣ .

فضحك السفاح وأجازه ، واتخذ شاعره .

وأما ما عرض به لولاية عهد المنصور وصرفها عن عيسى بن موسى ،
فمنه قوله : —

ليسَ وليَّ عهدنا بالأسعدِ عيسى فزحلقها إلى محمد
من عند عيسى معهداً عن معهد حتى تُؤدِّي من يد إلى يد
فقد رضىنا بالغلام الأمرد وقد فرغنا غير أن لم تُشهِد
وغير أن العقد لم يؤكّد فلو سمعنا قولك أمدد أمدد
كان لنا كد عكة الورد الصدى فناد للبيعة جمعاً نحشد^(١)
وله في ذلك أرجوزة أخرى طويلة يقول فيها : —

خليفة الله وأنت ذاكا أسند إلى محمد عصاكا
فأحفظ الناس لها أدناكا وابنك ما استكفيتها كفاكا
وكلنا منتظر لذاكا لو قلت هاتوا ، قلت : هاكا ، هاكا^(٢)

— ٤ —

ونختم هذا الفصل بالإلمام بالخواص الواضحة لفن الرجز والرجاز .

(١) غريب اللغة طبعي الوجود في الرجز عامة والأموى خاصة ، ذلك
أن التزام التصريح في جميع الأبيات يستدعى حشد الكلمات المتحددة الروى ،
ولا يمكن أن تكون كلها مألوفاً الاستعمال ، فإذا أضيف إلى ذلك أن يتناول
الرجز وصف البادية وما إليها كان ذلك عاملاً آخر لغرابة اللفظ لأن ألف البادية
صار وقفاً على ساكنيها دون ساكني الحضر .

(٢) وليست الغرابة وقفاً على المعانى فقط بل تتناول بناء الكلمات واشتقاقها
فهناك مصادر ، وجموع ، وصفات مشتقة ، وأفعال ، ترد غريبة الصياغة الصرفية

غير سائرة ، نجدها واردة لأجل الوزن والقافية ، من ذلك عيش دَغْفَق ،
لج هَذَرْمُهُ ، تَجَهْضُمُهُ ، محتضع ، التكذاب .

(٣) لما كان الوزن قصيراً اقتضى قصر العبارات ، وقد يضطر الراجز إلى
التضمين الذى صار أصلاً فى هذا الفن حتى تتم العبارة فى بيتين ، كذلك تكثر
الجميل الاعتراضية وتقطيع العبارات محافظة على الوزن .

(٤) تمتاز القوافى هنا بالغرابة اللفظية ، والمعنوية ، وبوحدة الموسيقى ،
وبكثرة الضرورات التى يحتملها هذا الوزن ذو التفعيلة الخفيفة (مستفععلن) .

(٥) خضع الرجز لنظام القصيد الذى التزمه فحول الشعراء : من حيث
الديباجة ، وتنوع الفنون ، والطول ، ولكنه امتاز عند زعمائه ، بالدقة والاستقصاء
ولا سباً فى الوصف ، وغلبة الفخر والاستطراد .

(٦) للرجز أحياناً جمال ملحوظ وبخاصة النسيب ، والفخر ، والوصف ، لأن
هذه فنون غنائية خالصة ، يلائمها ترديد الوزن وتجويده ، وطول نفس الشاعر فيه .

(٧) اختلفت شخصيات هؤلاء الرجاز فأبو النجم أجود وصفاً من العجاج ،
ورؤية أكثر فنوناً وأشد تطويلاً ، وأبو نخيلة شاعر أيضاً وليس فى الغريب
كأصحابه .

خاتمة

أما بعد ، فقد رأينا أن نقف عند هذا الحد من تاريخ الشعر السياسي راجين أن يتاح لنا الجهد والوقت لنستأنف البحث في هذا التاريخ مسائرة للأطوار السياسية التي مرت بها الدولة الإسلامية فيما بعد ، وهي أطوار كثيرة متنوعة ، عملت فيها عوامل زمنية ، ومكانية ، ودينية ، وجنسية ، وثقافية ، حتى انتهت بها إلى غايتها الطبيعية ، ولا تزال جادة في هذه السبيل إلى الآن .

وقد رأينا فيما كتبنا أن الشعر السياسي ظاهرة طبيعية في الجماعات الإنسانية التي تخضع في حياتها لنظام مقرر سواء أكان مدوناً مكتوباً أم معتاداً ملحوظاً ، رأيناه في سبيل القبيلة حين تألفت من الأسر فكانت دولة صغيرة عاش في ظلها الشاعر فكان فنه لها كفاء مارعته وحملت جرائره ، وكان هذا التفاعل الاجتماعي الذي أثمر شعر القبيلة الداخلي والخارجي .

ورأيناه في سبيل الإمارة حين تقدم النظام الاجتماعي في بعض نواحي البلاد العربية فقامت الولايات في حماية الفرس ، والروم ، واليمن ، أو حول الكعبة المقدسة ، وانحاز الشعراء إلى هاته الجماعات النظامية وكان شعرهم سجلاً لسياستها في الأيام والمواسم والمواقف .

ثم جاء الإسلام فكانت خطوته الأولى تكوين أمة عربية مؤلفة من هذه القبائل المبددة ، والجماعات المتنافسة ، حتى تعد نفسها لأداء رسالتها الدينية ، والسياسية ، والأدبية ، والثقافية العامة ، وقد تحققت هذه الوحدة الشعبية بزعامة الرسول وأبي بكر الصديق . وجدَّ الشعر في هذه السبيل ، واكتسب طابعاً إسلامياً عاماً ، وانتقل بذلك من أفق قبلي ضيق إلى ساحة عربية واسعة هي ركن الدعوة الدينية .

وفي عهدي عمر وعثمان كان النشاط الخارجي واضحاً فأخذت الإمبراطورية الإسلامية تتكون ناشرة سلطانها شرقاً وغرباً ، واشتد الاتصال بالدول الأخرى

فكانت السياسة الخارجية مشغلة الجيوش والزعماء والقواد تحقيقاً لرسالة الإسلام الإنسانية ، وسار الشعر في ظل هذه الرايات يجاوز حدود الجزيرة العربية وينساح في الأرض يصور ذلك الصراع المتواصل ، فكان شعراً سياسياً ذا جانبين داخلي يتصل بنظام الحكم وخارجي يشيد بسلطان الدولة .

ولما قتل عثمان ثارت هذه الفتن الداخلية في سبيل العرش الإسلامي اضطرت فيها الأقاليم ، والقبائل ، والأسر ، والزعماء ، وانتهت بعد لأى إلى انتصار السياسة الأموية على الشجاعة الهاشمية ، فاستقر الأمر في بني أمية ، وأخذ معاوية يوثقه لآله ، ويجعله وراثياً أو كسروياً معتمداً على روح سياسى عملى حتى ظفر بما أراد ، واستطاع الشعر أن يرسم لنا هذا الصراع قوياً صاحباً حيناً ، وسهلاً ليناً حيناً آخر ، فكان سجلاً للحرب الأهلية بين الأمويين والهاشميين .

ثم نشأت الأحزاب الداخلية ، وقامت على مناهج واضحة متقابلة ، ما بين ديمقراطية ، وارستقراطية ، وجنسية ، وشغلت عهداً طويلاً بصراعها ، وكان لكل حزب نزعتة ، ورجاله ، وشخصيته التى صورناها أثناء البحث . ذلك كله كان مادة للشعر السياسى غزيرة اعتمد عليها شعراء السياسة واحتملوا بها تبعات جساماً في سبيل الحكومة الإسلامية .

على أن هذه الأحزاب المضطربة لم تشغل الدولة عن رسالتها الخارجية ، وبسط نفوذها بين الصين وفرنسة ، فرأينا الشعر يحتل بيئات جديدة ، ويلتقى بأهمشتى ، ويظفر بألوان وشيات طريفة ، ويؤرخ العصر الأموى دولة ، وأحزاباً ، وأقاليم ، وزعماء ، وعصبيات ، ثم نزعة كسروية لعلها انتصرت أخيراً فأقامت الدولة العباسية .

ومهما يكن الشعر العربى محافظاً في صياغته ، ومنهجه ، وفنونه القديمة ، فلسنا نستطيع إنكار ما طرأ عليه في سبيله السياسية من تجديد موضوعى ، ومعنوى ، وأسلوبى ، يبناه فيما مضى من فصول .

وقد يتراءى للنقاد ضعف هذا الشعر السياسى في بعض الأحيان فذلك يرجع

إلى سلوكه سبيل التقرير ، أو ارتجاله ، أو وضعه ، أو كذب الشعور عند قائله ،
أو جدة موضوعه بحيث تعوزه ملكة مدرّبة أصيلة ، غير أن هذا لا يمنع إخضاعه
للتأريخ الأدبي .



والآن ندع هذه الصفحات لنأخذ في تأريخ جانب آخر من جوانب الشعر
القديم ، ولعله فن (النقائض) ، والله المستعان .

أحمد الشاذلي

ملامحة

ورد في ص ٩٨ س ٢ كلمة : في ظل الدولة الإسلامية . والصواب : في سبيل
الدولة الإسلامية .
وورد في ص ١١٣ س ٩ كلمة : السياسة الخارجية . والصواب : السياسة
الإسلامية .

الفهرس

صفحة

تمهيد

التعريف بالسياسة والشعر السياسى — كيف يتناول الشعر
السياسة — الفرق بينه وبين النثر فى ذلك — فنون النثر السياسية . ١ — ١٩

الباب الأول — فى العصر الجاهلى

الفصل الأول : فى سبيل القبيلة .

النظام القبلى أساس الحياة الجاهلية — تكوين القبيلة وعناصرها —
مقومات الدولة والقبيلة — نظام القبيلة الداخلى والخارجى —
صلات القبائل بالدولة الأجنبية — القبيلة دولة صغيرة — الشعر
القبلى سياسى . تفسير الشعر الجاهلى تفسيراً قبلياً سياسياً . منزلة
الشاعر — أقسام الشعر القبلى : تأييد القبيلة ، الثورة عليها ، بين
القبائل ، الصعاليك ٢٠ — ٤٤

الفصل الثانى : فى سبيل الإمارة .

المناذرة والغساسنة — صلتهما معا ، وبالفرس والروم
والقبائل — الشعر والشعراء بينهما — الأيام وشعرها السياسى —
كندة وصلاتها الخارجية — أيامها والشعر — بين امرئ القيس
وعبيد بن الأبرص — قريش ونظامها الاجتماعى فى مكة —
أيامها والشعر — شاعريتها ٤٥ — ٦٢

تذييل : فى خواص الشعر السياسى قبل الإسلام .

شخصيتا القبيلة والفرد فى الشعر الجاهلى — الصفات العامة بين
القبائل فى الشعر — ميزة كل قبيلة — صيغ التعبير — فنون
الشعر السياسى : الداخلية والخارجية — عناصره ٦٣ — ٦٥

الباب الثاني — في صدر الإسلام

صفحة

الفصل الأول : في سبيل الأمة العربية .

الدعوة الإسلامية دين ودولة — الإسلام دين بشري — الطابع
الإسلامي مكان الحماية القبلية — في تكوين أمة عربية — الشعر
يصور هذا الوضع الجديد — الشعر والدين — هو شعر
سياسي — فنونه ومذاهبه — شعر السيرة — شعر اليهود —
الخلافة والشعر — حروب الردة والشعر — الشعر بين الإسلام

والكسروية ٦٦ — ٩٧

الفصل الثاني : في سبيل الدولة الإسلامية .

عهد عمر وعثمان هو عهد تكوين الفتوح الأولى — سياستهما
الداخلية — الشعر يصور هذه السياسة — طابع السياسة
الخارجية — دلالة الشعر عليها — القواد والولاة في الشعر

السياسي ٩٨ — ١١٥

الفصل الثالث : في سبيل الحكومة الإسلامية .

على ومعاوية بعد مقتل عثمان — الحروب بينهما والشعر —
زعماء العرب ومواقفهم والشعر السياسي — مسألة التحكيم
يصورها الشعر — الأحزاب السياسية عقب صفين — الفرق
بين سياسة على ومعاوية — الشعر يصور هاتين السياستين —

الولاة — خلاصة ١١٥ — ١٣٣

تذييل في خواص الشعر السياسي صدر الإسلام ١٣٤ — ١٣٥

الباب الثالث — في العصر الأموي

تمهيد : المقومات السياسية في عصر بني أمية ١٣٦ — ١٣٨

الفصل الأول : في الخوارج أو في سبيل الجمهورية .

نشأة الخوارج وطبيعتهم — أشهر طوائفهم وبعض تعاليمهم —
مميزات شعرائهم وصلاتها بالشعر الخارجي — الخواص الفنية

صفحة

لشعرهم — نشاطهم السياسي — بعض شعرائهم ١٣٩ — ١٥٤
الفصل الثاني : في الشيعة أو في سبيل الهاشمية .

نشأة التشيع — موازنة بين الشيعة والخوارج — بعض طوائف
الشيعة وتعاليمهم — إلمامة بنشاطهم السياسي — خواص شعرهم
السياسي — موازنة بين شعراء الشيعة والخوارج — بعض

شعراء الشيعة — خلاصة ١٥٥ — ١٧٢
الفصل الثالث : الزبيريون أو سبيل الأرسطراطية .

تاريخ هذا الحزب — مقوماته — شعره السياسي : عبيد الله بن

قيس الرقيات ١٧٣ — ١٨٣
الفصل الرابع : الموالي أو في سبيل الكسروية .

أصل الموالي — موقفهم من الحكومة الأموية — شعرهم

السياسي وخواصه — بعض الشعراء الموالي — خلاصة ١٨٤ — ١٩٦
الفصل الخامس : الأمويون أو في سبيل الملكية .

مكة وبيتا أمية وهاشم — فكرة الأموية تتحقق — ملك عضوض

— جوانب الدراسة الأموية — الأمويون حزب له مبادئه

وشعراؤه — سياسة الرعية والشعر — الشعر يصور العصبيات

الأموية — الولاة والشعر — السياسة الخارجية والشعر السياسي ١٩٧ — ٢٥٠

الفصل السادس : الفحول والسياسة أو في ظل الملكية (١)

الفحول وميزاتهم العامة — الموازنة بينهم وبين شعراء الخوارج —

صلتهم بالسياسة والعصبيات — إلمامة بمواقفهم السياسية —

خلاصة ٢٥١ — ٢٧١

الفصل السابع : الرجاز والسياسة أو في ظل الملكية (٢)

فن الرجز ، وأطواره ، وموضوعاته — الرجاز والشعراء —

مواقفهم السياسية — التعريف ببعضهم — خواص الرجز

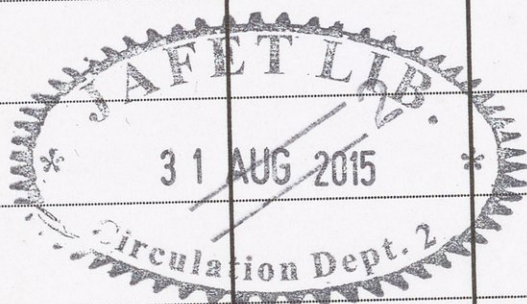
والرجاز ٢٧٢ — ٢٨١

خاتمة ٢٨٢ — ٢٨٤

DATE DUE

Not to be taken out
Reserve Reading Room

2



11

التسايب ، احمد

تاريخ الشعر السياسي الى منتصف الق

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01036967



